

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السادسة عشرة : العدد الرابع والستون - محرم ١٤٣٠ هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩ م

مصحف عثمانى، مطبوع بسنت بطرسبورغ،

حجرى، سنة ١٩٠٠م



Ottoman Holy Quran, Copied in St Petersburg
Stone manuscript in 1900

شروط النشر في المجلة

١ - أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:

- قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.

- قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ - ألاّ يكون البحث جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍ كان، ويشمل ذلك البحوث المقدمة للنشر إلى جهةٍ أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ - يجب أن يُراعى في البحوث المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ - يجب أن يكون البحث سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ - يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ - بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ بحث مرتبة ترتيبًا هجائيًّا تبعًا للعنوان مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ - أن يكون البحث مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا على الآلة الكاتبة، أو بخطٍ واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ - على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة مبيّنًا، اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسمٍ وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ - يمكن أن يكون البحث تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالبحث صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطّية المعتمدة في التحقيق.

١٠ - أن لا يقلّ البحث عن خمس عشرة صفحة، ولا يزيد عن ثلاثين.

ملاحظات

١ - ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

٢ - لا تُرد البحوث المرسلة إلى المجلة إلى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.

٣ - لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة تحرير المجلة إلاّ لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، وذلك قبل إشعاره بقبول بحثه للنشر.

٤ - تستبعد المجلة أيّ بحثٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ - تدفع المجلة مكافآت مقابل البحوث المنشورة، أو مراجعات الكتب، أو أيّ أعمال فكرية.

٦ - يعطى الباحث نسختين من المجلة.



مركــز جمعـة المـاجـد للثقــافة والتــراث
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، و بعد ،

فإنه يسرنا أن نبعث إليكم بنسخة من العدد (٦٤) من مجلة آفاق الثقافة و التراث.

راجين التفضل بإرسال إشعار التسلم المرفق بالمجلة إلينا.

مع خالص شكرنا و تقديرنا لحسن تعاونكم معنا

و تفضلوا فائق الاحترام و التقدير

Dear Sir ;
Attached is one copy of Afaq Al-Thaqafa wa Al- Turath magazine, issue No (64). Please send back the enclosed receipt of Acknowledgement after filling in the required infomation.
Thank you for your kind cooperation
We remain

Gift ☐ إهداء

Exchange ☐ تبادل

Subscription ☐ اشتراك

قسيمة اشتراك
Subscription Order Form

عدد السنوات of Years ☐ | أكثر من سنة More Than One Year ☐ | سنة One Year ☐

of Copies: .... عدد النسخ | Issues .... للأعداد

Subscription Date : .... ابتداء من تاريخ

☐ حوالة بريدية Postal Draft | ☐ حوالة مصرفية Bank Draft | ☐ شيك Check

Signature : .... التوقيع | Date : .... التاريخ

إشعار بالتسلم

Acknowledgement of Receipt

Name : .... الاسم الكامل :

Institution .... المؤسسة :

Address .... العنوان :

P.O. Box : .... صندوق البريد :

No. of Copies: ☐ عدد النسخ : Issues No.: ☐ العدد :

Subscription ☐ اشتراك Exchange ☐ تبادل Gift ☐ إهداء

Signature : .... التوقيع : Date : .... التاريخ :



آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية
بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+
فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+
دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@almajidcenter.org

السنة السادسة عشرة : العدد الرابع والستون - محرم ١٤٣٠ هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٩ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل
أولريخ الدولي للدوريات
تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

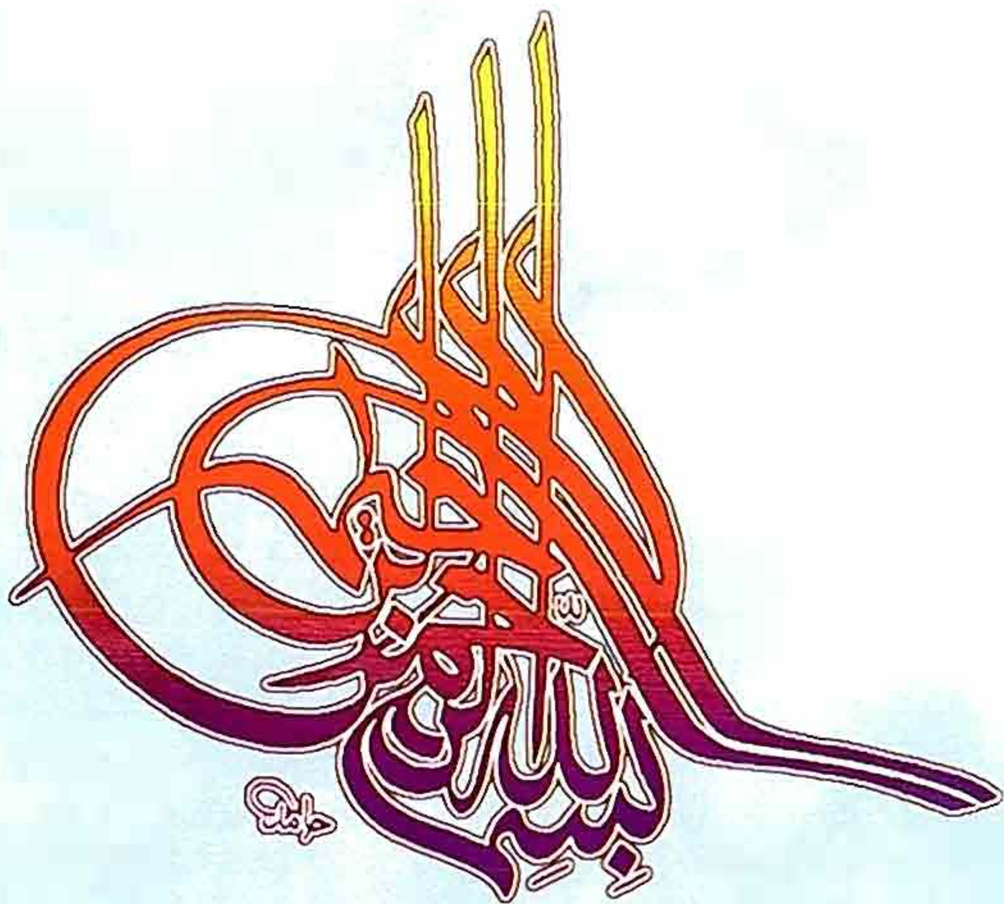
هيئة التحرير

الاشتراك السنوي

	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٠٠ درهم
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهم
الطلاب	٤٠ درهماً	٤٠ درهماً

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــرس



رحيل المخطوطات
الموت المصنوع بأيدينا وأيدي غيرنا

لا يشك أحد في أن التراث الإسلامي المخطوط قد تعرض لموجات واسعة وقاسية من الإتلاف في كثير من الأحيان أحالت جزءا كبيرا منه إلى العدم فقدت معه الأمة جانبا كبيرا من تاريخها وثروتها العلمية وأقصي به جمهور من العلماء من ذاكرتها، وقد شملت هذه الإبادة مكتبات كثيرة بل تراث مدن بأكملها وقد حصل ذلك بفعل الإنسان وكسب يده - أعني هنا أعداء الأمة والحاقدين عليها ولو كانوا من أبنائها - وكذا الكوارث الطبيعية التي كان لها دور رئيس في الوضع المأساوي الذي أشرنا إليه.

فكلنا يتذكر ما فعله المغول عند دخولهم إلى بغداد في منتصف القرن السابع الهجري حيث عمدوا إلى إلقاء معظم المخطوطات في نهر دجلة حتى تغير لون مائه بلون الحبر نتيجة تحلل الأحبار التي كتبت بها تلك المخطوطات، ويندرج في سلم هذه المأساة ما قام به الاستعمار في البلاد الإسلامية من حرق وإتلاف وإفساد وتدمير للمكتبات ومعها المخطوطات، نكاية في حضارتها وشعوبها فقد قام الاستعمار الفرنسي في الجزائر بحرق عدد من المكتبات في مناطق عديدة من البلاد، ومن أمثلة ذلك مخطوطات زاوية الشيخ الحسين بـ: سيدي خليفة بولاية ميلة، حيث تتحدث رواية الأهالي عن ٦٠٠٠ مخطوط كانت تزخر بها الزاوية لكن الاستعمار الفرنسي حرق عددا كبيرا منها وهرب عددا آخر إلى بلده ولم يبق منها اليوم سوى ٤٠٠ مخطوط فقط حسب رواية الدكتور عبد الكريم عوفي، ومثل هذا الصنيع قام به الاستعمار في تونس والمغرب وسوريا وكل الدول الإسلامية التي دخلها، ومن هذا القبيل إحراق المكتبة السعيدية بحيدرأباد بالهند من قبل الهندوس المتعصبين وكذا إحراق عدد غير قليل من المكتبات عند احتلال الروس لجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية (تركمانستان وطاجيكستان وأوزباكستان وكازاخستان وقرقيزستان وغيرها)، وكذلك أفغانستان ومثله ما حدث في فلسطين والعراق واليمن، وما فعله الاستعمار الإيطالي في ليبيا، وغيرها من الدول العربية والإسلامية.

وهناك وجوه أخرى لرحيل المخطوطات الأبدي وشبه الأبدي، كان الاستعمار السبب الرئيس في حدوثها، وهو أن الناس لما علموا ما علموا من إفساد المستعمر في تراثهم وسرقته وحرقه، عمدوا إلى إخفائه في الجبال وتحت الأرض لإبعاده عن عيون المستعمر ومتناول يده إلا أن عددا كبيرا ممن قاموا بهذا العمل قد ماتوا قبل أن يخرج الاستعمار من البلاد الإسلامية، فأصبح مكان

وجود تلك المخطوطات سرا دفن مع أصحابه إلى يوم الدين. وفي بعض البلاد الإسلامية كانت المخطوطات تلقى في الأنهار والوديان خوفا من بطش المستعمر الذي كان يفتك بكل من يجد عنده شيئا من ذلك، مثل ما حدث في تاجيكستان عندما ازدحمت مياه نهري أموداريا وسيرداريا بأوراق المخطوطات وأحبارها.

وقد أسهم المسلمون أنفسهم عن قصد أو غير قصد في إبادة جزء من تراثهم المخطوط فكثير من المكتبات العامة والخاصة التي تزخر بالمخطوطات، تفتقد إلى أدنى وسائل الحفظ وعمليات الصيانة للمخطوطات، مما أدى إلى تحجر عدد كبير منها حيث أصبح من الصعوبة بمكان فتحه، أو الاستفادة منه، وإن حاول المرء فتحه باستعمال شيء من القوة فإن عمله كعمل من يكسر خشبة، أو يفتت طوبًا من الطين، وبعضها يمكن فتحها، لكنك إذا أخذت تقلب صفحاتها فإنك تحيل بيدك ثلث المخطوط بل كله أحيانا إلى العدم، وذلك لهشاشة أوراقه، بل إن طرق الترميم المتقدمة قد لا تفلح في إنقاذه وإعادته للحياة، وهو ما رأيناه بأم أعيننا في مكتبة قسم اللغة العربية في الكلية الجمالية بمدينة ترتشي بولاية تامل نادو بالهند فإن لون أوراق المخطوطات قد تحول إلى الأسود وذلك بفعل الرطوبة وتحلل الأحبار، وكانت أوراق المخطوط متهالكة على الآخر فكنا إذا أخذنا مخطوطا لنطلع عليه سقط جزء منه من أيدينا ترابا، بل إن بعض المخطوطات تم رميها والاستغناء عنها بحضورنا، لعدم إمكانية الاستفادة منها بأي حال من الأحوال، ولما سألنا عن سبب الوصول إلى هذا الوضع تبين أن هذه المخطوطات لم تحرك من مكانها سنين طويلة، ولم تعرف قط صيانة ولا رعاية، ومثل هذه المكتبة في الهند وباكستان وبانقلادش والدول الإفريقية كثير جدا.

وقد كان للظروف الطبيعية دور بارز في عملية الإبادة التي أصابت المخطوطات الإسلامية حيث إن عددا كبيرا من المخطوطات بمنطقة أولف بولاية أدرار بالجنوب الجزائري قد أهلكتها السيول والأمطار الطوفانية التي حلت بالمنطقة سنة ١٩٦٥ م. ومثل هذا يحدث بشكل كثير ومستمر في كل من باكستان والهند وبانقلادش وأندونوسيا وغيرها من الدول الإسلامية.

ونذكر في هذا المقام إعصار تسونامي المدمر، الذي ضرب دول شرق أسيا والذي وصفه بعضهم ممن كتب لهم معايشته، والنجاة منه بقدر الله؛ بالقيامة الصغرى؛ فقد نالت المكتبات العامة والخاصة ومعها تراث تلك الشعوب نصيبها من الدمار الشامل الذي أصاب المنطقة.

إن الوضع السالف الذكر الذي مر به تراثنا ولا يزال في أماكن كثيرة يتطلب منا وقفة جادة ومن المسؤولين على قطاع التراث والثقافة بوجه خاص.

وفي الأخير أسأل الله الكريم الحفظ لأمتنا ولتراثها المجيد.

مدير التحرير

الدكتور عزّ الدين بن زغيبة

ضوابط فهم السنّة النّبوية عند الشيخ محمّد الغزالي

د. عبد الكريم حامدي
باتنة -الجزائر

تُعَدّ السنّة النبوية المصدر الثاني من مصادر التّشريع بإجماع، وهي مجموع أقوال النّبي ﷺ وأفعاله وتقريراته الواردة في غالب الأحوال بيانا للقرآن وتفسيرا له، أو تشريعا مبتدأ وفق روح القرآن ومقاصده، وتكمن أهمية السنّة النّبوية في كونها المرجع في فهم رسالة القرآن الدّينية والدّنيوية، وقد أولاها المسلمون العناية الكافية على مرّ العصور، جمعا وتدوينا، وبيانا وشرحا، فاستخلصوا منها الأحكام الفقهية والآداب النّفسية والاجتماعية، والقواعد الاقتصادية والسياسية، وغيرها من الكنوز والفوائد.

ومع ذلك فقد مرّت السنّة بأوقات عصيبة، تعرّضت فيها للتّحريف المزيّف، والتأويل الباطل، والفهم الظاهري المقطوع عن القرآن، وما زالت إلى اليوم تتعرّض لسوء الفهم من قبل أدعياء العلم والفقه في الدّين.

وقد قيّض الله رجالا في مختلف العصور للذّود عن حياض السنّة الشّريفة، وتصحيح مفاهيمها، وردّ الشّبهات عنها، ومن هؤلاء الإمام محمّد الغزالي-رحمه الله- الذي خصّص جزءا من وقته ورسالته الدّعوية والفكرية والعلمية في تصحيح المفاهيم وضبط القواعد وتأسيس المنهج السّليم لفهم السنّة النبوية.

وقد سجّل في كتبه ما وقع فيه المسلون، علماء وأتباعا، من سوء فهم السنّة النبوية، مما أدّى بهم إلى التفرّق والاختلاف المذموم، وتوصّل من خلال معايشة الواقع والاستقراء والتتبّع، والتأمّل والنظر إلى أسباب ذلك، وطرق العلاج.

وفي هذا الموضوع نتعرّف إلى جملة من الضّوابط استخلصتها مما كتبه الشيخ الغزالي.

تشكّل في نظره المنهج السّليم لدراسة وفهم السنّة النّبوية والعمل بها.

الضابط الأول: فهم الحديث في ضوء القواعد العلمية الحديثية

وضع الإمام مجموعة من المفاهيم والمعايير المتعلقة بفهم السنّة النبوية فهما صحيحا. حاولت استخلاصها وصياغتها في شكل ضوابط. لتكون عونا للدارسين والمشتغلين بالسنّة. وأول هذه الضوابط أن يفهم الحديث فهما سليما في ضوء القواعد العلمية التي وضعها أئمة الحديث. وذلك باتباع الخطوات الآتية:

١) تصحيح الحديث سندا ومتنا:

ردّ الإمام على بعض الجهلة وأعداء السنة الذين أنكروا الكثير من السنن بدعوى مصادمتها للحقيقة العلمية. وبين أنه لا مجال لردّ ما صحّ من السنة بمثل هذه الدّعاوى الباطلة. بل لابدّ من تحكيم القواعد الفنّية التي وضعها أهل العلم. وإنّ الحكم على درجة الحديث وصحّته شامل للسند والمتن معا. يقول: ((وإنّ الولع بالتكذيب لا إنصاف فيه ولا رشد. وقد تعقّبت طائفة من منكري السنن. فلم أر لدى أكثرهم شيئا يستحقّ الاحترام العلمي. قالوا: إنّ السّلف اهتمّوا بالأسانيد وحبسوا نشاطهم في وزن رجالها. ولم يهتمّوا بالمتون. أو يصرفوا جهدا مذكورا في تمحيصها. وهذا خطأ. فإنّ الاهتمام بالسّند لم يقصد لذاته. وإنما قصد منه الحكم على المتن نفسه. ثم إنّ صحة الحديث لا تجيء من عدالة رواته فحسب. بل تجيء أيضا من انسجامه مع ما ثبت يقينا من حقائق الدّين الأخرى. فأيّ شذوذ فيه أو علّة قادحة يخرجه من نطاق الحديث الصحيح. على أنّ اتهام حديث ما بالبطلان مع وجود سند صحيح له. لا يجوز أن يدور مع الهوى. بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنّية محترمة. هذا ما التزمه الأئمّة الأوّلون. وما نرى نحن ضرورة التزامه. ذكر بعضهم حديث: [**الحبّة السوداء شفاء من كل داء إلا السام**].[1] فقال: إنّ الواقع يكذّبه. وإن صحّحه البخاري. ويظهر أنه فهم من -كل داء- سائر العلل التي يصاب الناس بها. وهذا فهم باطل. ولو كان ذلك مراد الرسول ﷺ ما كان هناك موضع للأحاديث الكثيرة الأخرى التي تصف أدوية أخرى لعلل شتى. والواقع أنّ -كل داء- لا تعني إلا بعض أمراض البرد. فهي مثل قول القرآن الكريم في وصف الرّيح التي أرسلت على-عاد-: ﴿**تدمّر كل شيء بأمر ربها**﴾[2] ف﴿كلّ شيء﴾ هو ما عمرت به مساكن القبيلة الظالمة فحسب. وهذا الحديث. ولو أنّ مسلما مات دون أن يعلم به ما نقص إيمانه ذرّة. إنّ أبا بكر وعمر كليهما. لم يعلما بالحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ الذي قال فيه: [**أمرت أن أقاتل الناس- يعني وثني الجزيرة- حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**].[3] فإنّ الحديث الذي حفظاه ليس فيه: [**إقام الصلاة وإيتاء الزكاة**]. ولو علم عمر بهذا النص الزائد ما اعترض على أبي بكر في قتاله مانعي الزكاة. ولو علم به أبو بكر ما استدلّ على رأيه بالقياس والاستنباط.[4] ولكن فقه الشيخين في الكتاب العزيز. وحسن استفادتهما مما يعلمان من سنّة أغنى وكفى. ولم يضرّهما ما يجهلان من روايات أخرى. بيد أنّ الطعن - هكذا خبط عشواء- في الأسانيد والمتون. كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه. بل إهدار السنّة كلها. ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محلّ الرّيبة والازدراء. وهذا - فوق أنه غمط للحقيقة المجرّدة - يعرض الإسلام كله للضياع. إنّ دواوين

السنّة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا. ويمكننا أن نقول: إنّ الكتب المقدّسة لدى بعض الأمم ما تزيد في قيمتها التاريخية عن أحاديث دوّنها علماؤنا وحكموا على طائفة منها بالضّعف. وطائفة أخرى بالوضع...)).(٥)

٢) لا يُقبل الحديث إلا بعد توفّر شروطه:

بين الإمام أنّ العمل بالحديث لا يقبل إلا بعد معرفة درجته وسلامته من الشّذوذ في الأسانيد والعلل القادحة في المتون. وقد تكفّل المحدّثون بدراسة الأسانيد، والفقهاء ببيان العلل. فكان عمل الفقهاء متمّما لعمل المحدّثين في حفظ السنّة النبوية. فالحديث لا يعمل به إلا إذا توفّرت فيه الشّروط التي وضعها المحدّثون والفقهاء معا. يقول: ((توثيق الأخبار لون من إحقاق الحقّ وإبطال الباطل. وقد اهتمّ المسلمون اهتماما شديدا بهذا الجانب من المعرفة والاستدلال. لاسيما إذا اتّصل الأمر بسيرة نبيّهم، وما ينسب إليه من قول أو عمل. إنّ هناك طريقا واحدا لإرضاء الله سبحانه وتعالى ونيل محبّته. هو اتّباع محمد ﷺ واقتفاء آثاره. والسير على سنّته لقوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.(٦) وأمّتنا من تاريخ بعيد تصون التّراث النّبوي، وتحميه من الأوهام. وتعدّ الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار؛ لأنه تزوير للدّين وافتراء على الله لقوله ﷺ: [إنّ كذبا عليّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار].(٧)

وقد وضع علماء السنّة خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية: ثلاثة منها في السند. واثنان في المتن:

- لابد في السّند من راو واع يضبط ما يسمع، ويحكيه بعدئذ طبق الأصل.

- ومع هذا الوعي. لا بدّ من خلق متين وضمير يتقي الله ويرفض أيّ تحريف.

- وهاتان الصفتان يجب أن يطّردا في سلسلة الرواة. فإذا اختلّتا في راو أو اضطربت إحداهما. فإنّ الحديث يسقط عن درجة الصحّة. وننظر بعد السّند المقبول إلى المتن الذي جاء به. أي إلى نصّ الحديث نفسه:

- فيجب ألا يكون شاذًا.

- وألا يكون به علّة قادحة.

والشّذوذ أن يخالف الرّاوي الثقة من هو أوثق منه. والعلّة القادحة عيب يبصره المحقّقون في الحديث فيردّونه به.

وهذه الشّروط[٨] ضمان كاف لدقّة النقل وقبول الآثار. بل لا أعرف في تاريخ الثقافة الإنسانية نظيرا لهذا التأصيل والتّوثيق. والمهمّ هو إحسان التطبيق. وقد توفّر للسنّة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى بلغوا بها المدى. وكانت غربلتهم للأسانيد مثار الثّناء والإعجاب. ثم انضمّ إليهم الفقهاء في ملاحظة المتون. واستبعاد الشّاذ والمعلول. ذلك أنّ الحكم بسلامة المتن يتطلّب علما بالقرآن الكريم. وإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة. وعلما آخر بشتّى المرويات المنقولة لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر)).(٩)

ويقرّر أنّ الحديث يكون مقبولا إذا استجمع شروط الصّحة التي وضعها الأئمّة. وإذا وقع خلاف فالأمر فيه سعة. من غير حمل المخالف على القبول أو اتهامه بالكفر أو العصيان. يقول: ((إنه لا فقه مع العجز عن فهم الكتاب ومع العجز عن فهم الحياة نفسها. وبعض المشتغلين بالحديث يستوعر تدبّر القرآن. ودراسة دلالاته القريبة والبعيدة.

ويستسهل سماع حديث ما. ثم يختطف الحكم منه فيشقى البلاد والعباد. قلنا: إنه لا خلاف بين المسلمين في العمل بما صحت نسبته لرسول الله ﷺ وفق أصول الاستدلال التي وضعها الأئمة، وانتهت إليها الأمة. إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها. وهو خلاف لا بدّ من حسمه. ولا بدّ من رفض الافتعال أو التكلف فيه. فإذا استجمع الخبر المروي شروط الصحّة المقرّرة بين العلماء. فلا معنى لرفضه. وإذا وقع خلاف محترم في توفّر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة. وأمكن وجود وجهات نظر شتّى. ولا علاقة للخلاف هنا بكفر ولا إيمان. ولا بطاعة أو عصيان)).[10]

٣) لا يعدل عن الحديث الصّحيح إلى الضّعيف:

ويعتب الإمام على كثير من المنتسبين للسنّة، عندما يتمسّكون بالضّعيف منها ويتركون الصّحيح في قضايا تمسّ المجتمع. ومما تعمّ بها البلوى، كمنع زيارة النّساء للمقابر، ومنع رؤية المرأة للرجال مع غضّ البصر، والغلاء في المهور، ومنع صلاة النساء في المساجد. يقول: ((على أنّنا نعتب على جماعات كثيرة تنتسب للسنّة وتظهر التمسّك بها. إذ إنّ مسلكها قد يكون من وراء انصراف بعض الناس عن السّنن وشكّهم في جدواها... ومن ذلك أنّ بعض الجماعات تخلط الصّحيح بالسقيم، ولا تدري بدقّة ما يقبل ويردّ من المرويات. وقد لاحظت عند تحديد الوضع الاجتماعي للمرأة أنّه ما يجيء حديثان في قضية تتصل بها إلا أخّر الصّحيح وقدّم الضّعيف.

- زيارة المرأة للقبور ترويها أحاديث صحيحة.[11] ولكن بعض أهل العلم يقدّمون عليها حديثا ضعيفا يلعن زائرات القبور.[12]

- ورؤية المرأة للرجال - مع غض البصر- ترويها أحاديث صحيحة.[13] ولكن بعض أهل العلم يطوون ما صحّ وينشرون آثارا واهية أنّ المرأة لا ترى رجلا ولا يراها رجل. وقد وضعت تفاسير وذكرت مرويات لتقرير أنّ وجه المرأة عورة، وأنّ الإسفار عنه جريمة. وليس وراء هذا الزّعم سنّة صحيحة، ولا فقه قائم.

- قضية المهور، فإنّ الأحاديث الصحيحة وردت برفض المغالاة فيها. روى مسلم عن أبي هريرة قال:جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوّجت امرأة من الأنصار. فقال له النبي: [**على كم تزوّجتها؟**]. فقال: على أربع أواق من فضة. فقال له النبي ﷺ: [على أربع أواق. كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل].[14] وظاهر من تعليق الرّسول أنه استكثر المهر. والأصل في المهور التيسير. وسنّته ﷺ في نسائه وفي بناته التيسير. والأحاديث في ذلك كثيرة. ولكن هذه الأحاديث الكثيرة طويت طيا. وانهزمت أمام رواية جاءت أنّ امرأة جادلت عمر بن الخطاب في زيادة المهور. وهزمته مستشهدة بقوله تعالى: ﴿**وآتيتم إحداهنّ قنطارا**﴾[15] وهذه الرّواية لن تأت من سند صحيح. بل في رجالها انقطاع وضعف.[16] ولو جاوزنا ذلك- وما يجوز تجاوزه- فإنّ موضوع الآية ومعناها ليس محلّ الاستشهاد. إذ الآية في شخص يريد تبديل زوجة بأخرى، ويريد أن يستردّ من الزوجة المتروكة ما أعطاه إياها مهرا. فرفض القرآن هذا المسلك الصّغير. وبين أنه ما يجوز أخذ شيء من المرأة المهجورة ولو أمهرها قنطارا. والعبارة تفيد المبالغة. ولو لم تفدها فالأمر يتّصل بقضية أخرى غير إنشاء البيوت وإعفاف الرّجال والنّساء، وإغلاق أبواب الحرام، وتفتيح أبواب الحلال، وحماية الأمّة من التسوّل الجنسي ومقاذر الانحراف.

- رفض صلاة النّساء في المساجد. فقد فهم

من أحاديث لم يروها رجال الصحيح.[١٧] ومع ذلك فقد أقرّ الرّفض عمليا، وطويت الأحاديث المتواترة والصحيحة[١٨] في هذه القضية المتصلة بأهمّ عبادات الإسلام، والتصرّف في السنة بهذا الأسلوب لا يمكن أن يكون دينا قويّا ولا صراطا مستقيما)).[١٩]

٤) ترك المرويات الضّعيفة في العقيدة والشّريعة معا:

بيّن الإمام ضرورة ترك الحديث الضّعيف، إلا إذا دعت الحاجة إليه، فلا تجوز رواية الضّعيف في باب العقائد والأحكام التشريعية، ولا في الأعراض والدّماء والأموال، ولا في الأصول التربوية والتقاليد الاجتماعية، وغيرها من حقائق الإسلام الكبرى، يقول: ((من حقّ المهتمّين بالأحاديث الضّعيفة أن يذكروها بعيدا عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية، فإنَ الدّماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية، وكذلك أصول التربية وتقاليد المجتمع والشّعائر التي يشخص إليها الرّأي العام وتعدّ منارات على حقائق الإسلام وأهدافه في الحياة، ويمكن الاكتراث بالأحاديث الضّعيفة في قضايا هامشية أو حيث تكون زيادة تنبيه إلى ما قرّرته الأدلة المحترمة في كتاب الله وسنّة رسوله، وهذا هو منهج علمائنا من قديم.[٢٠] ولكن طوائف من العوام، أو من ذوي الأغراض حادوا عن هذا المنهج، فرأينا أشياء تهتاج لها جماهير ما كان السّلف الأوّل يأبه لها، وتّم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى في مجال العقيدة والشريعة، ومجال الإدارة والاقتصاد والسياسة، بل أستطيع القول بأنه تّم على حساب الأخلاق والتزكية التي بعث بها صاحب الرسالة العظمى...والبعد الذي لاحظناه عن منهج السّلف يرجع إلى انتشار الأحاديث الضعيفة، ويرجع قبل ذلك إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى، وهي أنّ دلالة حديث الآحاد يفيد اليقين العلمي الذي يفيده المتواتر)).[٢١]

الضّابط الثاني: فهم الحديث في ضوء أسباب وروده

كما يعيب الإمام على المشتغلين بالسنن قطع الحديث عن ظروفه وأسبابه التي قيلت فيه، وعزله عن سائر الأحاديث الواردة في الموضوع ذاته، مما يجعل فهم الحديث قاصرا ومبتورا وشاذّا، يقول: ((أمّا الأمر الثاني الذي يؤخذ على المشتغلين بالسنن عموما، فهو قصورهم الفقهي، وليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم - مع أنه الأصل- كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمّون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيّدها وقد تردّها، وخذ هذين المثلين مما عرض لي في القاهرة وأنا مهموم بقضايا الدعوة.

- وقف خطيب يدّعي السّلفية يروي للناس أنّ والد الرسول ﷺ في النّار، وكان ذلك بمناسبة احتفال المسلمين بالمولد النّبوي، وقلت للناس: هذا الحديث[٢٢] يخالف قوله تعالى: **﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا﴾**.[٢٣] وقد ثبت أنّ جيل الرسول الكريم وصحابته كلهم لم يبعث أحد إلى آبائهم: **﴿لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾**.[٢٤] **﴿لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾**.[٢٥] ومعنى هذا أنّ عبد الله وأمثاله لا يعذّبون، ولا يدخلون النّار، ويكفي هذا الخلاف لنقض الحديث فهو علّة تقدح في صحّته، وعلماء الحديث يردّون المتن إذا خالف ما هو أصحّ وأوثق، وليس بعد حكم القرآن الكريم حكم، ولعل الرّاوي فهم أنّ تعذيب المشركين جميعا هو الأساس، وأنّ استثناء أهل الفترة رحمة فوق العدل.

فساق الحديث لتوكيد المعنى الأوّل. وعلى أية حال فإنّ رواية الحديث في خطبة جامعة وفي مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي جلافة وجهالة غليظتان.

- قال خطيب آخر يدّعي التصوّف: إنّ الله ليلة المعراج نزل لمحمّد وأوحى إليه. وقلت للناس: ما روي في ذلك كان رؤيا منام. ومع ذلك فقد رفضه الحفّاظ وردّوه ردّاً شديداً. وعدّوه من العثرات القليلة التي أخذت على راويه[٢٦].

وقد لاحظت أنّ المطابع وضعت في أيدي الجماهير نسخا كثيرة من الموطأ ومن الصّحيحين. وكثيرا ما يقرأ العامّة أحاديث فوق مستواهم. والحديث إن لم يقدّمه عالم فقيه. أو إذا لم يصحب بشرح يلقي ضوءا كاشفا على معانيه. ربما كان مثار فتنة ولغط. وكم من أنصاف المتعلّمين أساؤوا إلى السنّة بضعف الفقه وقصور البصر... ودراسة السنّة علم له رجاله الخبراء. ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السّفهاء من أحكام طائشة تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمرا جائزا أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعا. إنه لا فقه من غير سنّة ولا سنّة من غير فقه. وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة)) [٢٧].

الضّابط الثالث: فهم الحديث في ضوء الوحدة الموضوعية

أوضح الإمام أنّ الطريقة المثلى في معرفة الحكم من الحديث هو أن نجمع الأحاديث الواردة في القضية الواحدة. ثم ننظر في معانيها ودلالاتها لاستخراج الحكم الشرعي. وألا نكتفي بحديث واحد. فإنّ ذلك يقطع المقصد من المعرفة الحديثية. ويطعن في السنّة. ويضلّ الناس عن الحقّ. يقول: ((إنّ الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال. بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التي وردت في موضوع واحد. ثم نلحقها بما يؤيّدها ويتّصل بها من الكتاب الكريم. ولن نعدم هذه الصّلة. أما الاستدلال هكذا خبط عشواء بما يقع تحت أبصارنا من حديث قد نجهل الظروف التي قيل فيها والمدى الذي يعمل فيه. فهو ضلال عانى المسلمون من مغبّته. ويعانون الآن أضراره.

وأضع أمام القارئ سلسلة من الأحاديث مرتّبة ترتيبا تصاعديا حسب الأزمنة التي قيلت فيها ليتصوّر القارئ أيّ تخبّط يقع فيه المسلم لو اقتطع الأحاديث الأولى أو أحدها من هذه السلسلة وزعم أن العمل عليها. وتجاهل ما بعدها:

[من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرّم الله عليه النار].[٢٨]

[عرى الإسلام وقواعد الدّين ثلاثة عليهن أسس الإسلام، من ترك واحدة منها فهو كافر حلال الدم: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان].[٢٩]

[ثلاثة أحلف عليهنّ، لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له. وسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة، والصوم، والزكاة].[٣٠]

[بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان].[٣١]

[والذي نفس محمد بيده - ثلاثا- ما من عبد يصلي الخمس ويصوم رمضان ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة].[٣٢]

[الإسلام ثمانية أسهم: الإيمان سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل الله سهم، وقد خاب من لا سهم له].[٣٣]

وبديهي أنّ الحديث الأوّل قيل قبل إنزال الفرائض، وأنّ الثاني قيل قبل تشريع الزكاة، والثالث قيل قبل فرض الحجّ...وهكذا تقوم السنّة بخدمة المقاصد التي يوضّحها القرآن، وللقرآن وحده المرتبة الأولى في بيان حقائق الدّين كاملة، وفي إحصاء أصوله الثابتة على اختلاف الأمكنة والأزمنة، وبديهي كذلك أنّ الحديث الأوّل لا يردّ غيره من الأحاديث، وبالتالي لا يستطيع- وليس له- أن يردّ آيات القرآن في شيء من التشريعات، فليعلم ذلك من تضطرب في فهم الإسلام عقولهم ويظنّون أنّ مرجع ذلك إلى تعارض النصوص، والحقيقة أنه من الحماقة التي تملأ هذه الرؤوس، ولعلماء المسلمين القدامى - من كرام الأئمة- نظرات صائبة في طرائق الاستدلال، ولأفهامهم في الكتاب والسنة روعة يستجليها من يتتبع تاريخ التشريع الإسلامي في عصوره الزّاهرة. ونحن فيما سبق إنما نشرح طرفا مما قرّروا)).[٣٤]

ويؤكّد على هذا الضّابط في موضع آخر، فيقول: ((إنّ الحكم الدّيني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضمّ الحديث إلى الحديث، ثم يقارن الأحاديث المجموعة بما دلّ عليه القرآن الكريم، فإنّ القرآن هو الإطار الذي تعمل في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أنّ السنة تقضي على الكتاب، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور، ويوضّح ما قلناه ما رواه ابن كثير عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، قال: <كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن>. قال الله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما**﴾.[٣٥] يعني السنّة. وهذا صحيح. فإنّ حياة محمد ﷺ كانت تطبيقا عمليا لتوجيهات القرآن، كانت سيرته في العبادة والخلق والجهاد والمعاملة قرآنا حيّا يغيّر الأرض ويصنع حضارة أخرى. ولولا هذه السنّة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال. إنّ سنّة محمد ﷺ في النّواحي الاجتماعية والمدنية والعسكرية، وقبل ذلك كلّه في شرائع العبادة والاعتقاد، جزء لا يتجزأ من الرّسالة الخالدة. فإنّ الإسلام يتكوّن من الكتاب والسنة كما يتكوّن الماء من عنصريه المعروفين، ونحن هنا نذود عن المرويات الواهية، والأحاديث المعلولة كما نذود عن القرآن نفسه التفاسير المنحرفة والأفهام المختلفة، ليبقى الوحي الإلهي نقيا. إنّ ركاما من الأحاديث الضعيفة ملأ آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم، وركاما مثله من الأحاديث التي صحّت، وسطا التحريف على معناها أو لابسها، كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة)).[٣٦]

الضابط الرابع: فهم الحديث في ضوء سياقه

ويرى الإمام أنّ من الأسباب المعينة على فهم السنّة معرفة الظروف والملابسات التاريخية من المكان والزمان والحال التي ورد فيها الحديث، فإنها نعم العون على إدراك دلالات الحديث ومعانيه ومقاصده، ودفع التّعارض الظاهري بين الأحاديث في المسألة الواحدة، إذ تتعدّد أجوبة الرّسول ﷺ بحسب تعدّد تلك الملابسات، يقول: ((وليس المهمّ أن نعرف ما حدّث به - أي الرسول ﷺ - فحسب، ولكن المهمّ أن نعرف كيف، ومتى، ومن حدّث؟ وإنّ هذه الظروف تعين إعانة حاسمة على فقه السنّة فقها صحيحا. ومثال ذلك:

- عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رجل: يا رسول الله، أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: [الحالّ المرتحل] قال: وما الحالّ المرتحل؟ قال:

[الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل].[37]

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: [الصلاة على وقتها] قلت: ثم أيّ؟ قال: [برّ الوالدين] قلت: ثم أيّ ؟ قال: [الجهاد في سبيل الله].[38] قال ابن مسعود: حدّثني بهنّ. ولو استزدته لزادني.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ أبا ذرّ رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ أيّ العمل أفضل؟ قال: [إيمان بالله ورسوله]. قيل: ثم ماذا؟ قال: [جهاد في سبيل الله]. قيل: ثم ما ذا؟ قال: [حج مبرور].[39]

- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. قال: يارسول الله. أيّ الإسلام أفضل؟ قال: [من سلم المسلمون من لسانه ويده].[40]

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أيّ الإسلام خير؟ قال: [تطعم الطعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف].[41]

هذه إجابات شتّى. فحديث رسول الله قد يكون متّجها إلى رعاية أحوال المخاطبين. فيبرز من العبادات والآداب ما يراه أليق بحياتهم وما يراهم أمسّ إليه حاجة. ويسكت عن غيره. لا تهوينا من شأنه. فقد يسكت عن أركان عظيمة القدر في الدّين تكفّلت ببيانها آيات القرآن أو سنن أخرى. والذي يستفاد من هذه الإجابات أنّه لا يجوز أخذ حديث ما على أنّه الإيمان كله. كما أنّه لا يجوز الغفلة عن الملابسات التي سيق فيها الحديث فإنها تلقي ضوءا كاشفا على المراد منه. وكما راعت السنن أحوال المخاطبين. فقد تراعي الأحوال العامّة للجماعة.

- فعند كلب الكفار وضراوتهم على بلادنا يكون الجهاد أفضل من الحج.

- وعند اشتداد الأزمات وكثرة البائسين. تكون الصّدقة أفضل من الصلاة.

- وعندما يظهر قصور أمّتنا في ميدان الاحتراف والتّصنيع. يكون الاشتغال بالكيمياء والحديد أحبّ إلى الله من حراثة الأرض ورعاية الغنم .

إنّ فهم القرآن لا يتمّ إلا بمعرفة السّنة. وفهم السنّة لا يصحّ إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سيق من أجلها التّوجيه النّبوي. وإذا لم تكن لدينا إحاطة شاملة بالأزمنة والأمكنة والوقائع التي أرسلت فيها هذه الأحاديث. فقد تكون في الإحاطة بجملة السنن عوض يسدّ هذا النّقص. فإنك أمام كثرة المرويات وتعدّد معانيها. لا ترى بدّا من تنسيقها وترتيبها ووضع كلّ حديث بإزاء ما يوافقه من أحوال. ولقد بلغني أنّ هناك مؤلّفات في - أسباب الحديث - طبعت في الشّام على غرار -أسباب النزول- التي امتلأت بها كتب التفسير. ونحن نأسف لبعد هذه المؤلّفات عن متناولنا. فإنّ إشاعتها ضرورة لخدمة السنّة وصدّ الهجامين عليها. وهذا الذي ذكرناه في فهم السنّة وصلتها بالكتاب. لم نأت بجديد فيه. إنّما هو علم الأئمّة الأوّلين. وإدراكهم الصحيح لحقائق هذا الدّين)).[42]

الضابط الخامس: فهم الحديث في ضوء معاني القرآن

يؤكّد الإمام على ضرورة فهم الكتاب أوّلا والاستفادة منه. واستنباط أحكامه ومعرفة معانيه ودلالاته. ثم تأتي السنّة تالية له ومكمّلة. فلا يجوز لرجل قصير الباع في معاني القرآني ودلالاته

الاشتغال بالسنّة والغفلة عن القرآن، فإنّ ذلك يجرّ إلى أخطاء كثيرة، يقول: ((لا خلاف بين المسلمين في أنّ القرآن الكريم أساس الإسلام، ولباب دعوته، ومناط تشريعه، وأنّه الينبوع الأوّل لشتىّ تعاليمه في أحوال المعاش والمعاد جميعا، وأنّه برهان النّبوة، ودليل صدقها، ومعجزتها الكبرى، وأنّه مجلّي الوحي الأعلى، وملتقى الحقائق السماوية التي تنزلَت من عند الله خالصة من كلّ شائبة، مبرّأة من كل لبس، إنّه -بهذا القرآن- أصبح محمد ﷺ مبلّغا عن الله، مبيّنا عنه مراده، وقد انتقل هو به انتقالا نفسيا عاليا وصعد به في مرقى الكمال البشري إلى أوج بعيد، فكانت كلّ آية تهبط عليه نورا يتألّق به باطنه، وكشفا تشرئب به بصيرته.

ومن آثار علمه بالقرآن وتأثّره به، نطق بالسنن الرّاشدة والأحاديث الهادية فكانت هي الأخرى حكما ينفع بها الناس، وهدى يشدّهم إلى الصراط المستقيم، وقد امتّن الله عليه بهذا الوحي المبارك فقال: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما**﴾.(٤٣)
ومع احترامنا للحشد الكبير من السنن المروية عن رسول الله، وحفاوتنا بالدّراسات الحسنة التي تناولتها في القديم والحديث، فنحن نلفت النّظر أنّ السنة منزلة ثانوية بعد القرآن نفسه، وأنّ العالم الأصيل بالإسلام إنما تقوم ثروته العلمية أوّلا بمدى فقهه في الكتاب العزيز، وبصره بمعانيه ومغازيه، ولمحه لدلالته القريبة والبعيدة، وأنّ الصّورة المتقنة للإسلام إنما تعرف أبعادها وملامحها البارزة من القرآن أوّلا، ثم يجيء دور السنّة في الإيضاح والتفصيل بعد أن تمهّدت الحدود وعرفت الضّوابط، ولذلك نحن نرفض أن يشتغل بالسنّة رجل فقير في القرآن، ونرفض أن يستخرج أحكامها رجل قصير الباع في فقه الكتاب واستظهار أحكامه، فإنّ ذلك قلب للأوضاع، ومزلقة للخطأ في تصوّر حقائق الدين، وفي ترتيب صغراها وكبراها)).(٤٤)

لا تعارض بين القرآن والسنة:

بيّن الإمام التكامل بين نصوص الوحي قرآنا وسنّة، وأنّ ما يبدو من تعارض ناشئ من سوء الفهم، فقال: ((لايتعارض حديث مع كتاب الله أبدا، وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم، لا من طبيعة الواقع، وذلك مثل حديث: [**لن يدخل أحد الجنَة بعمله**].(٤٥) وقوله تعالى:

﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾.(٤٦) الفهم الصحيح للموضوع كلّه، أنه لا بد من عمل ينال به المرء رضا ربه ويستحقّ رحمته، فالجنّة ليست للكسالى والأراذل، بيد أنّ العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله وإنكار الذّات، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرّب به: لأن عيوبه لا تخفى عليه، أو لأنه دون حقّه، أو لأيّ سبب آخر، فمن تقدَم بعمل وهو شامخ الأنف، ليس في حسابه إلا أنه قدّم العمل المطلوب للجنة، وعلى الله أن يسلّم له المفاتيح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله هذا المغرور لا يقبل منه شيء، ولا مكان له في الجنة، أما من جاء خاشعا خفيض الجناح، شاعرا بالانكسار لأنه لم يقدّم ما لله أهل له، فإنه يدخل الجنّة بعمله، والدّلائل على هذا المعنى كثيرة، وما يعقلها إلا العالمون)).(٤٧)

لا تردّ السنّة اكتفاء بالقرآن:

حذّر الإمام من ردّ السنة النبوية بدعوى أنّ ما في القرآن كاف في العمل والتشريع، بل يجب الأخذ بهما معا، وبين أنّ فهم الإسلام والعمل به لا يتمّ إلا بالجمع بين القرآن والسنّة التي جاءت بيانا وتفسيرا

له. وأنّ الاكتفاء بالقرآن وحده بدعة خطيرة. وليس لأحد حقّ تمحيص السنن ودراسة أسانيدها إلا من أهله. فالسنّة جزء من الوحي ما تواتر منها وما لم يتواتر. يقول: ((إذا صحّ أن رسول الله ﷺ أمر بشيء أو نهى عن شيء، فإنّ طاعته واجبة. وهي من طاعة الله. وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**.[٣٨] **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾**.[٣٩] والمسلمون متّفقون على اتباع السنّة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم.[٤٠] لكن السّنن الواردة تتفاوت ثبوتا ودلالة تفاوتا لا محلّ هنا لذكره. وقد وضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيّدة. يرجع إليها في مظانها من شاء. والناقد البصير أن يتكلّم في حديث ما من ناحية متنه وسنده. وأن يردّه لأسباب علمية يبديها. والمجال الفني لهذا الموضوع رحب ممهّد. خاضها العلماء الأقدمون وتركوا فيه آثارا ضخمة. لمن المؤسف أنّ بعض القاصرين - ممن لا سهم له في معرفة الإسلام- أخذ يهجم على السنّة بحمق. ويردّها جملة وتفصيلا. وقد يسرع إلى تكذيب حديث يقال له. لا لشيء إلا لأنه لم يرقه. أو لم يفقهه. وتكذيب السنّة على طول الخطّ احتجاجا بأنّ القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر. فإنّ الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضّحها. وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تجحد؟ بل وكيف تجحد وحدها ويعترف بالقرآن؟ وكيف نصلّي ونصوم ونحجّ ونزكّي ونقيم الحدود. وهذه كلّها ما أدركت تفاصيلها إلا من السنّة؟ وإنّ إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام وإنكار المروي من سنن الآحاد -لمحض الهوى- عصيان مخوّف العاقبة. والواجب أن ندرس السنّة دراسة حسنة. وأن ننتفع في ديننا بما ضمّت من حكم وآداب وعظات)).[٤١]

وظيفة السنّة مع القرآن:

بين الإمام أنّ السنة لا تعارض القرآن. وإنما تأتي إما مقرّرة لأحكامه. أو مبيّنة وشارحة لمجمله. أو مخصّصة لعمومه. أو مقيّدة لمطلقه. وغير ذلك من طرق البيان.[٤٢] وأنه لا يوجد حديث واحد يعارض القرآن أو قواعده العامة. يقول: ((لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة في موضوع ما. ألاحظ هذه الحقيقة وأجد طائفة كبيرة من الأحاديث تطابق في معانيها وأهدافها ما تضمّن القرآن الكريم من معان وأهداف. وأنّ هذه الأحاديث قد تقرّر المعنى نفسه. الذي احتوته الآية. أو تقرّر معنى آخر يدور في فلكه وينتظم معه في اتجاه واحد. وإن بدا للعين المجرّدة أنّ الصلة بينهما بعيدة. فمن القبيل الأول – مثلا- يقول الرسول ﷺ: [اللهم لا مانع لما أعطيت. ولا معطي لما منعت].[٤٣] فإنّ هذا المعنى لا يخرج عن قول الله عز وجل: **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾**.[٤٤] ومن القبيل الثاني- مثلا- أنّ الرسول ﷺ [نهى أن يشرب في آنية الذهب والفضة وأن يؤكل فيها. ونهى عن لبس الحرير وأن يجلس عليه].[٤٥] فإنّ هذا الحكم الذي جاءت به السنة مشتقّ من تحريم القرآن للترف واعتباره المترفين أعداء كل إصلاح. وخصوم كل نبوّة. وعوامل للهدم في كل أمّة: **﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾**.[٤٦] والنّهي عن اتخاذ القبور مساجد- وقد جاءت به السنة[٤٧] - هو في الحقيقة حماية حاسمة للتوحيد الذي ضلّ عنه النصارى بما اتخذوا من معابد

على قدسيتهم حتى احتجّ مشركو مكة بذلك وهم يعارضون الرسول ﷺ: **﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾**.[٥٨] والسنة التي تكون بهذه المثابة في تقرير غايات القرآن المرسومة أو المفهومة، أو التي تفصّل مجمله وتوضّح مشكله، تأخذ قسطا كبيرا من عناية المسلمين، ومنزلتها من أدلة الأحكام الشرعية معروفة. وهناك سنن أخرى تخصّص أحكاما عامّة في القرآن، ففي قوله تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾**.[٥٩] بيّنت السنة أنّ القاتل لا حظ له في الميراث.[٦٠] وفي قوله تعالى: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم..﴾**.[٦١] بيّنت السنّة أنّ هناك مباحين في كلّ من هذه المحرمات: **[أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال]**[٦٢]. وفي قوله تعالى: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾**.[٦٣] بيّنت السنّة أن ليس كلّ سارق يقطع، إذ لا قطع فيما دون النصاب المقرر، ولا قطع على جائع ينشد طعامه، ولا على مغصوب يسترد ما أخذ منه. فإذا ثبت القطع، ففي اليمين، وعند الرّسغ، كما بيّنت السنّة.[٦٤]

وقد جاءت السنّة بأحكام يسّرت بعض العزائم التي أمر الكتاب العزيز بها. فالقرآن مثلا يأمر بغسل القدمين، ويعدّ ذلك ركنا في الوضوء، وتنظيف الرّجلين أمر لا بد منه في صحة الصلاة. وقد بين رسول الله ﷺ أن الرّجل إذا أدخل قدميه طاهرتين في خفّيه أو جوربيه،[٦٥] فليس بضروري أن يعيد غسلهما كلّما أراد الوضوء، وبحسبه أن يمسح على ظاهرهما – فوق الحذاء أو الجوارب– إشارة إلى الرّكن الذي لحقته الرخصة. وهذا الذي صنعه الرسول ﷺ وأمر به ليس هوى جنح إليه: **﴿ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى﴾**.[٦٦] إنما هو إرشاد الله له. وهو عمل يتّسق مع قاعدة الإسلام الأولى من السماحة والتيسير، وليس فيه أيّ تناقض مع تعاليم القرآن. ونستطيع أن نقول: إنه ليست هناك سنّة تعارض حكما قرآنيا ما، بل إنّه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن، أو قواعده العامة)).[٦٧]

وزاد الإمام هذا الأمر وضوحا، وقرّر تلك المعاني بأسلوب آخر، مؤكّدا على ضرورة الجمع بين القرآن والسنة، وأنها تأتي مبيّنة لأحكامه، إما عن طريق تخصيص عمومه، أو تقييد مطلقه، أو تأتي منشئة لأحكام مستقلّة.[٦٨] يقول: ((قال الفقهاء: والسنّة المشهورة تخصّص عموم القرآن، فالأولاد مثلا يرثون آباهم بنصّ الآية: **﴿يوصيكم الله في أولدكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾**.[٦٩] وقد جاءت السنة بأنّ القاتل لا يرث أباه الذي قتله.[٧٠] كما جاءت السنة بأنّ الكافر لا يرث أباه المؤمن.[٧١] وقد تقيّد السنة نصّا جاء في القرآن الكريم مطلقا، فالآية تجعل الأمّ من الرّضاع محرّمة كالأمّ نفسها، وكذلك الأخوات، قال تعالى: **﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾**.[٧٢] وجاء في السنة أنّ ذلك ليس على إطلاقه، فلا تحرّم رضعة ولا رضعتان.[٧٣] ويرى عدد من الأئمة أنّ أقلّ من خمس رضعات لا يفيد التّحريم، وبقي أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق.[٧٤] والذي أميل إليه أنّ الأمومة لا تتكون من رضاع كثير، فإذا ورد في السنّة أنّ الحدّ الأدنى لذلك خمس رضعات،[٧٥] أو عشر كما يرى البعض، فهو قيد جدير بالرعاية، وقال تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**.[٧٦] ولكن السنّة بينت أنه لا يقتص للفرع من الأصل.[٧٧] فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل، والسبب أنّ هذا القتل شذوذ عن سنن الآباء الذين قد يفتدون أبناءهم بحياتهم، ويحيون كادحين ليوفّروا لهم السعادة،

لابدّ أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجرام، وأنه وقع تحت ضغط جنوني طارئ، ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أنّ الأب رجل متوحّش مجرّد من مشاعر الحنوّ، فكّر ودبّر لغرض خسيس، ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقا إمضاء للسنة.[11] وهذا التخصيص أو التقييد هو تفسير ممن تلقىّ الوحي للمراد الإلهي، ومن أحقّ من بني القرآن بتفسيره، ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم، بل هو بيان وتوضيح، وتستقلّ السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع في القرآن، وأيّ ضير في هذا، قالوا: مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل،[12] ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال[13]...إلخ، والتحقيق أنّ تشريعات السنة كلّها داخلة في نطاق القرآن الكريم، ودلالاته القريبة والبعيدة، وعندي أنّ المسح على الخفين ليس من إنشاء السنّة بل هو معنى القراءة الثابتة: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾[14] بكسر اللام عطفا على ما قبلها، والتعبير مجازي كما يقول علماء البلاغة، أطلق الحال وأراد المحلّ، أما تحريم الذهب والفضة فسدّا لأبواب الترف، وأظنّ ما ورد من تحريم استعمال الجرس[15] فلحماية شعيرة الأذان، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار، أو في الساعات المنبهة، أو في الهاتف، أو في أعناق الدّواب مثلا)).[16]

أسباب تقديم القرآن على السنّة:

أوضح الإمام أنّ تقديم القرآن على السنّة ثابت بإجماع، وأنّ ذلك دعت إليه جملة من الأسباب الموضوعية والمعقولة، تأبى أن تقبل سنّة بمعزل عن فهم كتاب الله أوّلا، من ذلك أنّ السنة تستمدّ شرعيتها وقوّتها من القرآن، والقرآن كلّه قطعي الثّبوت بخلاف السنّة منها الظنّي وهو الغالب ومنها القطعي، والقرآن حفظ بكامله في السّطور والصّدور بخلاف السنّة تأخّر تدوينها ودخل فيها ما ليس منها، يقول: ((وقد أجمع المسلمون على أنّ الكتاب هو الأصل الأوّل في التشريع،[17] وأنّ السنّة تجيء من بعده في المرتبة للأسباب الآتية:

- ذلك أن هذه السّنن من أقوال وأفعال وأحكام وتقريرات إنما تنبنيّ على الدّعائم الممهّدة من كلام الله جلّ شأنه، وتمتدّ في اتجاهها وترتكز عليها، فهي أشبه بالتّوابع الفلكية مع أمّهاتها من الكواكب الكبرى.

- أنّ السّنة اعتبرت أدلة شرعية بشهادة القرآن لها، فهي تستمدّ قوتها كمصدر للأحكام من أمر القرآن بذلك في مثل قوله عزّ وجل: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﷺ**﴾،[18] ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾.[19] وبهذا احتجّ ابن مسعود عندما جادلته امرأة في حديثه عن لعن النساء المتبرّجات بتزوير الخلقة، زاعمة أنّ ذلك ليس في القرآن، فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود أنه قال: [لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن المغيرات خلق الله، فقالت له امرأة في ذلك- أي اعترضته- فقال: ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله، وهو في كتاب الله؟ قال الله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[20]..].[21]

- ثم إنّ القرآن يقيني الثّبوت، فهو متواتر جملة وتفصيلا، أما السنّة فإن منها المتواتر، وأكثرها أخبار آحاد، وروايات الآحاد تفيد الظنّ العلمي لا القطع الجازم، والأحكام الشّرعية المهمّة تعتمد على اليقينيات لا الظنّيات.

- ومن المسلّم أنّ القرآن الكريم وصل إلينا كاملا، لم ينقص منه حرف واحد، تظاهرت الكتابة والحفظ من أوّل يوم على صيانته وضبطه، مما لم يؤثر البتة عن كتاب في الأوّلين

والآخرين. أما السنن فقد تأخّر تدوينها. والتحق بها ما ليس منها. فاجتهد الأئمّة في غربلتها. ونقد طرقها ومتونها. واختلفت أنظارهم في ذلك بين التّصحيح والتّضعيف والقبول والردّ. ولا شك أنهم وضعوا قواعد للنّقد العلمي تستحقّ كلّ احترام. وجرّدوا تراث النّبوة مما قد يعلق به من أوهام. بيد أنّ جملة السنن التي وصلت إلينا بعد ذلك الجهد لا يمكن القطع بأنّه كلّ ما قاله رسول الله. وأنّ الرّواة أحصوا في سجلاتهم كلام النبّي ﷺ كلّه. لم يسقط منه شيء . وذلك على عكس القرآن الكريم. فإنّ ثبوته كلّه يجعل هيمنته على مصادر التشريع لا تقبل جدلا.

ومعاذ الله أن نغمط السنّة حقّها. فهي ضميمة إلى القرآن لا بدّ منها. ونحن نعلم أنّ معالجة التطبيق العملي للمبادئ والأسس العامة تتطلب فيضا من التفصيلات والتفريعات المنوّعة. وقد قامت السنّة بهذه الوظيفة بالنسبة إلى القرآن. وعندما نلقي نظرة عجلى على مجتمعنا مثلا . نرى هذه التعليمات الفرعية تملأ كلّ أفق. فاللوائح الدّاخلية والتّشريعات التجارية والمدنية والجنائية والاقتصادية تقوم بعملها الخطير في تنظيم الحياة العلمية. وهو عمل لا يمكن تجاهله. لكن لا يمكن أيضا الذّهاب به فوق قدره بالنسبة إلى الدّستور المشرف على كل شيء. والمهيمن على تقعيد القواعد وإنجاز الفروع. بل الذي تبطل القوانين إذا جافت نصه أو روحه. وكذلك القرآن بالنسبة إلى السنن المروية كلها. إنها تسير في هداه. وتنطلق إلى مداه. وما يسوغ لفقيه مسلم أن يفهم غير هذا ولا لمجتمع مسلم أن يحيا على غيرها. وقد رأيت نفرا من المتديّنين يخوض في السنن وبضاعته في القرآن قليلة. وبصره إلى الآيات كليل. فأنكرت ذلك وأيقنت أنّ معالم الإسلام لن تكون صريحة في ذهنه)).[89]

أخطاء فهم السنن مقطوعة عن القرآن:

يؤكّد الإمام ضرورة الاهتمام بالقرآن وفهم معانيه. ثم تنزيل السنة وفق تلك المعاني. فإنّ القرآن هو المرجع الأعلى في فهم قوانين الكون وسنن الحياة. وهو مصدر الحقائق الكبرى. وما السنّة إلا فهم للقرآن. فلا يجوز الإعراض عنه والاستمساك بالسّنن: لأنّ ذلك قلب للموازين. قد يوقع صاحبه فى ترك آيات من القرآن زعما أن الحديث جاء بخلافها. وكان الأولى ترك الحديث لأنه جاء مخالفا لما في القرآن. وقد وقع الكثير من الدّارسين للسنّة في أخطاء بسبب الاقتصار عليها دون الرّجوع إلى القرآن. يقول: ((ولست أقرّر جديدا في هذا الميدان. والذي أراني مضطرًا إلى التّنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه فإنّ ناسا أدمنوا النّظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجورا. فنمت أفكارهم معوجّة. وطالت حيث يجب أن تقصر. وقصرت حيث يجب أن تطول. وتحمّسوا حيث لا مكان للحماس. وبردوا حيث تجب الثّورة. نعم من هؤلاء من ظنّ الأفغانيين من أتباع أبي حنيفة لا يقلّون شرًا عن الشيوعيين أتباع كارل ماركس. لماذا؟ لأنهم وراء إمامهم لا يقرؤون فاتحة الكتاب.

والذّهول عن المعاني الأولية والثانوية التي نضح بها الوحي المبارك لا يتمّ معه فقه ولا يصح دين. ذكر أبو داود حديثا واهيا جاء فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تركبوا البحر إلا حاجّا أو معتمرا أو غازيا في سبيل الله تعالى ، فإنّ تحت البحر نارا وتحت النّار بحرا].[90] هذا الحديث الضعيف المردود خدع به الإمام الخطابي. وعلّل النّهي عن ركوب البحر بأنّ الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن هلاكه في غالب الأمر. والكلام كلّه باطل. فقد قال المحقّقون: لا

بأس بالتجارة في البحر. وما ذكره الله تعالى في القرآن هو الحقّ. قال تعالى: ﴿**وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾.[٦١] إنّ الغفلة عن القرآن الكريم والتصور في إدراك معانيه القريبة أو الدّقيقة عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة في كتب السنّة. فإنّ السنة تجيء بعد القرآن. وحسن فقهها يجيء من حسن الفقه في الكتاب نفسه. وقد ذكر ابن كثير أنّ الإمام الشافعي. قال:< كلّ ما حكم به الرسول ﷺ فهو مما فهمه من القرآن >. فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل؟

إنّ الوعي بمعاني القرآن وأهدافه تعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية. ويبين الأهمّ فالمهمّ من التعاليم الواردة ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصّحيحة. والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النّظر إلى الكون. خبير بازدهار الحضارات وانهيارها. نيّر الذّهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى. حاضر الحسّ بمشاهد القيامة وما وراءها. مشدود إلى أركان الأخلاق والسّلوك ومعاني الإيمان. وذلك كلّه وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض. وعندما يضمّ إلى ذلك السّنن الصحاح مفسّرة للقرآن ومتمّة لهداياته فقد أوتي رشده)).[٦٢]

ويؤكّد الإمام على هذا الضّابط في التّعامل مع السنة وفق روح القرآن وهداياته. وترك كلّ ما جاء مخالفا له من الحديث وإن كان صحيحا. كالأحاديث التي نهت عن النّذر. وعن أكل كلّ ذي ناب من السباع. يقول: ((تلاوة قليلة للقرآن الكريم. وقراءة كثيرة للأحاديث. لا تعطيان صورة دقيقة للإسلام. بل يمكن القول بأنّ ذلك يشبه سوء التغذية. إذ لا بدّ من توازن العناصر التي تكوّن الجسم والعقل على سواء. ولنضرب لذلك أمثلة:

- يرى الصنعاني[٦٣] أن النّذر حرام معتمدا على حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر. وقال: [إنه لا يأتي بخير. وإنما يستخرج به من مال البخيل].[٦٤] والنّذر الذي لا يأتي بخير هو النّذر المشروط الذي يشبه المعاوضات التّجارية. يقول الإنسان: لله عليّ كذا إن شفيت من مرضي أو إن نجح ابني. ...إلخ. أما النّذور الأخرى في طاعة الله. فلا حرج فيها ما دامت من النّاحية الفقهية صحيحة. والسؤال: كيف يحكم بأصل الحرمة في النّذور كلّها مع قوله تعالى في وصف الأبرار: ﴿**يوفون بالنّذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا**﴾.[٦٥] وقوله في موضع آخر: ﴿**ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق**﴾.[٦٦]

- وقد رأيت الجهل بالقرآن الكريم يبلغ حدّا منكورا عند شرح حديث مسلم: [كلّ ذي ناب من السباع فأكله حرام][٦٧]. فإنّ شارح الحديث[٦٨] زعم أنّ الحديث قيل في المدينة المنوّرة. وأنه نسخ ما نزل بمكّة من قوله تعالى: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إلي محرّما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به**﴾.[٦٩] والزّعم بأن حديث آحاد ينسخ آية من القرآن الكريم زعم في غاية الغثائية. ثم إنّ الآية التي قيل بنسخها تكرّر معناها في القرآن أربع مرّات. مرّتين في سورة الأنعام والنّحل المكيتين. ومرّتين في سورتي البقرة والمائدة المدنيتين. بل ما جاء في سورة المائدة هو من آخر ما نزل من الوحي. فكيف يفكّر عاقل في وقوع النسخ؟ ثم إنّ عددا من الصحابة بينهم ابن عباس وعددا من التابعين فيهم الشعبي وسعيد بن جبير. رفضوا حديث مسلم.[٧٠] فكيف نترك آية لحديث موضع لغط؟)).[٧١]

بطلان الحديث إذا خالف ظاهر القرآن:

يقرّر الإمام بهذه القاعدة بطلان أيّ حديث يخالف القرآن نصّا ومعنى. والحكم ببطلانه آت من كون السنّة لا تأتي إلا بما يوافق القرآن. مؤكّدة ومقرّرة، أو مفسّرة وشارحة، أو مخصّصة ومقيّدة، أو مستقلة بأحكام وفق أغراضه ومعانيه. فكيف يقبل حديث يعارض القرآن؟ فإذا تحقّقت المعارضة وجب ترك الحديث: لأنّ المظنون لا يقوى على معارضة المقطوع، ولأنّ الحديث قد يكون معلول المتن ولو كان صحيح السّند. يقول: ((إن أيّ حديث يخالف روح القرآن أو نصّه فهو باطل من تلقاء نفسه. والدّليل الظنّي متى خالف القطعي سقط اعتباره على الإطلاق. كما أورد البخاري وغيره من الحفّاظ حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدّواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، وفي آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**].[102] ومع أنّ الحديث في صحيح مسلم قد أغفله الحفّاظ لكونه مخالفا لما جاء في القرآن، من أنّ الله خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيام لا سبعة. فقالوا: هو من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار. ولا يمكن أن يكون من قول الرسول: لأن قوله ﷺ لا يتعارض مع القرآن بل يكون شارحا له، ومفسرا لآياته ... فالسنّة هي الرّكن الثاني في الدّين، ولكن السنّة بحاجة إلى من يعرف أسانيدها ومتونها معرفة حسنة، ومن يعرف- قبل ذلك وبعده- الكتاب العزيز، ويقف على معانيه ومراميه)).[103]

ويؤكّد الإمام على وجوب عرض معاني الحديث على نصوص القرآن، حتى لا تتعارض فيما بينها، فلا يقبل حديث إذا عارض معناه ظاهر القرآن، ولو كان صحيح السّند، وهو دأب الفقهاء كأبي حنيفة ومالك، إذ كانوا يتوقّفون في أحاديث صحيحة لكونها مخالفة لظاهر القرآن. يقول: ((إنّنا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج من دلالات القرآن القريبة أو البعيدة. وحديث الآحاد يفقد صحّته بالشّذوذ والعلّة القادحة، وإن صحّ سنده. فأبو حنيفة[104] يرى أنّ من قاتلنا من أفراد الكفار قاتلناه، فإن قتل فإلى حيث ألقت، وأما من له ذمّة وعهد فقاتله يقتص منه. ومن ثم رفض حديث: [لا يقتل مسلم بكافر][105] مع صحّة سنده: لأن المتن معلول بمخالفته للنّص القرآني: ﴿**النفس بالنفس**﴾.[106] وقول الله بعد ذلك: ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾.[107] وقوله: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾.[108] وعند التأمّل نجد الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة، وإلى مواثيق حقوق الإنسان، وإلى احترام النفس البشرية، دون نظر إلى البياض والسّواد، أو الحرّية والعبودية، أو الكفر والإيمان، لو قتل فيلسوف كانس طريق، قتل به، فالنّفس بالنّفس، وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدّين ومشاركينا في المجتمع أنّ لهم مالنا وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيلهم؟.. القصاص شريعة الله، وهو ظاهر القرآن الكريم.[109] والأحناف يقدّمون ظاهر القرآن على حديث الآحاد، والمالكيون يقدّمون عمل أهل المدينة على حديث الآحاد باعتبار أن عمل أهل المدينة أدلّ على السنة النبوية من حديث راو واحد.[110] وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل، إذا كان الأب القاتل قد أقدم على الجريمة عامدا مصرّا مغتالا، وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحّة سنده.[111] وأهل الحديث يجعلون دية

المرأة على النّصف من دية الرجل.[١١٢] وهذه سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحقّقون. فالدّية في القرآن واحدة للرّجل والمرأة. والزّعم بأن دم المرأة أرخص. وحقّها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب. إنّ الرّجل يقتل في المرأة كما تقتل المرأة في الرجل. فدمهما سواء باتفاق. فما الذي يجعل دية دون دية؟... وقد فكّرت في السبب الذي جعل الأحناف والمالكية يكرّهون تحية المسجد والإمام يخطب.[١١٣] مع ورود حديث يطلب هذه التّحية.[١١٤] وبعد تأمّل يسير رأيت أنّ خطبة الجمعة شرعت بعد الهجرة. وظلّ المسلمون يصلّون الجمع وراء النبي ﷺ عشر سنين. أي أنّ هناك نحو خمسمائة خطبة ألقيت خلال هذه المدة. فأين هي؟ إنّ المحدثين لم يهملوا تسجيل كلمة عابرة. أو فتوى خاصة. أو إجابة لسائل. فكيف تركوا هذه الخطب؟ كلّ ما دوّنوه بضع خطب لا تبلغ أصابع اليد. الواقع أنّ النبي ﷺ كان يخطب الناس بالقرآن الكريم. وعندما يكون على منبره أو في محرابه يتلو كتابه. فعلى الجميع الصّمت والتدبّر. يستحيل أن ينشغل عنه أحد بقراءة أو بصلاة. كذلك جاء التّوجيه الإلهي: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾.[١١٥] إنّ رب العالمين يستمع إلى نبيّه وهو يقرأ كما جاء في الحديث الشريف: [ما أذن الله لنبّي يقرأ القرآن يتغنى به].[١١٦] فكيف يتشاغل عنه الناس؟ كانت السنّة إذن هي الاستماع للخطب. وما جاء في حديث الأمر بتحية المسجد كان حالة خاصة بالرّجل المذكور. وظلّت السنة العملية تمنع الكلام والصلاة في أثناء الخطبة. بل إنّ مالكا أبطل هذه الصلاة.[١١٧] ما أظن صاحب الموطأ يتّهم بمعاداة سنة ثابتة)).[١١٨]

ويضيف قائلا: ((وقد ضقت ذرعا بأناس قليلي الفقه بالقرآن كثيري النّظر في الأحاديث. يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى. فيزيدون الأمّة بلبلة وحيرة. ولا زلت أحذّر الأمّة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل. وحديثهم عن الإسلام جريء. واعتمادهم كلّه على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشؤون الحياة)).[١١٩]

ويؤكّد على هذه المعاني بقوله: ((كلّ ما نحرص نحن عليه شدّ الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه. فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها. مستغرقون في شؤون أخرى تعجزهم عن تشرّب الوحي. والفقهاء المحقّقون إذا أرادوا بحث قضية ما جمعوا كلّ ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة. وحاكموا المظنون إلى المقطوع. وأحسنوا التّنسيق بين شتّى الأدلة. أما اختطاف الحكم من حديث عابر. والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء. وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثوقون للأمة. الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة. وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدّم موادّ البناء للمهندس الذي يبني الدّار. ويرفع الشّرفات. والواقع أنّ كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر. فلا فقه بلا سنة. ولا سنة بلا فقه. وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون. والمحنة تقع في اغترار أحدهما بما عنده. وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة)).[١٢٠]

الضابط السادس: فهم الحديث في ضوء فقه الأئمة

حاجة السنة إلى الفقه:

بيّن الإمام أنّ الفقه والسنّة يتكاملان. وأنهما بحاجة إلى بعضهما. وأنّ السنن تتعارض في الظاهر. ولا سبيل لفهم ذلك التعارض وإزالته إلا

من أولي الفقه. يقول: ((الاتزان العقلي نصاب لا بدّ من توفّره في أيّ جوّ ديني. إنّه أساس التكاليف الدّينية. ثم هو بعد أساس التّحدث إلى الناس باسم الإسلام. وسعة العلم ضرورة لفهم وجهات نظر المجتهدين. وترجيح مذهب فقهي على آخر. أمّا مرتبة الاجتهاد المطلق فاعتقادي أنها درجة أسنى تقوم - بدءا - على الفضل الإلهي. كما جاء في الحديث: [إلا فهما يؤتاه رجل في كتاب الله].[١٣١] وكما جاء في الآيات: **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾**.[١٣٢] وانظر إلى عبد الله بن عباس كيف فهم من سورة النّصر ما غاب عن أفهام الصحابة في مجلس عمر. فقال موضّحا المعنى المراد: أراه حضور أجل النّبي ﷺ.[١٣٣] إنّ هذا الذّكاء اللمّاح إلى بعض الحكمة التي ينعم الله بها على من يريد له الخير: **﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾**.[١٣٤] إنّ جوّ الفقه والفتوى وتربية الأمة وتبصير أولي الأمر شأو يستبعد منه قصّار الباع والهمّة والفكر. ويستحيل أن يحيا فيه المتطاولون الذين يحسنون الهدم ولا يطيقون البناء. نقول ذلك كلّه لنلفت الأنظار إلى خاصّة بارزة في ثقافتنا القديمة، هي أنّ عمل الفقهاء أكمل جهد المحدّثين وضبطه وأحسن تنسيقه ويسّر الإفادة منه. ومن ثم قاد الفقه حضارتنا التشريعية في أغلب العصور. والتأمّل في الآثار الواردة يجعل وظيفة الفقهاء لا محيص عنها. ويجعل الاستقاء المباشر من السنة صعبا على العامّة. ومن في منزلتهم من ذوي النّظر القريب. ذلك أنّ هناك قضايا وردت فيها آثار متقابلة. وقضايا أخرى لا ينفرد بالبتّ فيها حديث فذّ. روى مالك قال: [بلغني أنّ عبد **الرحمن بن عوف** رضي الله عنه **تكارى أرضا، فلم تزل في يديه حتى مات، قال ابنه: فما كنت أراها إلا لنا من طول ما مكثت في يديه، حتى ذكرها لنا عند موته وأمرنا بقضاء شيء كان عليه من كرائها، ذهب أو ورق**].[١٣٥] وهذا الحديث يجيز استئجار الأرض لزراعتها. وروى الشيخان عن ابن عباس قال: [خرج رسول الله إلى أرض وهي تهتز زرعا. فقال: لمن هذه؟ قالوا: اكتراها فلان. قال: لو منحها إياه كان خيرا أن يأخذ عليها أجرا معلوما. وفي رواية عن رافع بن خديج: سألني رسول الله ﷺ: كيف تصنعون بمحاقلكم ؟ قلت: نؤاجرها على الربع. وعلى الأوسق من التمر والشعير. قال: لا تفعلوا. ازرعوها - يعني بأنفسكم- أو أزرعوها - أي امنحوها غيركم- أو أمسكوها. قال رافع: قلت: سمعا وطاعة].[١٣٦] وللفقهاء كلام في هذه المرويات. فمنهم من رفض الإيجار حيث تجب المواساة والتراحم. وأباحه في الأحوال العادية. ومنهم من رفضه إذا كان هناك غبن أو غرر. ومنهم من أبطل المزارعة. ومنهم من أباحها.[١٣٧] وكلّ منهم غلّب بعض النصوص على بعض آخر لملحظ ما. وليس هنا مكان التفصيل)).[١٣٨]

أخطاء فصل السنة عن الفقه:

ذكر الإمام ما آل إليه حال المسلمين عندما يبعد العلماء الكبار من الميدان. ويحاصرون من قبل السّاسة. فيخلو المكان للعامّة والجهلة فيفسّرون الأحاديث بغير علم. مما يؤدّي إلى مصائب جمّة. ومن ذلك ما عرف عند المحدّثين من أنّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء. لا لشيء إلا لفقرهم. وكأنّ الغنى جريمة يعاقب عليها الأغنياء يوم القيامة. يقول: ((إنّ أصحاب العقول الكبيرة والهمم البعيدة حاربهم الاستبداد السياسي. ورفض مجامعهم. فضاقت الدّائرة التي يعملون فيها. وتضاءل الأثر الذي يرتقب منهم.

والمرء لا يسعه إلا الحزن لمصاير قادة الفكر الدّيني الذين قتلوا أو أهينوا وحيل بينهم وبين نفع الجماهير. ومع غياب هؤلاء انفسح المجال لعارضي الأحاديث الذين يخبطون في السنّة الشريفة خبط عشواء. ولفقهاء الفروع الذين خدعوا العوام بسلعهم. وأوهموهم أنهم يشرحون لباب الدّين وشعب الإيمان الكبرى. وهم في الحقيقة يذكرون تفاصيل ثانوية يكثر فيها الأخذ والردّ. ولا تمسّ جوهر العقيدة أو الشريعة. إنّ الأحاديث الشّريفة - بعد تمحيص سندها- تحتاج إلى الفقيه الذي يضعها في الإطار العام للإسلام الحنيف. ولكن جاء ناس يروون للعامّة مثلا. حديث الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: [يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام].[129] أو حديث أبي داود عن أبي سعيد قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين- وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري - وقارئ يقرأ علينا. إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا. فسكت القارئ. فقال: [الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. وجلس وسطنا ليعدل نفسه بنا. ثم قال بيده هكذا -يعني أمرهم أن يصنعوا دائرة- فتحلقوا وبرزت وجوههم. فما رأيت رسول الله عرف منهم أحدا غيري. ثم قال: ابشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بخمسمائة سنة].[130] بديه أنّ هذه الأحاديث للمواساة والبشرى. ولا تعني أبدا أنّ الغنى عيب. وأن الثّراء يؤخّر المنزلة. بيد أنّ جهلة المحدّثين أرادوا إقامة مجتمع من الصعاليك ورووا آثارا تجعل عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنّة حبوا. وهذه بلاهة منكورة. إنّ المال قوام الحياة وأساس الدّولة. وكافل المؤسّسات المدنية والعسكرية. وعبد الرحمن بن عوف هو بنصّ القرآن من السابقين الأوّلين الذين حازوا الرّضوان الأعلى. وبشّروا قبل غيرهم بالجنّة. وتحبيب الفقر للنّاس كما يفعل أولئك المحدّثون القاصرون جريمة. فإذا انضمّ إلى هذا أنّ العرب يحتقرون الحرف - تمشّيا مع جاهليتهم الأولى- ويفضّلون عليها الفقر عرفت: أيّ مجتمع تصنعه هذه التعاليم؟. والغريب أنّ هذه الأحاديث كانت تروى وفي الأمّة الإسلامية طبقات انتفخت من السّحت. وبدلا من تقييم عوجها بالآيات والسنن الصحاح. انتشرت هذه المرويات. وانتشر مثلها في ميادين كثيرة. مما بلبل المجتمع وكاد يفقده وعيه)).[131]

ويؤكّد على أنّ السنّة بدون فقه تؤدّي إلى عدم التّمييز بين المتغير والثابت. والعادي والعبادي. والدّين والتقاليد والأعراف. ولا يخفى ما في ذلك من تغيير لمعالم الدّين الصحيح. وحمل الناس على مالم يكلّفون به. يقول: ((إنّ السنّة بحر متلاطم الأمواج. وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك ملابسات كلّ قول. والمراد الحقّ منه. فإنّ النبّي ﷺ ظلّ يكلّم الناس ثلاثا وعشرين سنة. اختلفت فيها الأحوال. وتباين الأفراد وتشعّبت القضايا. ووضع كلّ حديث بإزاء المقصود منه. أو معرفة النطاق الذي يصح فيه. هو عمل الفقهاء. هو عمل لا مناص منه. وإلا حرّفنا الكلم عن مواضعه. والمحزن أنّ ناسا لا فقه لهم تكلّفوا مالا يحسنون من قراءة للسنّة. وافتاء بها. فأساؤوا ولم يحسنوا. وهم الآن حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية.

- بعضهم فهم أنّ الإسلام يشنّ حرب العدوان ويأخذ الناس على غرّة دون دعوة إلى دين.

- وبعضهم فهم أنّ مستقبل الأمة إلى ضياع: لأنه لا يجيء يوم إلا والذي يليه شرّ منه.

- وبعضهم فهم أنّ الغنى مضادّ للتقوى. وأنّ الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة.

- وبعضهم فهم أنّ القدر تحويل قسري للمرء من طريق النّجاة إلى طريق الهلاك أو العكس؛ لأنّ العلم الإلهي سبق بذلك.

وسبب هذا الخلط اشتغال الدّهماء بالسنّة، دون أن يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية، ودون أن يكون لديهم ذوق أدبي بأساليب الأدب العربي، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية، وأحوال المجتمعات البشرية، ودون دراسة عميقة للسيرة الشّريفة، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشؤون وشجون، ودون تفريق بين ما هو عادي وما هو عبادي.

فالسنّة عندهم الأكل على الأرض لا على مائدة، وتنظيف الفم بالسّواك لا بالفرشاة، والاستنجاء بالحجارة لا بالأوراق، وإرخاء ذيل العمامة على الأقفية، وإيثار الأبيض من الملابس الفضفاضة، وضرب النّقاب على الوجه حتما، وذاك بالنسبة للنساء، والواقع أنّ العادات البدوية غدت سنّة نبوية، ولما كان العرب يؤخّرون المرأة في المكانة فقد منعت باسم الإسلام من التردّد على المساجد، ومن تلقّي العلم في المدارس، ومن جهاد الكلمة، أي جهاد الأمر والنهي، ومن أيّ مشاركة في جهاد عسكري...إلخ. والعارفون بالسنّة المطهّرة يدركون بطلان هذه التقاليد، ومنافاتها للكتاب والسنّة، ومع ذلك فإنّ الدّهماء المتحدّثين في الإسلام يتاوِمون الحقّ بعصبية، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة، والذي أراه أن السنّة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء، ومن يعنيهم الأمر من الولاة والقضاة والدّعاة والمتخصّصين في أيّ مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل، أما رجل الشّارع أو الشّخص العادي، فإنّ أربعين حديثا تكفيه وتغنيه، وعلى أيّ حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يحدّث الناس أو يتصدّر للفتوى في شؤونهم)).[١٣٢]

كما أشار الإمام إلى التعصّب للسنّة عند بعض المتأخّرين الذين ردّوا بها أقوال الفقهاء، فنشأ عن ذلك سوء فهم النصوص النبوية وحملها على غير محملها، ويرجع ذلك إلى غياب الفقه السليم، يقول: ((وقد ظهر قوم من المشتغلين بالحديث يطعنون في الأئمّة كلا أو بعضا، وهذا حمق، ولو أنهم عابوا مقلّدي المذاهب في جمودهم وضيق باعهم لكان ذلك أرشد، وقد تتبّعت نفرا من هؤلاء فوجدتهم بلاء على السنّة، قال أحدهم: إن أبا حنيفة ترك السنة الصريحة وخالف رسول الله ﷺ، قلت: فيم؟ قال: بقتل المؤمن بالكافر، قلت: نعم، يقول أبو حنيفة إنّ المسلم إذا قتل رجلا من أهل الذمّة قتل به، ودليله على ذلك من القرآن: ﴿النفس بالنفس﴾.[١٣٣] فلا فارق بين حرّ وعبد، ولا مؤمن وكافر، وقد جعل الحديث في المحاربين ومن لا عهد لهم.[١٣٤] قال: هذا خطأ، قلت: خطأ أو صواب، كيف استسغت أن تتهم إماما بمخاصمة رسول الله، وهو يستند إلى أساس دينه، إلى القرآن نفسه؟، قال:ترك الحديث الثابت، قلت: ترك الحديث الثابت إلى حديث آخر ثابت مقبول، وتركه إلى القرآن مرفوض، قال:كيف؟ قلت: صحّ في السنة أنّ الفخذ عورة، وصحّ كذلك أنها ليست بعورة،[١٣٥] فهل الآخذ بأحد الأثرين تارك للسنة؛ لأنه أهمل الآخر ؟ إنّ ترجيح دليل ليس هجرا للسنة ولا تركا للدّين، ولكن التطاول والجهل هما مظهر الخروج على السنة)).[١٣٦]

دور الفقهاء في تصحيح متن الحديث:

بيّن الإمام أنّ صحة الحديث سندا لا تكفي لفقه الحديث، بل لا بدّ من معرفة سلامته متنا، وخلوّه من الشّذوذ، وهذا العمل يتولاّه رجال الفقه،

فهم أدرى به من غيرهم. وقد وقع كبار المحدّثين في أخطاء عندما أخذوا بظواهر أحاديث صحيحة السّند. لكنّها شاذّة ومعلولة متنا: لكونها تعارض صريح القرآن وظاهره. ومن ثم فإنّ فهم الحديث ليس قاصرا على رجال الحديث بل هو عام لكلّ من رزق فقها في الدّين وعلما بالكتاب والسنّة. يقول: ((الواقع أنّ عمل الفقهاء متمّم لعمل المحدّثين. وحارس للسنّة من أيّ خلل قد يتسلّل إليها عن ذهول أو تساهل. إنّ في السنة متواتر له حكم القرآن الكريم. وفيها الصحيح المشهور الذي يفسّر العموم والمطلق في كتاب الله. وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية بعد ما اتفقت على أنّ السنة المصدر الثاني للأحكام. وقد يصحّ الحديث سندا ويضعف متنا بعد اكتشاف الفقهاء لعلّة كامنة فيه. واكتشاف الشّذوذ والعلّة في متن الحديث ليس حكرا على علماء السنة. فإنّ علماء التفسير والأصول والكلام والفقه مسؤولون عن ذلك. بل ربما ربت مسؤوليتهم على غيرهم. ألم تر إلى أنّ ابن حجر شارح صحيح البخاري في كتابه الجليل فتح الباري الذي قال فيه العلماء بحقّ لا هجرة بعد الفتح. إنّ الرّجل على صدارته في علوم السنة قوّى حديث الغرانيق.[٣٦] أعطاه إشارة خضراء. فمرّ الناس يفسد الدّين والدّنيا. والحديث المذكور من وضع الزنادقة يدرك ذلك العلماء الرّاسخون. وقد انخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فجعله في السيرة التي كتبها عن رسول الله ﷺ.[٣٨] (والشيخ هو من هو غيرة على عقيدة التوحيد ودفاعا عنها. ثم جاء الوغد الهندي -سلمان رشدي- فاعتمد على هذا الحديث المكذوب في تسمية روايته -آيات شيطانية- . أليس من حقّ علماء الكلام والفقه والتفسير أن يحاربوا هذا القذى؟ بل إنّ حرّاس السنّة الصحيحة رفضوا هذا الحديث المحقور. وفي هذه الأيام صدر تصحيح من الشيخ الألباني لحديث: [لحم البقر داء].[٣٩] وكلّ متدبّر للقرآن الكريم يدرك أنّ الحديث لا قيمة له مهما كان سنده. إنّ الله في موضعين من كتابه أباح لحم البقر. وامتّن به على الناس فكيف يكون داء؟ في سورة الأنعام يقول: ﴿**ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾. ثم يفصل ما أباح أكله فيقول: ﴿**ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين**﴾ ثم يقول: ﴿**ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين..**﴾.[٤٠] فأين موضع الدّاء في هذه اللحوم المباحة على سواء؟ وفي سورة الحجّ يقول: ﴿**والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون**﴾.[٤١] والبدن هي الابل والبقر والجاموس. فأين الدّاء فيها؟ عيب بعض الذين يشتغلون بالحديث قصورهم في تدبّر القرآن وفقه أحكامه. فلم الغرور مع هذا القصور؟ ولماذا يستنكرون على غيرهم من رجال الفكر الإسلامي الرّحب أن يكتشفوا علّة هنا أو شذوذا هناك؟ إنّ التعاون في ضبط التراث النّبوي مطلوب. ومتن الحديث قد يتناول عقائد وعبادات ومعاملات يشتغل بها علماء المعقول والمنقول جميعا. وقد يتناول الحديث شؤون الدّعوة والحرب والسلام. فلماذا يحرم علماء هذه الآفاق المهمّة من النّظر في المتون المروية؟ وما قيمة حديث صحيح السند عليل المتن؟ وفي عصرنا ظهر فتيان يتطاولون على أئمّة الفقه باسم الدّفاع عن الحديث النّبوي مع أنّ الفقهاء ما حادوا عن السنّة. ولا استهانوا بحديث صحّت نسبته وسلم متنه. وكلّ ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللا في بعض المرويات فردّوها-

وفق المنهج المدروس- وأرشدوا الأمّة إلى ما هو أصدق قيلا وأهدى سبيلا)).(٢)

ويؤكّد الإمام على ضبط الأحاديث والمرويات وفق تلك القاعدة. وهي ألاّ يقبل حديث إذا خالف ظاهر القرآن. يقول: ((ورأيت نفرا من هؤلاء يغشون المجامع مذكّرين بحديث أنّ أبا الرسول ﷺ في النار.(٣) وشعرت بالاشمئزاز من استطالتهم وسوء خلقهم. قالوا لي: كأنك تعترض ما نقول؟ قلت ساخرا: هناك حديث آخر يقول: ﴿**وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا**﴾.(٤) فاختاروا أحد الحديثين. قال أذكاهم بعد هنيهة: هذه آية لا حديث. قلت: نعم جعلتها حديثا لتهتمّوا بها. فأنتم قلّما تفقهون الكتاب. قال: كانت هناك رسالات قبل البعثة. والعرب من قوم إبراهيم وهو متعبّدون بدينه. قلت: العرب لا من قوم نوح ولا من قوم إبراهيم. وقد قال الله تعالى في الذين بعث فيهم سيد المرسلين: ﴿**وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير**﴾.(٥) وقال لنبيه الخاتم :﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**﴾.(٦) كلّ الرسالات السابقة محلّية مؤقتة. وإبراهيم وموسى وعيسى كانوا لأقوامهم خاصة. وللفقهاء كلام في أنّ أبوي الرسول في النار. يردّون به ما تروون ... لقد أحرجتم الضّمير الإسلامي حتى جعلتموه لا يستريح. يروى أنّ الله أحيى الأبوين الكريمين فآمنا بابنهما. وهي رواية ينقصها السند(٧). كما أنّ روايتكم ينقصها الفقه. ولا أدري ما تعشقكم لتعذيب أبوين كريمين لأشرف خلق ؟ ولم تنطلقون بهذه الطبيعة المسعورة تسوؤون الناس؟

إنّ المرويات تتعارض في ظاهر الأمر. وهنا يدخل علماء الفقه والأثر للتنسيق والترجيح. وقد يصحّ السّند ولا يصحّ المتن. وقد يصحّان جميعا ويقع الخلاف في المعنى المراد. وهذا باب واسع جدّا. ومنه نشأ ما يسمّى بمدرسة الأثر ومدرسة الرأي. والأوّلون أقرب إلى الفقه الظاهري. وإن خالفوه كثيرا والآخرون أوسع دائرة وأبصر بالحكمة والغاية. وكلاهما خير إن شاء الله. وعندما يخالف أثر صحيح ما هو أصحّ سمي شاذّا ورفض. وعندما يخالف الضّعيف الصّحيح سمي متروكا أو منكرا.(٨) وقد رأيت ناسا يبغون كثيرا من المسالك على هذه المتروكات والمناكر باسم السنّة. والسنّة مظلومة مع هؤلاء الجهّال)).(٩)

***

الحواشي

١ - أخرجه البخاري (٢١٥٣/٥) ومسلم (١٧٣٥/٤)

٢ - سورة الأحقاف:٢٥

٣ - أخرجه البخاري(١٧/١) ومسلم (٥٣/١)

٤ - انظر: فتح الباري (٧٦/١) و(٢٧٧/١٢). وشرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٦/١). ونيل الأوطار للشوكاني (٢٦٦/١)

٥ - ليس من الإسلام- مرجع سابق- ص ٢٦،٢٥

٦ - سورة آل عمران:٣١

٧ - أخرجه البخاري(٤٢٤/١) ومسلم(١٠/١)

٨ - انظر هذه الشروط الخمسة لصحة الحديث: (اتصال السند. عدالة الرواة. ضبط الرواة. عدم الشذوذ. عدم العلة القادحة) في كتاب التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح لزين الدين العراقي. ص:٣٣

٩ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ الغزالي. ص: ١٢، ١٣

١٠ - السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه- المرجع نفسه- ص: ٢٦، ٢٧

١١ - انظر: فتح الباري (١٠٨/٣)، و نيل الأوطار (١٦٥/٤)

١٢ - حديث: [لعن الله زوارات القبور]. أخرجه الحاكم (٥٣٠/١) والترمذي (٣٧١/٣) وابن ماجه (٥٠٢/١)

١٣ - انظر في ذلك ما ذكره ابن حجر في جواز تسليم الرجال على النساء وتسليم النساء على الرجال. فتح الباري (١١/ ٣٣). وكذا غزو النساء وقتالهن مع الرجال. وحمل النساء القرب إلى الناس في الغزو. ومداواة النساء الجرحى في الغزو. فتح الباري (٦/ ٧٩، ٨٠). وهذا لايتمّ إلا مع الرؤية. فدلّ ذلك على جواز رؤية النساء للرجال.

١٤ - أخرجه مسلم (١٠٤٠/٢) وابن حبان (٤٠٤/٩) والحاكم (١٩٣/٢)

١٥ - النساء: ٢٠

١٦ - أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٢/٢)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٩/٥)

١٧ - كحديث: [خير مساجد النساء قعر بيوتهن] أخرجه الحاكم (٣٢٧/١) وأحمد (٢٩٧/٦) والهيثمي (٣٣/٢)

١٨ - كحديث: [لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن تفلات]. أخرجه الترمذي (١/ ٣٣٠) وأبو داود (١٥٥/١) وابن خزيمة (٩٠/٣) وابن حبان (٥٨٩/٥) وحديث: [إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن] أخرجه البخاري (٢٩٥/١) ومسلم (٣٢٧/١)

١٩ - دستور الوحدة الثقافية- مرجع سابق- ص: ٢٤، ٢٥

٢٠ - قال ابن كثير: رحمه الله يجوز رواية ما عدا الموضوع- أي الضعيف- في باب الترغيب والترهيب والقصص والمواعظ ونحو ذلك. إلا في صفات الله عز وجل. وفي باب الحلال والحرام) انظر: الباعث الحصيح شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير للشيخ أحمد محمد شاكر. ص: ٨٥، ٨٦

٢١ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- مرجع سابق- ص: ٧٣، ٧٤

٢٢ - أخرجه مسلم كتاب الإيمان. باب من مات على الكفر لا تلحقه شفاعة. (٤٦٧/١)

٢٣ - سورة الإسراء: ١٥

٢٤ - سورة يس: ٦

٢٥ - سورة السجدة: ٣

٢٦ - حديث موضوع. انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني (١٣٦٦/١)

٢٧ - دستور الوحدة الثقافية- مرجع سابق- ص: ٢٥، ٢٦

٢٨ - أخرجه الهيثمي (٤٩/١) والبزار (٧/ ٣٢٠) والطبراني في الأوسط (٣٢٢/٦)

٢٩ - أخرجه الهيثمي (٤٧/١) وأبو يعلى (٤/ ٢٣٦)

٣٠ - أخرجه الحاكم (١/ ٦٧) والهيثمي (٣٧/١) وأبو يعلى (٤٩/٨)

٣١ - أخرجه البخاري (١/ ١٢) ومسلم (١/ ٤٥)

٣٢ - أخرجه البيهقي (٥/٢) والنسائي (٨/٥)

٣٣ - أخرجه الهيثمي (٢٨/١) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢٣٠) وعبد الرزاق في المصنف (١٧٣/٥)

٣٤ - ليس من الإسلام- مرجع سابق- ص: ٣٢، ٣٣، ٣٤

٣٥ - سورة النساء: ١٠٥

٣٦ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- مرجع سابق- ص: ١٣٦، ١٢٧

٣٧ - أخرجه الحاكم (١/ ٧٥٧) والترمذي (١٩٧/٥) والدارمي (٥٦٠/٢)

٣٨ - أخرجه أحمد (٤٣٩/١) والترمذي (٣٢٦/١) وأبو عوانة (٦٥/١)

٣٩ - أخرجه البخاري (١٨/١)

٤٠ - أخرجه البخاري (١٢/١) والدارمي (٣٨٧/٢) والبيهقي (٥٣١/٦)

٤١ - أخرجه البخاري (١٣/١) ومسلم (١/ ٦٥)

٤٢ - ليس من الإسلام- مرجع سابق- ص: ٢٩، ٣٠

٤٣ - سورة النساء: ١١٣

٤٤ - نظرات في القرآن للشيخ الغزالي. ص: ١٦٦، ١٦٧

٤٥ - أخرجه البخاري (٢١٤٧/٥) ومسلم (٤/ ٢١٧٠)

٤٦ - سورة النحل: ٣٢

٤٧ - مائة سؤال عن الإسلام- مرجع سابق- ص: ١٧٧

٤٨ - سورة النساء: ٨

٤٩ - سورة الأحزاب:٣٦

٥٠ - انظر مرتبة السنة بعد القرآن باتفاق الصحابة. في أصول الفقه الإسلامي لمصطفى شلبي. ص:١٦٠. وعلم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف. ص: ٣٩

٥١ - ليس من الإسلام- مرجع سابق- ص: ٣٥.٣٠. انظر الردّ على منكري السنة اكتفاء بالقرآن في كتاب أصول الفقه الإسلامي لمصطفى شلبي. ص:١٣٣

٥٢ - انظر أنواع بيان السنة للقرآن في كتاب علم أصول الفقه لخلاف. ص: ٣٩. وأصول الفقه الإسلامي لشلبي. ص: ١٢٦ فما بعدها.

٥٣ - أخرجه البخاري (١/٢٨٩) ومسلم (١/٣٤٣)

٥٤ - سورة فاطر:٢

٥٥ - أخرجه البيهقي (١/٢٨) والدارقطني (٤/٢٩٢)

٥٦ - سورة سبأ:٣٤

٥٧ - أخرجه مسلم (١/٣٧٥) وابن خزيمة(٢/٦) وابن حبان (٦/٩٤)

٥٨ - سورة ص:٧

٥٩ - سورة النساء:١١

٦٠ - أخرجه الدارمي (٢/٤٧٨) والبيهقي (٦/٢١٩) وأحمد (١/٤٩)

٦١ - سورة المائدة:٢

٦٢ - أخرجه البيهقي (١/٢٥٤) وأحمد(٢/٩٧)

٦٣ - سورة المائدة:٣٨

٦٤ - انظر الأحاديث الواردة في شروط قطع السارق في نيل الأوطار للشوكاني (٧/٢٩٦ فما بعدها)

٦٥ - أخرجه البخاري (٤/١٦٠٩) ومسلم (١/٢٢٩)

٦٦ - سورة النجم:٣.٢

٦٧ - ليس من الإسلام- مرجع سابق- ص: ٣٢.٣١.٣٠

٦٨ - انظر أنواع السنة باعتبار القرآن في أصول الفقه الإسلامي لمصطفى شلبي. ص: ١٢٦

٦٩ - سورة النساء:١١

٧٠ - أخرجه البيهقي(٦/٢١٩) وأحمد (١/٤٩)

٧١ - أخرجه الدارقطني(٣/٦٢) وأحمد(٥/٢٠١) وابن أبي شيبة (٦/٢٨٤) وعبد الرزاق (١٠/٢٤٨)

٧٢ - سورة النساء:٢٣

٧٣ - أخرجه مسلم (٢/١٠٧٤) وابن ماجه(١/٦٢٤) والدارقطني (٤/١٧٣)

٧٤ - انظر مذاهب الفقهاء في الرضاع المحرم في نيل الأطار (٧/١١٦)

٧٥ - أخرجه ابن حبان(١٠/٣٦) والحاكم(٣/١٧٧) والترمذي(٣/٤٥٥) وأبو داود(٢/٢٢٣)

٧٦ - سورة البقرة:١٧٩

٧٧- حديث : [لا تقام الحدود في المساجد ولا يقاد بالولد الوالد]. أخرجه الحاكم(٤/٤١٠) والترمذي(٤/١٨) و الدارقطني(٣/١٤١)

٧٨ - انظر مذاهب الفقهاء في القصاص من الفرع للأصل في بداية المجتهد لابن رشد(٢/٥٩٣) والإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب(٢/٨١٤)

٧٩ - حديث المسح على الخفين أخرجه البخاري (١/٨٤) ومسلم (١/٢٢٩)

٨٠ - أخرجه ابن حبان(١٢/٢٥٠) وأحمد (١/٩٦)

٨١ - سورة المائدة:٦

٨٢ - أخرجه مسلم (٣/١٦٧٢) وابن خزيمة(٤/١٤٦) والحاكم (١/٦١٣)

٨٣ - مائة سؤال عن الإسلام- مرجع سابق- ص: ١٨٠.١٧٩

٨٤ - انظر: تقديم القرآن على السنة في كتاب أصول الفقه الإسلامي لمصطفى شلبي. ص: ١٦٠

٨٥ - سورة المائدة:٩٢

٨٦ - سورة النساء:٨

٨٧ - سورة الحشر:٧

٨٨ - أخرجه البخاري(٥/٢٢١٦)

٨٩ نظرات في القرآن- مرجع سابق- ص: ١٦٩.١٦٨.١٦٧

٩٠ ضعيف الجامع الصغير للألباني (٥/٦٢٤٣)

٩١ سورة فاطر:١٢

٩٢ - هموم داعية للشيخ الغزالي. ص: ٢٦.٢٥.٢٤

٩٣ - انظر: سبل السلام للصنعاني(٤/١٤٠٧)

٩٤ - أخرجه مسلم (٣/١٣٦١) والنسائي (٧/١٥) وأحمد (٣/٢٣٥)

٩٥ - سورة الإنسان:٧

٩٦ - سورة الحج ٢٩

٩٧ - أخرجه مسلم (٣/ ١٥٣٤) والترمذي (٤/٧١) والنسائي (٧/٢٠٠) ومالك (٢/ ٤٩٦)

٩٨ - انظر: سبل السلام للصنعاني(٤/١٣٨٥) ونيل الأوطار للشوكاني (٨/٢٨٥). والقول بتحريم أكل كل ذي ناب من السباع، هو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وداود والجمهور . وذهب مالك إلى أنه مكروه ولا يحرم . انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٨٣)

٩٩ - سورة الانعام:١٤٥

١٠٠ - انظر: نيل الأوطار (٨/٢٨٥) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/١٠٣)

١٠١ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- مرجع سابق- ص: ١٢٠، ١٢١

١٠٢ - ذكره البخاري في التاريخ الكبير . والحديث أخرجه مسلم (٤/٢١٤٩)و البيهقي (٩/٣) وأحمد (٢/٣٢٧) وأبو يعلى (١٠/٥١٢)

١٠٣ - هذا ديننا – مرجع سابق- ص: ٢١٢، ٢١٣

١٠٤ - انظر: أحكام القرآن للجصاص (١/١٧٥)

١٠٥ - أخرجه البخاري (٢/١١١٠) وابن خزيمة (٤/٢٦) والحاكم (٢/ ١٥٣) والترمذي (٤/ ٢٤)

١٠٦ - سورة المائدة:٤٥

١٠٧ - سورة المائدة:٣٨

١٠٨ - سورة المائدة:٥٠

١٠٩ - انظر الخلاف في المسألة في بداية المجتهد(٢/٥٩١) ونيل الأوطار (٧/١٥٠)

١١٠ - انظر: شروط الحنفية والمالكية في العمل بحديث الأحاد في كتاب أصول الفقه لأبي زهرة. ص: ١٠١، و أصول الفقه الإسلامي لمصطفى شلبي. ص: ١٥٤ فما بعدها

١١١ - الحديث : [لا تقام الحدود في المساجد ولا يقاد بالولد الوالد] سبق تخريجه. وانظر الخلاف في المسألة في بداية المجتهد (٢/٥٩٣)

١١٢ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/٤١١) وعبد الرزاق في المصنف(٩/٣٩٥)

١١٣ - انظر: المنتقى شرح الموطأ للباجي (١/١٩٠)

١١٤ - حديث: [دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: أصليت؟ قال :لا. قال: فصل ركعتين] - أخرجه البخاري (١/٣١٥) ومسلم (٢/٥٩٦)

١١٥ - سورة الأعراف:٢٠٤

١١٦ - أخرجه البخاري (٥/٢٤٠٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٠)

١١٧ - لم أقف على هذا القول، غير أن ابن وهب قال :من لغا كانت صلاته ظهرا.- يعني في الفضل ولم تكن له جمعة وحرم فضلها. وقال ابن عبد البر: الذي عليه أصحابنا أن الصمت فرض واجب سنة النبي ﷺ، وهي سنة مجتمع عليها معمول بها . وقد أجمعوا أن من تكلم لغا ولا إعادة عليه للجمعة . ولا يقال له . صلاها ظهرا. انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٥/ ٤٣/ ٤٨)

١١٨ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- مرجع سابق- ص: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١

١١٩ - السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه- مرجع سابق- ص: ٢٣

١٢٠ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث- مرجع سابق ص: ٢٥

١٢١ - أخرجه البخاري (٣/١١١٠) والترمذي(٤/٢٤) والدارمي(٢/٢٤٩)

١٢٢ - سورة الأنبياء:٧٨، ٧٩

١٢٣ - انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/٢٢٢)

١٢٤ - سورة البقرة:٢٦٩

١٢٥ - أخرجه البيهقي(٦/١١٩) ومالك (٢/٧١٢)

١٢٦ - أخرجه البخاري (٢/٩٢٨) ومسلم (٣/١١٨٣)

١٢٧ - انظر آراء الفقهاء في المزارعة في نيل الأوطار (٦/١٠ فما بعدها) ،ومجموع الفتاوى لابن تيمية(٢٩/٨٨)

١٢٨ - هموم داعية مرجع سابق- ص: ٢٠، ٢١

١٢٩ - أخرجه ابن حبان (٢/٤٥١) والترمذي (٤/٥٧٨) وأحمد (٢/ ٤٥١)

١٢٠ - أخرجه أبو داود (٢/٢٢٢)

١٢١ - هموم داعية- مرجع سابق- ص: ٤٤،٤٥

١٢٢ - مائة سؤال عن الإسلام- مرجع سابق- ص:١٧٧،١٧٨

١٢٣ - سورة المائدة:٤٥

١٢٤ -الحديث: [لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده]. أخرجه الترمذي (٤/٢٤) وأبو داود(٢/٨٠) والنسائي(٨/١٩)

١٢٥ - انظر: فتح ا الباري (١/٤٨٠) نيل الأوطار (٢/٤٨) بداية المجتهد(١/٢١٥)

١٢٦ - دستور الوحدة الثقافية- مرجع سابق- ص: ٤٠

١٢٧ - انظر:فتح الباري (٨/٤٣٩)

١٢٨ - انظر: مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب. ص: ٢٠

١٢٩ - انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/ ١٠٧)

١٤٠ - سورة الأنعام:١٤٢،١٤٣،١٤٤

١٤١ - سورة الحج:٣٦

١٤٢ - السنة النبوية - مرجع سابق- ص: ١٤،١٥

١٤٣ - أخرجه مسلم (١/٤٦٧)

١٤٤ - سورة الإسراء:١٥

١٤٥ - سورة سبأ:٤٤

١٤٦ - سورة القصص:٤٦

١٤٧ - حديث (إحياء أبوي النبي ﷺ حتى آمنا به) قال ابن كثير: إنه حديث منكر جدا. انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي. ص: ٤٥

١٤٨ - قال ابن كثير:(الضعيف: ما لم تجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن). (الشاذ: هو أن يري الثقة حديثا يخالف ما روى الناس).... (وان خالف راويه الثقات فمنكر مردود. وكذا إن لم يكن عدلا ضابطا وإن لم يخالف. فمنكر مردود) انظر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للشيخ أحمد محمد شاكر. ص:٥٥

١٤٩ - هموم داعية- مرجع سابق- ص: ٢٣،٢٤

تقييم مستوى الحوار الحضاري للجامعات العربية

أ.د. محمد صالح العجيلي

الجامعة المستنصرية - العراق

مقدمة :

يعبر الحوار بين الحضارات عن حاجة إنسانية تقتضيها المتغيرات والتحولات المتسارعة التي يعرفها العالم في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ البشرية. مما يجعل الحوار بين الحضارات اختياراً استراتيجياً تفرضه التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي. على اعتبار أنّ الحوار هو الوسيلة الفضلى للتعايش بين الأمم والشعوب. ولإزالة أسباب التوتر والصراع الذي يؤدي إلى نشوء الأزمات الدولية.

لقد بات من الضروري اليوم، ونحن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين سبق وأن أعلنت الأمم المتحدة أول أعوامه عاماً لثقافة الحوار بين الحضارات، العمل على اتخاذ مبادرات فاعلة باتجاه تفعيل دور الجامعات في مجال الحوار الحضاري. إذ إن دور الجامعات أصبح في عصرنا الحاضر محورياً. فالتقدم والرخاء مرهونان بما تنجزه الجامعات من بحث وتطوير وما تخرجه من كفاءات قادرة على حمل المسؤولية. فالجامعات مصانع الرجال وصقل العقول. وتنمية المواهب واحتضان الإبداع وتعليم لغة الحوار والمحاورة مع الآخر. وهذه الأمور تعتبر من أصعب أنواع الاستثمار. ذلك أنه نوع من الاستثمار طويل الأجل في رأس المال البشري الذي أصبح يمثل الأولوية القصوى لمن ينشد الترقي في درب التقدم والرخاء.

وتعتمد لغة الحوار الجامعي ونجاحها على منجزات الجامعة وفلسفتها ورؤاها المستقبلية والنتائج التي بموجبها يتم تصنيفها ومقارنتها بغيرها. ولذلك فإن الأمم والدول المختلفة التي تنشد اللحاق بركب الحضارة المنطلق بتسارع مذهل وعت تلك الحقيقة. ثم وضعت نصب عينيها أهمية الاستثمار في مجال العلوم والتقانة لكي تشد من أزر جامعاتها من حيث متانتها العلمية. ورصانة

معرفتها، ورجاحة مفكريها، وفصاحة الخطاب والمنعة في الحوار، والقوة في الحجة والمنطق من أجل نصرة الحقيقة.

ولا شك أن الجامعات هي البيئة التي يجب أن تتوفر فيها الجاذبية التي تمكن من استقطاب العلماء المتميزين والمفكرين المبدعين، والنواة التي تدور حولها وتصبوا إليها أنظار الناس من أجل التنمية والرخاء، كما أنها تمثل الوريث الشرعي لفكر وإنجازات حضارة البلد أو الأمة التي شقت الطريق لحضارة العصر الحاضر.

كما أن الجامعة تمثل جسر تواصل مع منجزات الحضارة المعاصرة وذلك لضمان أن تبدأ من حيث انتهى الآخرون بدلاً من اللهاث خلف الركب دون اللحاق بهم. وعليه ضرورة أن تبنى جامعاتنا أسسها الفكرية على الانفتاح والشراكة والتعاون مع الآخرين في كل المجالات بحثاً وتطويراً وحواراً واختراعاً وبناء جسور من المودة والمحبة تردم الفروقات وتعزو نقاط الاتفاق والتلاقي.

إذ إن الانفتاح على العالم وأخذ الجيد منه وتصدير المبادئ السامية إليه أمراً دعا إليه ديننا الحنيف، فرسالة الإسلام العالمية الهادفة إلى تنوير البشرية بأحسن الوسائل وأفضل السبل تفرض بصورة أكيدة العمل على ترسيخ آليات الحوار الحضاري بين العرب وغيرهم وبين الإسلام وغيره من الأديان، وبين الحضارة العربية وغيرها من الحضارات.

إنّ التقدم يصنع من خلال العقل المعزز بالعلم والتقنية والمحرر من عقد الروتين والبيروقراطية والمحفز من خلال اختيار النخب القائمة على تعليمه وتدريبه، بالإضافة إلى فتح الأفق واسعاً أمامه وذلك من خلال الانفتاح على الآخر يحاوره ويستشيره ويستفيد من تجاربه وإنجازاته، ذلك أن تجارب الأمم تراكمية والإرث البشري النيّر حق للجميع دون منّة أو احتكار أو تعالٍ.

وبما أنّ الفجوة العلمية والتقنية بين الدول المتقدمة والنامية كبيرة، وحيث إن الدول العربية والإسلامية في مقدمة من يعاني من تلك الفجوة التي تزداد اتساعاً كل يوم، فنحن بحاجة إلى مد جسور تواصل مع مراكز العلوم والتقنية لتقليص هذه الفجوة العلمية والتقنية، لكن حاجتنا هذه لا تعني بأي شكل من الأشكال التنازل عن شيء مقابل الحصول على شيء، إنما على أساس كامل من الكرامة، لأنه ما من أمة فاقدة لكرامتها، يعني فاقدة كل شيء، وما من أمة تمتلك كرامتها، أنها تمتلك كل شيء.

أولاً:- في مفهوم الحوار الحضاري:

تأخذ إشكالية التواصل الحضاري بين الشرق والغرب أهمية بالغة باعتبار الموقع الاستراتيجي والتاريخي لهذين الفضاءين الثقافيين والجغرافيين، الذي يجعل من التقارب والتفاعل بينهما مطباً ضرورياً لبناء مستقبل أفضل للإنسانية جمعاء وهي في بداية القرن الحادي والعشرين.

ونحن إذ يهمنا من الإشكالية بين هذين الموقعين شرق - غرب أو شمال - جنوب هو المنطقة العربية التي تمثل قلب الشرق- الطرف الثاني - وهنا بإمكاننا أن نسأل عن الأنا والآخر، وعن الشرق والغرب بشكل منفصل، إذ إن الذات والآخر لم يعودا كيانين منفصلين، فالغرب لم يعد كياناً خارجاً عنا بل أصبح داخلاً فينا، يسكننا ويلبسنا، والحدود مسكونة ومهووسة بالآخر الذي لا يقاوم في جاذبيته الرمزية وقوته المادية، كما أن مفهومي الشرق والغرب يفتقدان لأي معنى ثابت، فهما لا يرتبطان بالجغرافية، بل تحولا إلى

مفهومين إيديولوجيين زئبقيين. فالغرب يصعب تحديده. فذاته تقدم نفسها بلا حدود ولا يمكن فهمه وإدراكه إلا من خلال الآخر. المرآة التي تعكس قوته. وحدته ونرجسيته المتعالية. والشرق أيضاً غير موجود إلا بوجود الآخر (الغرب) وبتعبير أدق فإنّ الشرق أنشئ وخلق لمخيلة الغرب وفقاً لتصوره ورؤيته.[1]

إنّ هذا الإدراك النظري للتوحد الوجودي بين التيارين لا ينفي من وجود عقد تاريخية وفكرية ودينية تلكأ سبل الالتحام بينهما. وإن كانت العقد الغربية هي أشد وطأة من الجانب الشرقي. ذلك أن الحوار هو لغة الإسلام. وقد قضى الله - سبحانه - أن تكون علاقته - جل شأنه - بمخلوقاته قائمة على أساس الحوار الاقناعي. وليس على أساس القهر والإكراه. وقد نقل القرآن الكريم صوراً كثيرة من هذه الحوارات. إذ استعمل الله - سبحانه - لغة الحوار مع الملائكة والرسل والناس أجمعين. وحوارات الرسل مع أقوامهم. ومن حوارات الناس بعضهم مع بعض.

وقد أراد الله - تعالى - أن يعلمنا عملياً. ومن خلال القدوة. أن النهج السليم في تأسيس وإدارة العلاقات بين البشر. أن تكون قائمة على أساس مبدأ الحوار وحسن استخدامه مع الناس كافة: أفراداً أو جماعات. أو حضارات. مسلمين وغير مسلمين ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة:٨٣). ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ (طـه: ٤٤). ﴿ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ (الأحزاب:٧٠). ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦)...الخ من الآيات القرآنية التي تؤكد ذلك.

وقد أيقنت الدول والشعوب لاسيما - بعد الحرب العالمية الثانية - بأن الحروب لم ولن تحل المشاكل والخلافات. بل بالعكس يزيدها تعقيداً وينمي العداوة والشقاق. والكره والبغضاء ويدفع إلى الصدام من جديد. وإنه لا بديل عن الحوار في حل المشاكل المحلية والإقليمية والدولية.

هذه هي رؤية العرب والمسلمين في نظرتهم للآخرين. وبغض النظر إذا كان هناك تطرف فردي أو على مستوى جماعات صغيرة هنا وهناك. لكن الجانب الغربي على العكس من ذلك تماماً. إذ أخذ يروج لصدام الحضارات كما جاء به صموئيل هانتغتون ونهاية التاريخ لفوكوياما ودراسة الكاتب الأمريكي باري بوزان الذي كتبها قبل هانتغتون بعامين ونصف العام وهي: أنماط جديدة للأمن العالمي في القرن الحادي والعشرين. ورسم فيها الخطوط العامة لعلاقات الأمن العالمي التي بدأت تظهر بعد حرب الخليج الثانية. ولخص محمد عابد الجابري[2] مقالة الكاتب الأمريكي في أربع نقاط هي: عودة ظاهرة الدول العظمى من جديد بالمفهوم نفسه الذي كان سائداً خلال الحرب العالمية الثانية. وبروز الرأسمالية الليبرالية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية. وقيام جماعة أمنية تضم المراكز الرئيسة في أمريكا وأوروبا واليابان واستراليا. وتعزيز قوة وفعالية المجتمع الدولي. مما أدّى إلى انخفاض أهمية دول الأطراف وزيادة دور مجلس الأمن الدولي للفصل في النزاعات. وحدوث أزمات اقتصادية عالمية. وهذه الأفكار هي التي بلورها هانتغتون في صدام الحضارات.

هذا وتبع هذه الطروحات أو نبعت منها مقاييس ونظم عالمية جديدة كالعولمة (نظام وايديولوجيا). والمفاهيم التي تضمنتها (اقتصادية وثقافية وسياسية). وتحكم الغرب في الاقتصاد العالمي. وتأثير ذلك في سيادة الدول الأخرى. إذ إن العولمة

تستهدف الدولة والأمة والوطن. ولهذا فإن أنصار العولمة يركزون على أهمية زوال الدولة وسلطتها على شعبها. مما يؤثر في العلاقة بينها وبين مواطنيها. وفي قدرة كل منها على حماية الوطن والدفاع عنه. ويحل بدلاً من ذلك المواطن العالمي والمؤسسات العالمية التي تتحكم به خدمة لمصالح الدول العظمى.

إنَّ هذه الرؤى المتسيدة على أفكار الغربيين تدحض مفهوم الحوار والأسس التي يستند عليها والمبنية على التفاهم بين طرفين مختلفين عن طريق المناقشة والتفاوض. على أساس من الاعتراف المتبادل والانفتاح على الآخر بسماحة وبإرادة مشتركة لتبادل الآراء والإذعان للحقيقة.

إن كثيراً من النزاعات ودورات العنف إنما تنشأ من عدم معرفة الناس بعضهم ببعض. وتبادلهم الحذر وسوء الفهم والمخاوف مع أنهم لو جلسوا إلى بعضهم وتحاوروا. لأبعدوا شبح العنف والتدمير. فالعنف يبدأ عندما يتعطل الحوار. الذين يضيقون بالحوار هم أصحاب التعصب المقيت وناقصو الفكر والأخلاق. عندما يعجزون عن مواصلة الحوار بالحجة والبرهان يلجؤون إلى ما لجأ إليه فرعون ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [٣]. وعندما أذعن سحرة فرعون وآمنوا برب هارون وموسى كان جواب فرعون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ﴾ [٤] إن النموذج الفرعوني قائم وماثل في هذا العالم دون شك. فهناك من يظن أنه فوق الناس جميعاً بما أوتي من قوة السلاح أو المال. فهو يستهين بالآخرين ويستخف بهم. ويرى أنهم أقل من أن يكونوا طرفاً في الحوار.

ولعلَّ أكبر تشويه يتعرض له العالم الإسلامي اليوم هو تصويره على أنه محضن للإرهاب والعنف وإنّ القيم السائدة فيه مناقضة لقيم الحرية والمساواة. وإن أي اتجاه للعالم الإسلامي نحو الحوار والتفاهم إنما هو سبب تعرضه للأفكار العصرية وقيم الغرب. هذه دعاوى سياسية لا أساس لها من الحقيقة يرددها الإعلام الدولي الذي يتخذه البعض مطية للمبارزة الكلامية والمراء وذريعة للعنف والتباغض.

وبهذا الصدد فإنه للإنصاف التاريخي. ليست أمريكا وحدها تقود مخطط التآمر. إنها حقاً اليد المنفذة. ولكن هناك الشركاء الذين يكنّون للعرب المشاعر نفسها. فعلى أثر حرب الخليج. التي مثلت فيها فرنسا دوراً مزدوجاً. أطلق وزير الخارجية رولان دوما تصريحه المشهور بأنه "لا وجود لأمة عربية واحدة. وأن ديغول أخطأ عندما تعامل مع العرب كأمة" ولأن فرنسا (كانت دولة استعمارية). ولأن اشتراكيي فرنسا وقادتها سبق لهم التحالف مع إسرائيل في العدوان الثلاثي على مصر. فليس غريباً إذا أن يحاول رولان دوماً القضاء على فكرة العروبة وانتهاز "الظروف الراهنة" لمحاولة الإجهاز على مفهوم الوحدة العربية.

ويتساءل العقل العربي ما هي الشروط التي على أساسها يمكن أن يقبل الغرب مشاركة العرب لهم في تحمل مسؤولية مسيرة الحضارة الإنسانية. يخطئ من يظن أن مشكلتنا كأمة عربية مع الغرب الأمريكي والأوروبي هي مشكلة سوء تفاهم. وأن الغرب لم يفهمنا جيداً. ولم يتعرف على حقيقتنا القومية والحضارية وأهدافنا السياسية والاقتصادية. ومن هنا يبرز دور الجامعات العربية والإعلام العربي لأنهما لم يبذلا من الجهد الكافي للتوضيح ولم يستطيعا بالتالي كسب الغرب إلى جانب قضايانا العادلة. هناك شواهد تدل على

أنّ الحقيقية قد تكون خلاف ذلك على طول الخط . إن مشكلتنا كأمة عربية مع الغرب هي أنه يفهمنا جيداً. ويرى أن مصالحه الاقتصادية وأمنه الوطني وقيمه الحضارية والسياسية مهددة بالخطر فيما إذا حقق العرب أهدافهم وأصبحوا دولة قومية واحدة ذات وزن استراتيجي واقتصادي وسياسي وحضاري. تتعامل مع الغرب على أساس متكافئ.

يبدو أنّ قبول الغرب الأمريكي والأوروبي للعرب له شروط: أولها: أن يؤمنوا ويتصرفوا على أساس أنهم ليسوا أمة ولا كتلة ولا جماعة. بل أقواماً وأقليات متناحرة ومتناقضة. وثانيها: الإقرار للغرب بحق السيطرة على النفط العربي كمية وسعراً. وثالثها: الاعتراف بإسرائيل والتسليم لها بكل فلسطين. والتفوق الاستراتيجي على قوى العرب مجتمعين. ورابعها: التخلي عن الإسلام واعتباره دينا متخلفاً وهمجياً وداعياً للعنف والإرهاب.

إن أسباب عداء الغرب للعرب هي أسباب محسوبة جيداً وليست مجرد نزوة أو خضوع لدعاية معادية أو صهيونية. وليست ناشئة عن نقص في معلومات الغرب عن العرب. وبالتالي. فإنّ المشكلة ليست إعلامية. بل قومية استراتيجية وجيوسياسية.

ويبقى على المثقف العربي والأستاذ الجامعي على وجه الخصوص ألا يعير أهمية لما تتعرض له حضارته لأنّ مهمته ليست هجاء أو مدح ما يجري في العالم أي تقبيحه أو تجميله لأنهما فعلان عبثيان[٥]. بل المطلوب هو تحليل الواقع وفهمه عسى أن يغدو التدخل الواعي في صيرورته ومساراته ممكناً. وضرورة ألا تؤدي شدة التهجم والتنكيل بالعرب والمسلمين مدعاة لفقدان الحكمة والبصيرة والخروج من جادة المبدأ وذوبان القيم الأصيلة التي تربى عليها العربي. وعلى المحاور العربي أن يشعر يقيناً أنه يمتلك شيئاً لا ينازعه عليه أحد هي الأخلاق العربية السامية المستمدة من أخلاق القرآن الكريم ونبيه الأمين. فيما يستطيع أن يثق بنفسه وأن يرى ذاته بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه. وأنه لم يقل أهمية ووزناً وعلماً عن الآخر الذي يحاوره بغض النظر عن جنسه وعرقه ولونه.

ثانيا: - الأداء الأكاديمي للجامعات العربية ودوره في تفعيل لغة الحوار:

حينما نتحدث عن التعليم العالي في الوطن العربي. فإننا نتحدث عن مخرجات وواقع ما يزيد على (٣٦٠) جامعة حكومية وخاصة موزعة بنسب متفاوتة بين الأقطار العربية. وعدد أعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعات حوالي (١٣٨) ألفاً من حملة الدكتوراه والماجستير في رتب مدرس مساعد ومدرس إلى أستاذ مساعد وأستاذ. من واجباتهم التدريس والبحث العلمي وخدمة المجتمع من خلال (٣٠٠) وحدة للبحوث العلمية[٦].

ويعود تاريخ تأسيس هذه الجامعات إلى حوالي مائة عام مثل جامعة الزيتونة وجامعة القاهرة. وإلى الخمسينات من القرن الماضي لبقية الجامعات العربية الأخرى[٧]. عندما بدأت حركة النهوض القومي والتنمية الاقتصادية تجتاح المنطقة العربية. وكان التعليم والتعليم العالي من أهم الأدوات لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ومواجهة متطلباتها من الكوادر الفنية من مهندسين وأطباء واداريين ومعلمين. وهكذا بدأ تأسيس الجامعات الرسمية ثم الجامعات الخاصة لخدمة الأهداف الوطنية والقومية. إلا أن الجامعات العربية أصبحت عرضة للتقييم

تقييم مستوى الحوار الحضاري للجامعات العربية

والمراجعة أمام انفتاح العالم العربي على فضاءات التعليم العالي في العالم. وفي حالة مواجهة ومنافسة شديدة مع الجامعات الأجنبية في أسواق التعليم العالي التي أصبحت مفتوحة في ظل استحقاقات العولمة والتقدم التكنولوجي وثورة المعلومات والاتصالات.

وبصدد تقييم الجامعات العربية يرى العالم العربي أحمد زويل[8]، أن العلم والتكنولوجيا وإرادة المجتمع لإعلاء شأنيها، ثلاثة أضلاع من لوازم تكوين المثلث الضروري لتحقيق نهضة علمية عربية ومن ثم اقتصادية وسياسية وثقافية. وهي رؤية جديرة بالعرض والمناقشة، خاصة أن هناك فريقين متعارضين حيال هذه الرؤية، أحدهما: بالغ التشاؤم ينكر كل إمكانية لبناء هذه الأضلاع من واقع عالمنا العربي المتردي، والآخر لديه بعض التفاؤل يرى أن بناء هذه الأضلاع ليس من المستحيلات لو بدأنا بإرادة وجدية ووفق شروط مناسبة. أما الفريق الثالث الذي يرى أنّ أحوالنا العربية في هذا الشأن هي على ما يرام، وليس في الإمكان أحسن مما كان، فهو فريق لم يعد جديراً بأي مناقشة.

وقبل الخوض في الحكم على جامعاتنا، لا بدّ من التعرف على المعايير التي من خلالها تصنيف الجامعة في موقعها الحقيقي دون إجحاف. ومن هذه المعايير:

جودة التعليم، ومخرجات البحث العلمي للأساتذة، والأداء الأكاديمي بالنسبة لحجم الجامعة، وثقل الجامعة العلمي بين جامعات العالم، وهنا تدخل إنجازات الجامعة ومشاركاتها العلمية والبحثية واختراعات أساتذتها ومدى مساهماتها في عملية التنمية واصلاح المجتمع.

فعلى صعيد جودة التعليم: أطلق كثير من الناقدين لأوضاع الجامعات والتعليم العالي في الوطن العربي الملاحظات على وضعها الراهن مثل أزمة التعليم العالي، وانخفاض مستوى التعليم العالي، وعجز نظام التعليم العالي من إعداد الخريجين الأكفاء، وركود البحث العلمي، والتركيز على الكم لا على النوع، وعدم استقلالية الجامعات.. الخ.

ويقينا أن هذه النعوت أطلقت بناء على معطيات على أرض الواقع نذكر منها:

طغيان الجو البيروقراطي الإداري بقوانينه ونظمه ولوائحه ومجالسه وتحكمها في أداء الجامعة لرسالتها، يمثل واحدة من بين تلك العوامل المقيدة لفعالية الأداء الجامعي. فضلاً عن التآكل في مبدأ استقلالية الجامعة، إذ غلب على توجيهاتها ما توحي به الأوامر والنواهي الفوقية، وبخاصة ما يتصل بشؤون الضبط والربط لحريتها الأكاديمية في التفكير والتعبير لدى أساتذتها وطلابها.

ومن الممارسات والأليات التي تخنق الروح الجامعية المنشودة في فضاء المعرفة الجديدة والمتجددة ما يعرف بالكتاب الجامعي المقرر كمصدر أساسي للمعرفة، مع تقادم مضامينه في كثير من الحالات، واعتباره الأداة الرئيسة للتدريس والتلقين، ومع الجهد المبذول في إدخال الحاسوب إلى قاعات الدرس ووسيلة للتعليم، إلا أن توظيفه سيظل قليل الجدوى إذا لم يقترن بتنمية طرائق التفكير والبحث العلمي، وبالتمكين من اكتساب القدرة الفارزة لما تطرحه الشبكات الإلكترونية من فيض المعلومات.

بيد أن كل هذه القضايا الفكرية والتنظيمية في رسالة جامعة القرن الحادي والعشرين لا تحتل ما هو جدير بها من أولوية واهتمام في تكوين عقلية

الطالب وقدراته، بل وفشل الأستاذ الجامعي من استيعاب هذه الرسالة وبالتالي عدم استطاعته من إفهامها لطلبته لتضحي عملية التعليم بالتالي تدور في حلقة منرغة.

لم يعد لدينا الوقت ولا المناهج البيداغوجية (التربوية) اللازمة لهضم وإدماج مراحل السبق العلمي والتقني. ومن ثم اتساع الفجوة بين التقدم العلمي والتقني وتطبيق نتائج هذا التقدم بشكل توافقي اجتماعياً وثقافياً. جزء كبير من هذه الفجوة نابع من وتيرة التغيير العلمي والتقني بالنسبة لفتور المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية - الثقافية في مواجهة مثل هذا التطور.

فكيف يمكننا أن نقتحم القرن الحادي والعشرين بفلسفة سياسية ترجع للقرن الثامن عشر. ومؤسسات سياسية ترجع للقرن التاسع عشر. من ضمنها الدولة - الوطن وأسطورة السيادة ونسق للقرار قد يبدو ديمقراطياً ولكنه صمم لعالم لم يعد موجوداً إلا في كراسات القانون الدستوري والقانون الدولي. هذا دون الكلام عن ميثاق الأمم المتحدة؟

تلك هي الأسباب لتخلف بنانا وأنساقنا العقلية. ولعجزنا عن مواجهة التحديات التي تقابلنا منذ عقد أو اثنين من الزمن والتي تزداد خطورة شيئاً فشيئاً.

أما على صعيد البحوث العلمية التي تنتجها جامعاتنا. فلن نجد صورة أو مستوى أفضل في تعرضها للنقد والشكوى من قطاعات التنمية واحتياجات مواقع الإنتاج والخدمات. ووفقاً لمعهد المعلومات العلمية. بلغ مجموع الأوراق العلمية التي نشرت في كل أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة. كان توزيعها بالنسب المئوية كما يلي[٤]:

الاتحاد الأوربي ٣٧٪. والولايات المتحدة الأمريكية ٣٤٪. ودول آسيا والمحيط الهادي ٢١٪. والهند ٢,٣٪. والكيان الصهيوني ١,٣٪. أما مساهمة الوطن العربي الذي يبلغ مجموع سكانه ٣٠٦ ملايين نسمة(١٠) فهي تتراوح بين (صفر- ٠,٢٪) وبمجموع (٠,٠٣٪) في معظم البلدان.

وإذا قورنت هذه الأرقام مع غيرها من الدول نجد أن وضعنا في مجال العلم والتقانة أصبح يماثل وضع أنجولا ونيكاراغوا ونيبال. وهو أمر منطقي إذا كان بيننا من يحصل على الصفر. وإذا كنا مجتمعين لا نحصل على أكثر من ثلاثة من مائة في المائة. وهي نسبة مخجلة مقارنة بمن هم أدنى منا عدداً وعدّة.

وإذا انتقلنا إلى الوزن الدولي لجامعاتنا نجد أن المسح الذي تجريه جامعة شنغهاي الصينية بشكل منظم لآلاف الجامعات العالمية لتحديد المرتبة لكل من هذه الجامعات وبالتحديد لأفضل (٥٠٠) جامعة في العالم. ظهر من بينها مؤسسة تعليمية عربية واحدة بين تلك الجامعات وهي جامعة القاهرة التي جاءت في المرتبة ٤٠٠ لأفضل ٥٠٠ جامعة. وإذا كان أول الغيث قطرة أمل أن تلج جامعات عربية أخرى هذا الباب.

إنّ أخطر ما يعيق النهوض العلمي هو عدم تفهم المجتمع للعائد الحضاري الضخم من استثمار العلم والتكنولوجيا. وقصور الفهم المجتمعي يعود إلى أن نسبة الأمية في الوطن العربي تزيد على ٥٠٪ بالنسبة للرجال وتزيد عن ٦٠٪ بالنسبة للنساء ما يساوي ١٠٠ مليون أمي عربي. وهذه النسب أدّت إلى إفراغ الجو العلمي من محتواه. وإلى إسقاط أوراق الدعم المعنوي لفئة المتعلمين

في المجتمع وبالتالي عدم وجود أحضان مجتمعية تؤسس وتدعم عملية التعليم الحقيقية.

والتغيير المنشود ينطلق من الإيمان بضرورة التغيير والحاجة وبمشاركة ملتزمة من المنظومة المجتمعية (الأهل والأسرة) للمنظومة الجامعية أساتذة وقيادات جامعية مؤمنة بضرورة التغيير وبدوافعه وفوائده. وبأن جامعة المستقبل لن تقنع إلا بدور قيادي رائد في تطوير المجتمع ذاته ومن ثم تعبئة الجسم الجامعي كله لهذه الضرورات.

وتأسيساً على ذلك، نجد أن هناك تكاملاً وترابطاً بين الكيان المجتمعي والنظام الجامعي بما يؤمن قيام كتلة مشحونة بالمعرفة وتقوم على أسس علمية رصينة وتنشد التطلع إلى المزيد من المعرفة . وتحكمها قيم مجتمعية رفيعة وتهدف إلى الرقي والتقدم في كافة مجالات الحياة . حينئذ فإنّ أي عنصر من هذه الكتلة يكون مؤهلاً لحمل خطابها إلى الآخرين بفضل تسلحه فكرياً وعقائدياً وقيمياً وعلمياً. والعكس هو الصحيح حينما يسود المجتمع الترهل الفكري واللامبالاة والانصياع للأهواء الرخيصة البعيدة عن معايير الحكمة والتعقل.

والمؤسف حقاً، أن نظرة بسيطة إلى الجامعات العربية تؤكد أن المناخ السياسي والاجتماعي والتقدير الأدبي والمادي للعالم لا يزالان بعيدان كل البعد عن توفير البيئة الملائمة للإبداع العلمي والتفوق التقني. فبالإضافة إلى غياب التقدير الاجتماعي للعلماء، وللبحث العلمي وتقدير المشتغلين به. ففي الوقت الذي تنفق فيه الدول الكبرى ما بين ٢-٤٪ من إجمالي ناتجها القومي على عمليات البحث العلمي من أجل التنمية. نجد إنفاق دولنا لا يتعدى (٠,٢٪) على ضخامة الدخول القومية في الدول الكبرى وضآلتها في الدول النامية. وعلى ذلك فإن مجموع إنفاق العالم على عمليات البحث العلمي وتوظيفه في تطوير التنمية[١١].

إن أبرز العوامل التي ساهمت وتساهم في ترسيخ التخلف العلمي العربي ذلك الاستبداد السياسي الذي يعانيه الإنسان العربي المعاصر. إذ إن البحث العلمي يتطلب مناخاً سياسياً مواتياً أساسه الإحساس بالحرية ونيل الحقوق والشعور بالأمن الاجتماعي والأمان النفسي. كما إن ضعف التقدير الاجتماعي والاقتصادي للعالم يعد عاملاً مهماً من عوامل إحباطه وعدم قدرته على الإبداع.

ثالثا:- الجامعات العربية وإشكالية التفاعل مع الآخرين:

هناك إشكاليتان رئيسيتان تحدد صيغة التفاعل الحضاري بين جامعاتنا والآخرين. أولاهما: إشكالية خارجية. والأخرى داخلية. والتفاعل هنا يعني فتح نوافذ الفكر والثقافة وقنوات الاتصال على مختلف عطاءات الفكر الإنساني، ولكن مع التمييز بين ما هو مشترك - إنساني. عام لا تتغير حقائقه وقوانينه بتغير المعتقدات والمواريث. والشخصيات القومية. التمييز بين هذا المشترك الإنساني العام والخصوصيات الثقافية والحضارية التي هي بالنسبة إلى الثقافة والحضارة كالبصمة المميزة للإنسان. بها يتميز فيتحقق الاستقلال دون أن يذوب في خصوصية غيره، ودون أن ينعزل عن جنس الإنسان . وتعد الثقافة هنا العامل الأهم في تكوين خصائص الشعوب. لأنها تمثل الرؤية الفكرية والواقعية لديها. فالثقافة هي مجموع المعارف التي تسهم في تكوين الإنسان. وعندما يحاول الإنسان أن يختار لنفسه موقفاً فكرياً أو سلوكياً. فإنما يختاره من خلال ما تركته ثقافته في نفسه من آثار وملامح وتصورات. وإذا كانت

الثقافة إنسانية الملامح أخلاقية الاختيارات كان الفكر. كذلك. وليد ذلك الاتجاه. والشعوب التي تمتلك ثقافة مميزة يكون فكرها منسجماً مع تلك الثقافة. ولا فكر لأمة لا تمتلك ثقافة مميزة. إذاً فموقف التفاعل بين الحضارات لا يتجاوز ولا يلغي التمايز الحضاري والثقافي.

وفي ضوء معرفة خصوصية التفاعل الحضاري تبرز لنا الإشكالية الأولى الخارجية. أي أن العالم يعيش في هذه المرحلة ما يمكن أن نطلق عليه "زمن المواجهة الحاسمة بين الحضارات". وهذه القضية تبدأ من حقيقة لا مهرب منها وهي أن الحضارة الغربية هي الحضارة الأقوى والمسيطرة في عالم اليوم بكل المقاييس. وإن مسار التفاعل الحضاري يتم من خلال محاولات الإحاطة والحصار أو الاستيعاب والهضم. وأخيراً التبديد والفناء. وهذه هي لغة الحوار بين الحضارات فيما نطلق عليه "العالم الجديد" لا بل أن هذه اللغة ليست جديدة على الغرب بل تمتد إلى زمن ماض. فمثلاً فيكتور هيغو قد أطلق صرخته المدوية بعد استعمار الجزائر قائلاً: إنها الحضارة تنتصر على البربرية. نحن إغريق العالم وعلينا تنويره! تلا ذلك عالم الانثروبولوجيا ليفي بريل ليبلور مصطلح (العقلية البدائية). لكي يبرز الاستعمار بشكل غير مباشر. ففي رأيه أن الغرب هو وحده الذي توصل إلى الفكر العقلاني أو المنطقي. وأما بقية الشعوب فلا تزال تعيش في مرحلة العقلية ما قبل المنطقية. وبالتالي فما علينا إلا أن نمر بنفس المراحل التطورية لكي نلحق بالغرب. وقد تناسى ليفي بريل أن ما يدعو إليه هو عكس الحقيقة التاريخية تماماً أي أن الغرب لا بد من أن يمر بالمراحل التطورية التي مرت بها الحضارة العربية إبان تاريخها التطوري الطويل حينما كان أجداد ليفي بانتظار ما يملى عليهم من أنوار الحضارة العربية الإسلامية.

وأما فيليب رينو أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس فيرى ما يأتي[١١]: ينبغي على الديموقراطية الحديثة أن تقبل بوجود صراع طويل الأمد مع القوى الماضوية التي ترفض قيم الغرب بشكل مطلق. ولكن في ذات الوقت ينبغي علينا أن نقيم علاقات إيجابية مع القوى الأخرى الموجودة في نفس المجتمعات والتي تقبل بالأفكار الحديثة.

نستنتج من أقوال بعض المثقفين الغربيين أنهم يحاولوا أن يوسعوا من الهوة الحضارية بين الشرق والغرب ولو بسبل واهية غير مقبولة منطقياً. لكن الحقيقة أن هذه الهوة ليست سحيقة إلى الدرجة التي كنا نتوهمها. ففلسفة الغرب المتمثلة بالديمقراطية وحقوق الإنسان وقوانين السوق لم تعد قادرة على فرض نفسها كفلسفة كونية تنطبق على العالم أجمع. كما أن العالم الشرقي الذي يمتلك من الإرث الحضاري. والرصيد الفكري الذي غذى الغرب قروناً طويلة ولم يزل في الفلسفة والطب والرياضيات وعلم الفلك. والعمق الروحي والأخلاق الفاضلة وقيم التسامح والمحبة. تشكل مكونات ثقافية قد لا يمتلكها الغرب[١٢]: أي أن لكل طرف رصيد من نوع خاص. بشرط أن يتراجع الغرب في كراهيته للإسلام وألا يعتبر القوة التي يمتلكها أحد مكوناته الحضارية. ذلك. أن الأيام والظروف دون أن تؤثر عليها أي متغيرات كدلالة على رسوخ مصداقيتها وقدرتها على إقناع الآخر بالقبول بها رضى لا إكراهاً. فضلاً عن القيم العليا التي شهد لها الغرب نفسه وعلى مر العصور وبخاصة من المنصفين منهم. وينظر الإسلام إلى السلاح كأداة لإحقاق الحق وتصويب الخطأ ليس إلا. من هنا تتبلور صحة المفهوم الفكري

للإسلام وليس كما يدعي مثقفو الغرب أنه قام على حد السيف!

ومن هذا المنطلق، فإن التساؤل الذي يجب طرحه بكل جدية هو:

ما إمكانية ضبط مسار وآلية التغيير والاحتكاك والتفاعل مع الحضارة المسيطرة نحو الاتجاه المنشود انطلاقاً من خصوصية الواقع العربي ثقافياً وحضارياً. وفي إطار متغيرات وتطورات العالم الجديد؟ بعبارة أخرى التساؤل عن كيفية ضبط آلية الحوار والتفاعل الحضاري مع القوى المسيطرة والموجهة لمتغيرات العالم الجديد لا ريب أن نقطة البدء والخطوة الأولى في هذا الطريق هي: فهم لغة الخطاب التي يتم التعامل بها بين أطراف هذا العالم الجديد - وبالتحديد - فهم توجهات هذا العالم نحونا أي (الخطاب الغربي نحو العالم العربي). ويقيننا أن الجامعات باعتبارها بوابة الخطاب الخارجي مع الغرب عليها أن تدرك هذه الحقائق لكي يكون مسار تفاعلها وخطابها لا يخرج من كونه تفاعل إيجابي يخدم المصالح المشتركة مع الحفاظ على الخصوصيات.

وعلى صعيد الإشكالية الداخلية، لا شك أننا نعاني من أزمة ثقافية عربية متعددة الجوانب في التعليم والخطاب الاجتماعي والسياسي ومحددات الإبداع والإنتاج البشري[٤٠]. وأسباب هذه الأزمة هو البحث الدائب عن صيغة فكرية يتم خلالها استيعاب ثقافة العصر وهي في حقيقتها ثقافة الآخر. إن الإنسان العربي وهو يواجه اليوم ما نطلق عليه (المشكلة العربية). لا بد أن يمتلك قدرة معينة هي: النظرة التاريخية العميقة التي تجعل من الحاضر والمستقبل تواصلاً دائماً مع جذوره القومية الواحدة ثقافياً وحضارياً. إن التحدّي الأكبر الذي يواجه الإنسان العربي هو عبور الهوة العميقة بين الواقع العربي الحالي ومؤشرات العصر القادم، ولكن دون استسلام إلى الشعارات الزائفة التي تنال من أصالته وتميزه الحضاري.

إن نموذج التنمية الغربي ناتج من الصبغة الغربية للتحديث ورؤية الغرب الشاملة للإنسان، والكون، والحياة، وهنا نواجه التساؤل الهام: هل النموذج الحضاري قابل للتكرار؟ إن الإجابة عن هذا السؤال يجب أن يأخذ في الاعتبار أن أهم الوظائف الحضارية تتمثل في وظيفة إنتاج القيم وإعادة إنتاجها، بمعنى إحياء قيم إيجابية قديمة وإعطاءها مضامين جديدة تتفق مع السياق المكاني والزماني الجديد وإذا كان أحد أهم معايير الحكم على أصالة وحيوية الثورات والتغييرات الاجتماعية - الحضارية - هو قدرتها على إنتاج القيم، فإن تقليد النموذج الغربي في التنمية يعني ببساطة الحرمان من إحدى أهم الوظائف الحضارية، وظيفة إنتاج القيم، ومن هذا المنطلق، فإن الصراع الدائر حالياً إزاء قضية تحديد "الموقف" من الحضارة الغربية يدور بين تيارين: تيار يرى الانصياع غير النقدي لكل قيم الغرب وتقاليده وإنجازاته، وتيار آخر يفضل إجراء محاولة إجراء محاولة خلاقة لتجاوز الإطار المستورد والبحث عن رؤية منهجية بديلة تقترب من الواقع المحلي وتعكس تحيزاته ومفاهيمه الأصيلة[٤١]..

إن العرب ليسوا بحاجة إلى إنتاج قيم بقدر حاجتهم إلى تكريس مضامين قيمهم الخلاقة، وإن الإنسان العربي ليس بحاجة إلى استيراد المفاهيم والتصورات والحلول الجاهزة بقدر حاجته إلى استنهاض الفكر العربي لتنشيط فاعليته. وعلى العربي أن يخرج من دوامة تفكيره بكيفية إقناع الآخر، بقدر صقل شخصيته من جديد ليحتار الآخر بكيفية التحاور معه، والواقع المرير الذي

يعيشه العربي اليوم إنما كبوة حضارية وليست موت حضاري كما يتخيل البعض. فالتراجع في زمن قد يعني إعادة تنظيم من جديد وليس بالضرورة الاستمرار بهذا التراجع.

أما الأزمة الثقافية والفكرية التي يمر بها الإنسان العربي لم تنفرد بها الأمة العربية لوحدها. إنما مرّت بها كل الأمم. وليس تاريخ أوروبا علينا ببعيد إبان قرونها الطويلة المظلمة. وإن الأهم من ذلك أن العرب بدؤوا يشعرون بهذه الأزمة وتمكنوا من تشخيصها كداء لا بد من علاجه وهذا الشعور بحد ذاته دلالة على أن الوعي العربي بدا يدب في النفوس العربية. وعلى ذلك وضع العالم العربي طه حسين علاجات للخروج من هذه الأزمة حددها بأربعة شروط:

١) أن تكون الثقافة العربية إنسانية كي تكون طرفاً فاعلاً في ثقافة البشرية. دون تعصب أو تحيز عرقي. مما يعني أن تكون ثقافة مؤمنة بالحوار والتسامح والتفاعل مع ثقافة الآخر.

٢) أن تكون عقلانية: أي تحتكم إلى العقل في الفهم والتقدير لأمور الدنيا معاشا وسياسة. ومن ثم لا تخضع لجمود متعصب أو تسلط جامد. وهي في ذلك تتخذ من العلم والتفكير العلمي مناطاً للتطور الدنيوي في جوانبه المختلفة.

٣) أن تعتمد الحرية أساساً لاختيار الفكرة الخلاقة والفعل السياسي والاجتماعي النابذ للاستبداد دون وصاية من بشر على بشر. ودون خوف من الاختلاف أو حتى الخطأ حين الاجتهاد.

٤) أن تتمسك بالعدالة شرطاً لنشر الثقافة. سماء على أجنحة العدالة الاجتماعية التي لا تحرم عقلاً من الثقافة لرقة الحال أو ضيق اليد. والعدالة السياسية التي تحرس هذه العدالة الثقافية بمدّ مظلتها نحو الأطراف البعيدة والجماعات المغمورة. حرصاً على حالة ثقافية عامة تستعصي على التخريب من قبل حلقة جامدة أو ناقمة.

وعند تأمل هذه الشروط يجعلنا نتبين بوضوح ودهشة أن أكثر من ستة عقود مرت والثقافة العربية لم تكتف بمجرد المراوحة في أماكنها أمام شروط طه حسين الأربعة. بل حدث من التردي والنكوص ما لا يمكن نكرانه.

فالتوجه الإنساني للثقافة العربية كعنصر متكامل في لوحة الثقافة الإنسانية العامة. ينكفئ الآن نحو الانغلاق على الذات بدعاوى متهافتة مثل الخوف من ذوبان الهوية العربية. بل ذهب الزعم وتلك المخاوف أبعد من الانغلاق على الذات - لدى البعض - إلى اعتبار العالم خارج ذاته خصماً يستوجب المقاومة أو على الأقل: الريبة والحذر. وبالتالي تتقلص منطق الحوار والتفاعل مع العالم ثقافياً.

وأدى هذا الانكفاء على الذات إلى توليد تشوهات في الوجدان العربي الخاص جعلت قطاعات ليست بالقليلة تلوذ بأفكار وأزياء وسلوكيات عبرها الزمن بقرون عديدة. وهي ليست من أساسيات الروح العربي أو أركان العقيدة. والأخطر من ذلك. في إطار هذا الانكفاء. أن ملايين من العرب الذين صاروا من مواطني أوروبا وأمريكا أو المقيمين بها. بدلا من أن يتحولوا إلى جسر لنقل التطور العلمي والتقني والمدني إلى بلدانهم العربية الأم. تقوقعوا على ذواتهم ولاذوا بقلاع من الماضي البعيد حالت بينهم وبين حوار الأخذ والعطاء مع المجتمعات الغربية المتطورة التي يعيشون فيها. فصاروا أقليات معزولة ومستغربة في هذه البلدان.

إنّ الخطاب الجامعي العربي يقف متردداً إزاء هذه الشروط. إذ ليس بإمكان الأستاذ الجامعي العربي أن يكون منصفاً في ظل محددات السلطة الحاكمة وقيود الحرية الصارمة والشد النفسي الذي يتأرجح بين الحاجات الاجتماعية والمادية من جهة وبين إرضاء السلطات العليا من جهة أخرى. في خضم توق أكاديمي للاندماج مع جامعات العالم الأخرى بغرض التواصل والتفاعل والحوار.

ولغرض فتح الباب واسعاً أمام جموح الأستاذ الجامعي العربي ليتفاعل وبإيجابية مع الآخرين يجب توفير مستلزمات حياة كريمة له ولأسرته. إلى جانب الدعم المعنوي. ورفع القيود عنه. وفسح المجال أمامه ليعبر بحرية كاملة عما يدور في خلده. ويقينا أنه سيجتاز ممن يجتازونه اليوم. خاصة وأنّ هذه المستلزمات هي من أساسيات الحياة التي ينبغي أن تتوفر لكل مواطن وهي متوفرة كاملاً لمواطني الدول التي اجتازتنا بعلمها وتقانتها.

إنّ الإشكالية الجديدة المطروحة في وجه العلم والتقانة. وفي وجه الثقافة أيضاً. هي النظر في كيفية استعمال معارفنا المكتسبة لتأهيل البشر لمحاربة الفقر. والبؤس. والظلم الاجتماعي. والتهميش. وكراهية الكرامة والحقوق الإنسانية. والاستعمال المفرط للطبيعة ومواردها المحدودة.

وإحدى النتائج الثقافية للتقدم العلمي هي أنه جعل "التخصصات" منسوخة. خصوصاً حين نفكر في النظريات الأخيرة التي تمس "النظام" و"الفوضى" في العالم الفيزيائي. والمؤدية إلى تخصص شمولي "Metadiscipline" المدعو "فوضوي" (Chaotique). والذي لا يترك مكاناً لإقطاع وإمبريالية التخصصات الجامعية المجزئة للمعرفة داخل حدود مصطنعة تماماً. إنها (أي إحدى النتائج) الأصل في الأزمة الابستيمولوجية التي علينا ألا نجد لها الحلول القابلة للحياة قبل منعطف هذا القرن.

رابعا:- التنسيق بين الجامعات العربية لتوحيد لغة الحوار:

لا ينكر أن الأقطار العربية غير متساوية ولا متكافئة فيما يتصل بتاريخ النشأة. ومساحة الدولة. وتعداد السكان. ونسب تجانسهم واندماجهم. ودرجات قدراتهم وتطورهم الحضاري. ووفرة أو ندرة - الموارد- ومستويات التقدم - أو تخلف- البنى الاجتماعية والسياسية. أو هي متماثلة في مدى عمق وشمول كل من المشاعر القطرية والنوازع القومية في فكر النخبة ووجدان الجماهير. لكن في المقابل هناك جملة حقائق موضوعية تتساوى فيها جميع الأقطار العربية على الرغم من التمايزات التي ذكرت منها: خصوصية الانتساب إلى وطن واحد وأمة واحدة والانتماء إلى حضارة مشتركة. وخصوصية عمق مقومات الوجود القومي والطموح الوحدوي. وأخيراً خصوصية الانتماء إلى حضارة الجنوب[٦١]:

ويندرج ضمن هذا التمايز والتماثل على الجامعات العربية. وإن كانت الجامعات أقل تمايزاً في البنيان والهيكل ومحتوى التدريس والبحث. لكنها تتمايز في الرؤى ولغة الخطاب. والقدرة على الاندماج والتفاعل مع الآخرين. وبقدر أقل احتفاظ بعضها بالخصوصية الفردية أو القطرية على حساب القومية والخصوصية الحضارية.

إلا أن المشترك الذي يجمع جامعاتنا هو عمق الفجوة فيما بينها وبين جامعات العالم المتقدم هذه الفجوة لا يمكن تقليصها أو ردمها دون التنسيق اللازم بين الجامعات العربية وبخاصة

في طبيعة التأمل والتحاور مع الجامعات الأخرى. انطلاقاً من مبدأ ثابت. إن مستقبل الأمة في المدى القريب والبعيد على السواء. يتوقف على عملية التعليم. باعتباره السبيل إلى إعداد القوى البشرية المتخصصة ومجال توليد الفكر. وإعداد الباحثين والقادة في مجالات العمل والإنتاج وأداة تجديد الثقافة[11].

ودعا تقرير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى إيجاد علاقة بين الجامعات العربية بعضها ببعض واستحدث صيغاً فعالة لذلك. ومن ذلك أن تنشأ علاقات بين الجامعات القديمة والحديثة على أساس من التعاقد والتكامل والتعاون في تبادل الأساتذة والبرامج والمنح الدراسية والبحوث. وأن توضع نظم جديدة لتبادل الأساتذة وحركتهم بين الجامعات وفي التخصصات المختلفة.

وإذا كان ذلك ينظم عمل الجامعات بشكل موحد. فإن المؤتمرات والندوات وتبادل الخبرات والمعلومات والرؤى من شأنها أن توحد لغة الخطاب الجامعي. بمعنى أدق ضرورة تشكيل لجان عربية مشتركة لتوحيد الرؤى انطلاقاً من الإيمان بوحدة المصير ووحدة المستقبل كما هو حال وحدة التاريخ واللغة والدين والجغرافي. وتأخذ هذه اللجان على عاتقها ما يلي:

١) تحملها مسؤولية الحوار الحضاري مع الحضارات الأخرى انطلاقاً من أن العرب أمة واحدة ولها مصير واحد مشترك وتهدف إلى بناء علاقات موحدة مع الحضارات الأخرى. وبتجرد كامل من الذات القطرية والأنا الفردية وبعيداً عن كل الميول الفئوية والاتجاهات الحزبية.

٢) ضرورة عدم الدخول في حوار فردي مع الجامعات الأخرى أو أي مركز قرار أجنبي إلا بصورة مشتركة - وإن كان الحوار لا بد منه يجب ألا يكون الحوار باسم العرب - وذلك لضمان الموضوعية في الطرح. والمرونة في تقبل آراء الآخرين للحيلولة دون ترك فراغ ينفذ من خلاله من يريد شق الكلمة العربية والرأي العربي المشترك.

٣) ضرورة التنسيق الدائم في المواقف والرؤى تمشياً مع مستجدات العصر ومتغيراته على كافة الصعد. وأن يكون هذا التنسيق على مستوى هذه اللجان المحايدة والمستقلة وغير القابلة للاختراق من أي طرف كان.

٤) أن تكون هذه اللجان بعيدة عن الانغلاق على الذات وتعمل على الدوام على فتح منافذ حوارية بينية وخارجية لغرض تذويب الفجوات الحاصلة بين الجامعات العربية من جهة وبينها وبين جامعات العالم الأخرى.

٥) الإعلان عن جامعة عربية موحدة تضم مختلف الأساتذة من الأقطار العربية وبمختلف التخصصات. لتكون صرحاً عربياً ناطقاً باسم العرب. ويحمل خصائصهم وقيمهم وتطلعاتهم. بشرط أن يكون لهذا الصرح غطاء رسمي وتمويل حكومي وقبول شعبي.

٦) أن يتم التنسيق على ثلاث مستويات: قطري وإقليمي وقومي[12]. والتنسيق القومي هنا بالغ الأهمية فهو يتعلق بمصير الأمة العربية بكاملها. ويركز التنسيق على التحديات العلمية والتقانية والإدارية والتجارية والخدماتية. إلى جانب التحديات السياسية والعسكرية. ويتطلب ذلك دراسة الواقع العلمي العربي. وتشخيص نواحي التخلف في المجالات التي ذكرت. ومقابلة الواقع العلمي العربي بالواقع العلمي والتقاني المعاصر. والخروج من كل

ذلك بوضع استراتيجية عربية للتعليم العالي عامة، والدراسات العليا والبحث العلمي خاصة، وتوزيع المهام في تنفيذ هذه الاستراتيجية على الأقطار العربية كل حسب إمكانياته المادية والبشرية والعلمية المتاحة.

٧) أن يعهد إلى اللجان المشتركة دراسة الحاجة الفعلية للتخصصات العلمية المطلوبة التي يحتاجها الواقع العربي، وبالأخص العلاقات الخارجية للجامعات العربية مع جامعات العالم الأخرى المتعلقة بلغة الحوار الحضاري والخطاب الجماعي بما يصب في خدمة قضايا الأمة ومستقبلها. ويندرج ضمن هذا التوجه الجوانب الاستراتيجية والأمنية والعسكرية والاقتصادية والثقافية.

تحتاج الجامعات العربية إلى صياغة فكرية يتم خلالها استيعاب ثقافة العصر، وهي في حقيقتها ثقافة "الآخر" في الوقت الذي يتم فيه الحفاظ على خصائصنا العربية الأصيلة، وهذه هي الإشكالية العامة في قضية الحوار مع الآخر. ودون الدخول في تفاصيل الجوانب الفلسفية لهذه الإشكالية، فإنه يمكن البدء بتقرير حقيقة أساسية مؤداها أن الحوار مع الآخر ينطوي على مسألة ذات شقين: الشق الأول هو "الذات" والشق الثاني هو "الآخر" فمعرفة الذات تقتضي نوعاً من الانفصال، أما معرفة الآخر فتقتضي نوعاً من الاتصال، ومعرفة الذات تعني معرفة الهوية والخصائص الثقافية، إذ إن منطق التعامل يتم تحديده وفقاً لظروف "اللحظة التاريخية" التي يتم في ظلها، ولا ريب أن اللحظة التاريخية الحالية - غير مسبوقة - في التاريخ بسبب ما تحفل به من تغييرات جذرية أدّت إلى خلخلة الأسس والمفاهيم المستقرة في أذهاننا منذ عقود عدة، ومضمون هذه التغييرات يشمل ما يطلق عليه الثورة الكونية وتطبيقاتها في المجالات العلمية والتقانية والسياسية والقيمية.

وما يهمنا في هذا المجال، ليس بحث هذه التغييرات الثورية العالمية في حد ذاتها، وإنما ينصب اهتمامنا بالتحديد على بحث الثابت والمتغير في لغة الخطاب الغربي في ضوء هذه التغييرات التي لا مناص من وضعها في الاعتبار في الخطاب الجامعي العربي.

خامسا:- نحو أنموذج حضاري عربي ودور الجامعات في تكوينه:

ثمة دعوات متكررة لصياغة أنموذج حضاري جديد عبر عنه المثقفون والسياسيون العرب، بل عبر عن ذلك مختلف التيارات الفكرية لشعوب العالم الثالث[١٩]، ويعزز هذا التوجه الأزمات الشديدة التي تعاني منها دول الجنوب والتي خلقتها لها دول العالم المتقدم في الشمال وأرغمتها بمختلف الأساليب على التعايش معها وقبولها إكراها، ومن جانب آخر، إنَّ فكرة الاستعلاء والتمايز التي تتسم بها حضارات الشمال ينبغي أن تكون داخلية بالنسبة لحضارة الشمال لا مفروضة ولا معممة على الحضارات الأخرى، وأن فكرة التطور والاستقلالية ينبغي أن تكون من حق كل الحضارات لا مقتصرة على حضارة بعينها.

والتحليل المعمق لهذه الدعوات والتوجهات يفصح عن مدى الحاجة لتأصيل المشروع الحضاري العربي، كي لا يبدو أن مشروعاً كهذا هو أقرب إلى الحلم الذي يضع معالمه مجموعة من المثقفين، ذلك أن مشروع النهضة بالمعنى العلمي ليس إلا إنتاج جملة من التفاعلات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تتم على أرض الواقع العربي ذاته، بما يعني الانطلاق من معطيات الواقع بغية تجاوزه.

ولعل من أهم الأسئلة التي تواجه أمتنا العربية وأمم الجنوب الأخرى. ذلك السؤال الذي يطرح إشكالية مشروع المستقبل. أو بكلمة أخرى.السؤال الآتي: ما الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها نظام المستقبل لهذا الشعب أو ذاك من الشعوب المستضعفة؟ وأي الجهات التي تتبناه لغرض تحقيقه؟

وإن الإجابة عن هذا السؤال يتطلب وضع إطار فكري يمكّن الأمة من تحديد منهج تحليلي نقدي يتناول المجتمع في بعديه التاريخي والاجتماعي. تستطيع الأمة من خلاله معالجة القضايا الكامنة وراء الأزمة الاجتماعية والفكرية والسياسية التي تعاني منها المجتمعات على مستوى الأمة والشعوب على مستوى الأمم[١٠]. وينبغي أن ندرك أن الباعث الذي تقف وراءه الأطر الفكرية للأمم هي حالة التغير التي أصبحت السمة الرئيسة لعالم اليوم. بمعنى إننا نشهد انتقال عالمنا المعاصر من حالة نوعية إلى حالة نوعية أخرى. وقد تروق لبعضهم. وقد تغضب البعض الآخر. وقد تبعث الأمل في نفوس البعض الثالث أو تحبط غيرهم. وقد تحفز بعض الناس على التحرك. أو تشل غيرهم. وقد تسهم في أعمال الفكر لدى البعض وتحثهم على مراجعة الذات. وإعادة النظر في المفاهيم والشعارات القديمة. وتدفع البعض الآخر إلى التشبث بالموروث من الأفكار والشعارات ووسائل العمل. وينسحب هذا البعد (التغيير) على جميع المستويات الخاصة بأبعاد الحضارة الإنسانية: البعد المعرفي. وتلك الأبعاد المرتبطة بالقوة أو بالثروة. فالعلوم تتلاقح وتتقدم باستمرار. ومراكز القوة تتبادل المواقع. ومعايير الثروة تتجدد. وتكتسب معاني جديدة.

ومن المؤسف حقاً أن جميع حالات التغيير التي تحدثنا عنها لم تكن لصالح عالم الجنوب الذي أضحى بوضع المتلقي لما يُملي عليه وليس له حق المشاركة في صنع آلية التغيير سوى وقوفه متألماً إزاء التساؤل الآتي: إلى متى ستحتفظ دول الشمال بالتفوق والسيطرة على عالم الجنوب؟

وبالرغم من المحاولات التي تجري في أقاليم متعددة من العالم نحو خلق نوع من التوزان. كالاتحاد الأوروبي والصين واليابان وروسيا الاتحادية. إلا أن الولايات المتحدة قامت بإجراءات استباقية لمنع هذه المحاولات أو تأخيرها أو تعطيلها وبأساليب مختلفة كالتحجيم السياسي للاتحاد الأوروبي أو إضعاف اقتصاديات الدول كما في أندونيسيا أو استخدام القوة العسكرية كما في العراق[١١].

ورغم ذلك فإن الكرة لم تخرج من الملعب الجنوبي بعد. فالصين تتقدم بخطوات حثيثة نحو بناء قاعدة اقتصادية وعلمية كبيرة. ولا بد أن ينعكس هذا النمو إيجابياً على دورها السياسي الذي سوف تؤديه على الساحة الدولية بشكل أكبر خلال الحقبة القادمة. وسيكون أثر ذلك في آسيا أولاً. وفي باقي العالم ثانياً. ويتزامن ذلك مع نهوض الشعور الوطني الروسي الذي سوف يعمل على إخراج روسيا من قلقها الحالي ومن حالة المهانة والتراجع الذي تعاني منه. وإعادتها إلى دورها ووزنها الدوليين اللذين كانت تتمتع بهما قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها[١٢].

إن بروز هذه القوى. إن تم. سيكون على حساب قوة الولايات المتحدة الأمريكية السياسية والاقتصادية والعسكرية غير المنازعة الآن. وسوف تحاول كل من القوى الجديدة لأسبابها الخاصة. وتبعاً لظروف إقليمها وأوضاعها الداخلية. وبدرجات متفاوتة. تغيير موازين القوى لتأخذ

حصتها التي تستحق.

أما بالنسبة للوطن العربي ينبغي ألا يكون دوره هامشياً ضمن سياق المشاركة الفعلية مع أمم الجنوب. بل ينبغي أن يرتقي إلى الأنموذج الأمثل بالنسبة للقوى الحضارية الأخرى. خاصة وأنه يمتلك من الطاقات الحضارية المعنوية والروحية والمادية بما يؤهله ليمثل هذا الأنموذج. وان تحقيق ذلك لن يكون إلا عبر عملية تاريخية تحقق تحولاً نوعياً في واقع العرب القومي ومن ثم مكانتهم في المجتمع الدولي. ويبدو في الوقت الحاضر أن هذه العملية تتطلب حزمة من المستلزمات تأتي في مقدمتها:

تحصين المجتمع العربي ثقافياً وعلمياً وتقانياً. لأنه بعد الخلل الذي أصاب خطط الدفاع الأخرى في الأمة العربية. فإن خط الدفاع العلمي والثقافي هو المؤهل للسعي إلى صد الغارة المعادية. وهذا يلقي على عاتق الجامعات والمفكرين والمثقفين وأهل الرأي مسؤولية عربية - إسلامية - حضارية وأخلاقية. وواجبهم حيالها أن يصمدوا ويواجهوا ويحزم. على اعتبار أنها فرصة تاريخية للأمة أن تنهض. ومن جانب آخر ينبغي أن تكون مساهمة جميع المثقفين العرب في الداخل والخارج في صياغة المشروع الحضاري نظرياً وعملياً. وان حان الوقت لاسترداد الطيور المهاجرة وزجها ضمن العمل القومي العربي.

يحتاج المشروع الحضاري العربي إلى صناعة إعلامية تلتزم بقضايا الأمة وتسهم في صياغة تربوية للمجتمع. لها منظومتها الثقافية الأصيلة عربياً وإسلامياً، وتكون هذه الصناعة بشكل تتحقق فيه الاستمالة وجذب المتلقي للرسالة الإعلامية. ويقع على عاتق الإعلام حماية الأسرة العربية من الانزلاق عن الإيمان وضعف الثقة بالنفس. مع التركيز على حماية الأطفال بالنظر لما يحيط بالأطفال في سنوات حياتهم المبكرة من أخطار. ومن خلال تكريس الطقوس الروحية والإيمانية في مجالات تنشئتهم بما يسهم في دعم شخصية الأطفال ومنحها أهم ما تحتاجه من استعدادات وقدرات ذهنية وعاطفية لابد من توفرها لاستكمال الأنموذج الاجتماعي المطلوب لمواجهة تحديات العصر. والمعروف عن اليابان أنها منذ القدم أحاطت أسرها بأعلى درجات الحماية الغيبية. وأن المجتمع الياباني يملئ الطفولة من العناية والاهتمام ما يندر العثور على نظير له في مجتمعات العالم الأخرى[٢٢].

إنّ الشعب العربي بمختلف فئاته وهو ينشد صياغة مشروع حضاري. ينبغي أن يدرك أن مسؤولية نجاحه هي مسؤولية حكومية وشعبية. وصياغته تكون من إنتاج أهل الفكر والاختصاص والمؤسسات الثقافية. لذلك يحتاج المشروع إلى مصارحة في التعاطي مع الأمور. فلا قيمة لمشروع حضاري إذا بقيت المجاملات سيدة الموقف. والمصارحة العربية - العربية ضرورية للمصالحة دفاعاً عن استقلال الأمة ضد الحصار بكافة أنواعه والتبعية بكافة أشكالها.

وهذا التوجه بكل عناصره يقينا لا يمكن تحقيقه دون أن تتبناه الفئات الواعية في المجتمع متمثلة بالعناصر التي تحتويها الجامعات. إذ إن ذلك يعتبر جزءاً رئيساً من رسالتها. وهنا يبرز وبشكل واضح دور هذه الجامعات ويبرز أيضاً مدى مصداقية هذه الجامعات ووطنية أساتذتها وإخلاصهم وحبهم لأوطانهم وأمتهم.

سادسا: - تقييم عام وخلاصة: -

يحتاج التقدم في المجتمعات النامية إلى قرار

سياسي من رجل شجاع مدعوم بأجهزة متابعة ورقابة صارمة. وإخلاص في النية والعمل. وإرادة لا تلين. وتصميم واع مبني على أسس علمية رصينة. والتفاف جماهيري وشعبي عال. وهذا ما تبنته دول مثل اليابان وكوريا الجنوبية والصين وسنغافورة وغيرها من الدول من أن التحولات النمطية في عالم اليوم تعيق اللحاق بركب العلم والمعرفة. وذلك إدراكاً من تلك الدول من أن التحولات النمطية في عالم اليوم تعيق اللحاق بقطار التقدم العلمي والتقني المنطلق بسرعة فائقة والذي حوّل العالم إلى دول سائدة وأخرى مسودة.

ويحتاج التقدم العلمي في دولنا العربية إلى صحوة جماهيرية تبنى على أساس قرار جماهيري يروم التغيير. تغيير كل شيء في حياة المواطن بدءً من تغيير آلية التفكير من سلبي إلى إيجابي. وتغيير نظم الحياة من هدر الوقت واللهو إلى وقت مستثمر لأجل البناء والعطاء والتميز. وتغيير نمط العائلة من حالة الخمود واللامبالاة إلى حالة الحركة والتجدد والإبداع في كل شيء. وتغيير هياكل التربية والتعليم من خلال الدعم المادي والمعنوي للأستاذ والطالب وإعطاءهما قيمة عليا واعتباريهما قائدين لعملية التغيير وتحميلهما مسؤولية تاريخية وأخلاقية لأغراض النهوض. والإعلان في كل بلد عربي عن ثورة جامحة للتغيير أخذين بنظر الاعتبار استنهاض كل القوى الحيّة في المجتمع. ومستلهمين بإصرار تجارب العالم المتقدم بما يصلح منها انسجاماً مع القيم والأعراف العربية الأصيلة. واستحداث مكافآت اعتبارية للمبدعين كل في مجاله الخاص لدفع عملية التطور إلى الأمام. ومستخدمين المعايير الاجتماعية للانتقاص من الذين يألون جهدهم في مضمار تقدم البلد.

وضرورة أن يطرح التساؤل الآتي دائماً: أين هم العرب مما يشهده العالم من تطورات ومتغيرات؟ وما عدتهم لمواجهة ما يطرح من مشاريع وخطط وعلى ساحتهم؟ والأمثلة كثيرة في هذا الباب منها: إقامة سوق إقليمية شرق - أوسطية - تضم دولاً ذات بنى اقتصادية أكثر تطوراً وعصرية كإسرائيل وتركيا على سبيل المثال [١٠].

يتجه العالم اليوم نحو قيام تكتلات وتحالفات اقتصادية. ومعظم الدول تسعى إلى الانتظام في تجمعات إقليمية وإقامة أسواق كبيرة. أما من سيبقى خارج هذه التجمعات فلن يكون قادراً على الصمود في خضم المنافسة الدولية المتعاظمة. لذا فإنّ مسألة التكامل الاقتصادي والعلمي وإزالة القيود والحواجز وفتح الأسواق والجامعات والخبرات والعمالة بين الأقطار العربية غدت قضية حيوية تفرضها المتغيرات الدولية ومتطلبات المصالح الوطنية والحقائق الجيوسياسية أكثر من مجرد قضية قومية عاطفية.

وبالإمكان طرح تساؤل آخر أكثر أهمية. أين نحن من قضايا التنمية الاقتصادية والبشرية والعلمية والثقافية؟ خاصة وأن كثيراً من المشاريع التي طرحت لدفع عجلة التنمية لم تنجح لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار القضايا الأخرى ذات الصلة بالتنمية وإن بدت بعيدة.

إن من الأمور الأساسية في قضية التنمية قدرة المجتمعات العربية على صياغة أهدافها بشكل يتوافق مع قيم العصر. فهل يمكن أن تقوم المجتمعات العربية. في ظل ظروفها الراهنة. على مثل هذه الصياغة لبرامج التنمية؟ لقد مضت سنوات وعقود طويلة من الزمن بعد استقلال العديد من الدول العربية دون أن تتضح ملامح التنمية في أي من البلدان. من الطبيعي أنّ العديد من الخطط الاقتصادية وأفكار التنمية الاجتماعية قد برزت

في أدبيات العديد من الأنظمة الحاكمة. وكذلك في أطروحات الأحزاب الحاكمة والأحزاب الأخرى خارج الحكم. لكن ما لم يحدث هو أن العديد من تلك الأطروحات الاقتصادية والاجتماعية لم تتم بلورتها من خلال مناقشات وحوارات ديمقراطية تأخذ بعين الاعتبار جميع التوجهات الفكرية يضاف إلى ذلك أن أهداف التنمية ووسائل تحقيقها لم تتم مراجعتها على ضوء تجارب عملية للاستفادة من دروس تلك التجارب والتحقق من مدى واقعية الأهداف والخطط التي تحويها.

لقد سعى العديد من الدول العربية منذ بداية عقد الستينات من القرن العشرين إلى تحقيق نظام اقتصادي موجه. أو ما أطلق عليه بعض المفكرين الاقتصاديين الذين التزموا المنهج الاشتراكي في التنمية الاقتصادية "طريق التطور اللارأسمالي". وقد اعتمد ذلك المنهج على تحميل القطاع العام أعباء التنمية بشكل رئيسي. وأنيط بذلك القطاع ملكية القطاعات الاقتصادية الرئيسة وتوفير الأموال اللازمة للمشاريع الجديدة ومشاريع التجديد والتطوير للأصول القائمة. وقد اتبعت سياسات اقتصادية وسياسية أدّت إلى تحجيم دور القطاع الخاص وتهميشه. وفي كثير من الأحيان مصادرة أمواله وأصوله في العديد من القطاعات الاقتصادية. وقد نتج عن هذا الاختيار السياسي والاقتصادي أن أصبحت هذه البلدان رهينة البيروقراطية الحكومية. وتعزز دور مؤسسات الحكم نتيجة للسطوة الاقتصادية. وأكثر من ذلك أصبح الجهاز الحكومي ومؤسسات القطاع العام هي أوعية التوظيف. وبات هم المواطن بعد تلقي العلم والتدريب البحث عن وظيفة في إحدى تلك المؤسسات.

ونتج عن هذا التطور. تزايد هيمنة القطاع العام على مختلف الأنشطة الاقتصادية. وتكريس ظاهرة الاتكالية بين المواطنين وتزايد اعتمادهم على المخصصات التي تحددها الدولة للإنفاق على كل شيء تقريباً. وأصبح الدعم المالي الحكومي من أهم مصادر الرزق لجميع فئات المجتمع في مختلف الدول العربية أبعد من ذلك. إن تكوين الثروات في الدول العربية أصبح يعتمد على التعامل مع أجهزة الدولة ومؤسساتها. ولم يعد المجهود والبذل والعطاء من الوسائل التي تساعد أصحابها للوصول إلى مستوى الثراء. بل إن الفساد والرشوة والانتفاع. في أحسن الأحوال. من أهم وسائل تكوين الثروة. وبات من الأمور الطبيعية أن يستغل كل من يستطيع مواقعه الوظيفية لتحسين أحواله المعيشية وزيادة ثروته.

لم يعد خافياً على من يتابع أخبار العالم وما وراء هذه الأخبار حرباً وسلماً - إن العلم والتقانة صارا المكونين الحقيقيين للقوى التي تشكل الوضع العالمي الجدي في هذا القرن. وصارت المجتمعات المبنية على العالم تحصد نصيب الأسد من الوضع الاقتصادي العالمي.

وطننا العربي غني بكل شيء لكنه ليس متقدماً. إذ تتوافر لديه الموارد والسلع. لكنه لا يملك قاعدة علمية وتقنية متينة لتوليد المعارف الجديدة. إن تقانة القرن الحادي والعشرين قائمة على المعرفة. وضرورة أن يدرك الشعب العربي أن العمالة الجديدة الرخيصة غير المؤهلة التي كانت تعمل في الماضي سوف لن تجد لها عملاً فعلاً في آفاق هذا القرن (الحاسوب الصغير. الهندسة الوراثية. التقنية الحيوية. تقنية المعلومات. تقنية الفمتو متناهية الصغر من حيث الزمن. وتقنية النانو متناهية الصغر من حيث الحجم).

كيف يمكن للدول النامية أن تستوعب تقنيات التحول الاقتصادي دون مؤسسة علمية قوية؟ هل العالم النامي دائماً عليه أن ينتظر عقوداً قبل المشاركة في العلم والتقانة العالمية؟ هل باستطاعة الأمم النامية أن تصبح جزءاً من العالم الحديث دون أن تفقد هويتها؟

إن القرن الحالي يعدنا بفرص غير محدودة في العالم والتقانة. واعتقد أن العالم النامي يستطيع - بل يجب عليه - أن يكون شريكاً أو جزءاً من هذا التطور. وسوف تختلف لغة الحروب كما يقول العالم العربي أحمد زويل في كتابه "عصر العلم" فجرثومة واحدة صغيرة لا ترى بالعين المجردة كافية لتغيير الجينات البشرية! أي أن الأسلحة الثقيلة قد لا يكون لها مكان في المستقبل. إنه علم مختلف. لكنه لا ينتظر أحداً. ولو لم نقطع الخطوة الأولى مبكراً فربما نتأخر كثيراً. وقد يفوتنا مشواره ونضل الطريق ونبقى في العراء.

ولعل هذه التجربة الماليزية التي قادها مهاتير محمد ومثلها التجربة الكورية تشهد أن أسطورة التقدم العلمي لا تحتاج إلى قرون بل في غضون سنوات أو عقود قليلة إن توفرت الإرادة والإخلاص في النية والعمل.

وإذا كانت لغة الحوار تبدأ من لسان الفرد. فإن اللسان ينطق معبراً عن الفكر الذي يتضمن موسوعة من الآراء والأفكار والرؤى والمعارف والمعلومات التي تستلهم مفرداتها مما قرأه الفرد وسمعه وشاهده. وهذه الأخرى تستند إلى قاعدة علمية - اجتماعية - قيمية وروحية - تعبر عن حال أمة - مجتمع - حضارة. بكل ما تحويه من تعابير تفصيلية عن حال هذه الأمة أو المجتمع. لكي تعطي صفة حقيقية لهذا المكون. وبالتالي حينما يعبر الفرد عن خاصيته إنما هو تعبير عن عمومية المجتمع. انطلاقاً من مفهوم أن الفرع هو جزء من الأصل. وعليه. فإنّ أي خلل في الكل (المنظومة العلمية أو المنظومة المجتمعية) إنما ينعكس على الجزء الناطق باسمها والمعبر عن كينونتها. والعكس صحيح. فإن استقامة الأفراد أو الأجزاء إنما يصلح الكل حينما يلتئم مكوناً الكل. فالإصلاح أو القصور للفرد أو المجتمع يعطي قراءة واحدة في تحصيله النهائي. وهذا الأمر يذكرنا بالمثل الياباني: حينما يقف الفرد الياباني ويضرب ذراعه مخاطباً إياه إنك تمثل اليابان كله! فإذا كان ذراع فرد ياباني واحد يمثل بلد من ١٣٠ مليون نسمة ألا يوجد من بين ٣٠٦ ملايين عربي فرد واحد ليقول لذراعه: إنك تمثل العرب!

ويمكن أن نقف على نتيجة هذا المثل من الإحصائية الآتية التي تبين عدد الباحثين العلميين لكل مليون شخص من السكان والتي بلغت في اليابان ٥ آلاف باحث لكل مليون شخص. وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٤٣٧٤ عالماً لكل مليون شخص. وبلغت هذه النسبة في روسيا ٣٤٢٥ وفي الاتحاد الأوروبي ٢٤٣٩. وفي البرازيل ٣١٥. وفي تركيا ٣٠٠. وفي المكسيك ٢١٧. وفي جنوب أفريقيا ١٩٢. أما في وطننا العربي الكبير فقد بلغت النسبة ١٣٦ باحثاً لكل مليون شخص عربي. وهي أدنى النسب حتى على مستوى الدول النامية[٢٤].

ومن جانب آخر فإن ما ينفق على الجامعات العربية كلها لا يساوي سوى ما تحصل عليه جامعة بركلي من ولاية أريزونا الأمريكية. أما نسبة الإنفاق على الطالب العربي تقدر بـ ٢٥٠٠ دولار أمريكي مقابل ٤٥٠٠٠ دولار ينفق على الطالب السويسري.

وتأسيساً على ذلك. فإنه لا مناص لجامعاتنا ومجتمعاتنا العربية دون الرجوع إلى العقل والحكمة والبصيرة لمراجعة الذات أولاً لغرض تحديد المرتبة التي تقف عليها أمتنا اليوم والمرتبة

التي تحتلها غدا. في عالم مرتبك سريع متلاطم لا يعرف أحداً سوى الذي يعرف نفسه له بالقيمة والعلم والعمل. ولكي نحدد موقفنا حول ما قيل لأبي تمام. لماذا لا تقول ما يفهم ؟ قال لم لا يفهم ما أقول؟ فهل نحن الذين لا يفهمنا الآخرون. أم نحن لا نفهم الآخرين؟

ثمة مسألة مهمة. وهي ضرورة أن ندرك أن للجامعة دور فيما يعرف بقضايا الصالح العام. وقيم التماسك الاجتماعي. والوحدة الوطنية. والعروة الوثقى في الانتماء القومي العربي. وليس كما وقر في أذهان المسؤولين والرأي العام إن التعليم الجامعي مطلب فردي في المقام الأول. وإن هدفه رفع مستوى معيشة الفرد. وتحسين دخله. وترقية وضعه الاجتماعي. وهذا حق. لكنه لا يتوقف عند هذا الحد. ويرتبط بهذا الفهم السوقي المزيف. إن التعليم نشاط فني محايد. مع أنه بالضرورة نشاط سياسي. كما إن السياسة نشاط تعليمي وإن عليه طلباً مجتمعياً في تواصل مسيرة المجتمع عبر أجياله.

إذن نحن العرب يجب علينا امتلاك الجرأة بالتصريح في أن مشكلتنا تكمن في هويتنا تحديداً وفي طرائق تفكيرنا وحكمنا على الأمور. لماذا مثلا نهاجم الشركات متعددة الجنسية التي تلزمها قطاعاتنا الحيوية. على الرغم من أننا أثبتنا للمجتمع غير مرة أننا غير قادرين على إدارة مصادرة الطاقة في بلداننا العربية كما ينبغي! لماذا نرفض قدومها وفي الوقت عينه لا نحرك ساكنا باتجاه تطوير طاقاتنا وإمكانياتنا. لماذا نهاجم العولمة في الوقت الذي نبيح لها استخدام ساحتنا العربية؟ علينا أن نصل إلى رأي موحد حول العولمة أو حوار الحضارات. أو موقفنا العام من العالم الجديد؟ لكن هذا الرأي سيكون متأخراً. لأننا لن نجد سلطة سياسية وطنية - قومية حرة! أو اقتصاداً وطنياً متماسكاً غير مرهون. أو مجتمعنا لا يزال يحمل في طياته صورة جميلة عن إكرام الضيف والجار. وتقدير المرأة. واحترام الآخر. والحفاظ على الحقوق.

وعلينا أيضاً طرح التساؤل الآتي: أين نحن من تنمية قدراتنا التقانية والعلمية؟إذ إن قضية تنمية القدرات التقانية الوطنية عنصراً رئيساً من عناصر أي تنمية شاملة. فمن دون توفر البشر المدربين القادرين الذين تضمهم مؤسسات تقانية مترابطة في حلقات متصلة في تنسيق وتكامل. ليس بالإمكان حدوث أي ارتقاء حقيقي. ولا شك في أن الموارد البشرية للدولة تشكل أهم العناصر وأكثرها تعقيداً في عملية التنمية. وفي رأينا إن كفاءة تخطيط أداء الأطر البشرية المشتركة وتنظيمه وتدريبه وتطويره في تنفيذ خطة التنمية هي الأساس لما نعنيه بالاعتماد على النفس.

يعاني العديد من الأقطار العربية نقصاً حاداً في القدرات العلمية والتقنية[٦٦]. وهذا واضح من الاعتماد الكبير على المصادر الأجنبية في تلبية الاحتياجات التقانية. الأمر الذي أدى وفي أغلب الأحيان. إلى تكريس التبعية التقانية وتقليص دور القدرات الوطنية وتحجيم جهود تنميتها. ومما لا شك فيه أن الاعتماد على النفس هدف رئيسي تسعى لتحقيقه جميع أقطار الوطن العربي. لتحقيق التحول التقاني والعلمي الناجح. وهذا يتطلب بدوره إعطاء قدر كبير من الدعم لتطوير القدرة التقانية الوطنية. والإقلال من الاعتماد على المعطيات التقانية والعلمية الخارجية.

الحواشي

١. مصطفى المرابط. الندوة الدولية: إشكالية التواصل الحضاري بين الشرق والغرب. وجدة. ١٨-١٩ آذار/ مارس ١٩٩٨.

٢. محمد عابد الجابري. الندوة الدولية: إشكالية التواصل الحضاري بين الشرق والغرب. وجدة. ١٨-١٩ آذار/ مارس ١٩٩٨.

٣. سورة طه. الآية: ٦٠.

٤. سورة طه. الآية: ٧١.

٥. العفيف الأخضر. مراهنة على ضبط تلاقح الثقافات والحضارة. صحيفة الزمان. العدد ٣٢٨ في ١٩ حزيران ٢٠٠٢.

٦. مصطفى النشار. العقلية العربية بين إنتاج العلم واستيراد الثقافة. المستقبل العربي. العدد ٢٠٠. تشرين الأول. ١٩٩٥. ص ١٢١.

٧. أنور ياسين. جامعة القاهرة ومسيرة قرن. مجلة العربي. العدد ٤٨٦. أيار / مايو. ١٩٩٩. ص ٤٥.

٨. سليمان إبراهيم العسكري. مثلث عربي بلا أضلاع. مجلة العربي. العدد ٥٦٦. كانون الثاني / يناير. ٢٠٠٦. ص ٨

٩. المرجع السابق: ١٠.

١٠. التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٥. ص ٢٦.

١١. مصطفى النشار. مرجع سابق ص ١٢٠

١٢. هاشم صالح. هل حوار الحضارات ممكن وكيف. صحيفة الرأي. العدد ٢٣. تموز. ٢٠٠٧.

13. Bey " Multi culturalism in a Global Village " 1992. p 369.

١٤. سليمان إبراهيم العسكري. في مأزق الثقافة العربية الراهنة: تأجيل الآمال وتعجيل المخاوف. مجلة العربي. العدد ٥٣٨. أيلول / سبتمبر ٢٠٠٣. ص ٨.

١٥. فهمي هويدي. انتفاضة ثقافية. الأهرام. في ٣/٣/ ١٩٩٣.

١٦. عوني فرسخ. جدلية الوحدة والتجزئة تاريخياً وفي الواقع العربي المعاصر. المستقبل العربي. العدد ٢٣٦. تشرين الأول. ١٩٩٨. ص ٥٧.

١٧. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. استراتيجية تطوير التربية العربية. تقرير لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية. تونس ١٩٧٩. ص ٣٢٧.

١٨. محمد ناصر. التنسيق بين الجامعات العربية لتطوير الدراسات العليا والبحث العلمي. المستقبل العربي. العدد ١٤٢. كانون الثاني ١٩٩٠. ص ٣٢.

١٩. مصطفى محمد العبد الله الكفري. تقرير عن المؤتمر السنوي الثالث للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية (نحو مشروع للنهضة العربية في القرن الحادي والعشرين) الذي عقد في بيروت للفترة ٢٨-٢٩ أيار/ مايو ١٩٩٨. المستقبل العربي. العدد ٢٣. تشرين الأول. ١٩٩٨. ص ١٦٨.

٢٠. عن هذا الموضوع يمكن مراجعة: هشام شرابي. النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٠.

٢١. طاهر المصري. نحو بناء نظام عربي جديد في عالم متغير. المستقبل العربي. العدد ٢٣٢. تموز. ١٩٩٨. ص ٨-٩.

٢٢. بهاء بدري العزاوي. مخططات تغير الخارطة السياسية للوطن العربي في نهاية القرن العشرين. مجلة دراسات الشرق الأوسط. العدد الرابع. كانون الأول/ديسمبر/ ١٩٩٧. ص ٢٢٨.

23. Youshinaru Ilima Falk culture and the Limitability of children current Anthropology vo 128 No 4 Chicago 1987 p-19.

٢٤. محمد دياب. النظام العالمي الجديد سمات المرحلة الراهنة. مجلة العربي. العدد ٤٣٣. كانون الأول/ ديسمبر. ١٩٩٤. ص ٣٠.

٢٥. منتديات المنشاوي. الدراسات والبحوث. الدراسات العليا والمذكرات الجامعية. للزيادة في الاطلاع انظر: www.minshawi.com

صالح خليل الحاج إبراهيم. دور العلم والتقنية في بناء المجتمع العربي. ورقة قدمت إلى ندوة تقييم نمو العلاقات بين العلم والتكنولوجيا، والمجتمع في الدول العربية. مركز البحوث العلمية والتطبيقية. جامعة قطر. ١-٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦. ص٢٣٨ - ٢٤٥.

أثر سيبويه (ت ١٨٠هـ) في كتاب الإغفال لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)

د. حليم حماد سليمان
جامعة الأنبار - العراق

مما لا شك فيه أنّ سيبويه هو إمام النحاة، وأنّ مؤلَّفه المعروف بـ(الكتاب) أوّل كتاب نحوي قد وصل إلينا؛ إذ جمع فيه كثيراً من علوم العربية من صوت وصرف ونحو ودلالة، ولذلك لا تكاد تجد مؤلَّفاً في النحو واللغة إلّا ويعتمد عليه وهذه سنة متبعة تتمثل في تأثر اللاحق بالسابق وربما يزيد عليه.

إنّ المطّلع على كتاب الإغفال يجد تأثر أبي علي الفارسي الواضح بكتاب سيبويه. وربما يعود ذلك إلى أسباب أهمها:

١ - الفارسية التي جمعت سيبويه وأبا علي: إذ إنّ الأول ولد في البيضاء. والأخير ولد في مدينة (فسا) وكلتاهما تقعان في بلاد فارس.

٢ - دراسته العميقة لكتاب سيبويه. الأمر الذي جعل أبا حيان التوحيدي (ت٤١٢هـ) يقول في أبي علي وكتاب سيبويه: "وأمّا أبو عليٍّ فأشدُّ تفرداً بالكتاب. وأشدُّ إكباباً عليه..."[١].

٣ - المكانة الكبيرة التي يتمتع بها كتاب سيبويه عند علماء العربية. إذ مدحه الكثير من العلماء. يقول المبرد (ت٢٨٥هـ) لأحد تلاميذه: هل ركبت البحر؟ يعني كتاب سيبويه: تعظيماً لما فيه..."[٢].

٤ - أمّا ملامح تأثر أبي علي بالكتاب فيمكن أن نوجزها بالأمور الآتية:

١ - استخدام عبارات تدل بوضوح على نهاية النقل من الكتاب، مثل: انتهى كلام سيبويه[٣]. وانقضى كلامه[٤]. وهذا الأمر يؤكد أهمية عنايته بكلام سيبويه حتى لا يحصل خلطٌ بينه وبين كلام غيره.

٢ - بيان عدم دقة الزجاج (ت٣١١هـ) في النقل عن سيبويه. فقد قال أبو إسحاق الزجاج: قال سيبويه: سألت الخليل عن هذا الاسم فقال: الأصل فيه إلاهٌ. فأُدخلت الألف واللام

بدلاً من الهمزة...". قال أبو علي معلقاً على قول الزجاج: "ما حكاه عن سيبويه عن الخليل سهوٌ. ولم يحك سيبويه عن الخليل في هذا الاسم أنّه (إلاهٌ). ولا قال: إنّه سأله عنه. لكن قال: إن الألف واللام بدل من الهمزة. في حد النداء المترجم بـ(هذا) ما ينتصب على المدح أو التعظيم أو الشتم: لأنه لا يكون وصفاً للأوّل. ولا عطفاً عليه.

٣ - الجزم بصحة مذهب سيبويه. وترجيحه على سائر الآراء الأخرى. فعند ذكره اختلاف العلماء في أصل كلمة (النبي). إذ ذكر سيبويه أن (النبي) أصل لامه الهمز. لذلك فإنها مأخوذة من (النبأ). وقال غيره: أنها مأخوذة من النَّبَوَة قال: "وهذا الذي أذهب إليه في أنّ (النبي) أصل لامه الهمز مذهب سيبويه". وهو الصحيح الذي لا يجوز غيره". إذ إنّ عبارة (وهو الصحيح الذي لا يجوز غيره) تؤكد بجلاء تمسكه برأي سيبويه.

وعلى الرغم من دفاعه عن سيبويه. والسير على خطاه. إلاّ أننا نجده مخالفاً له بعض الشيء. فعند وقوفه على قوله تعالى: ﴿أيعدُكُمْ أنكُمْ إذا متُّمْ وكُنتُمْ ترابًا وعظامًا أنكم مُخْرجُون﴾. ذكر آراء عدّة في (أنّ) الثانية منها:

١ - أنّ (أنّ) الثانية بدل من الأولى. وهذا مذهب سيبويه.

٢ - أنّها مكررة للتأكيد. وهذا مذهب الجرمي وأبي العباس المبرد.

٣ - أنّها مرتفعة بالظرف. وهذا مذهب الأخفش (ت٢١٥هـ) ثم قال معلقاً عليها: "ولا يجوز أنْ تُبدَل (أنّ) الثانية من قوله: ﴿أيعدُكُمْ أنكُمْ﴾ من الأولى: لأنّ صلة الأولى لم تتمَّ. وإنما تُتمّ اسماً إذا استوفت صلتها تامة. وصلتها تكون اسماً - كان مبتدأ قبل دخولها عليه - مع خبره". وفي هذا النص نجد أنّ أبا علي لم يأخذ برأي سيبويه الذي ذهب إلى أنّ (أنّ) الثانية بدل من الأولى في قوله تعالى: ﴿أيعدُكُمْ أنّكُمْ إذا متُّمْ وكُنتُمْ ترابًا وعظامًا أنّكم مُخْرجُون﴾. والرأي الصحيح عنده هو رأي المبرد إذ قال عنه: "وهذا أحسن الأقاويل عندي في هذه الآية". أمّا عن تأثر أبي علي بسيبويه فنجده في الجوانب الآتية:

أولا: الجانب الصوتي:

اعتمد أبو علي على سيبويه بكثرة في موضوع الإمالة. ويمكن أن نلمس ذلك في الأمور الآتية:

١ - إمالة الاسم في اسم (الله) عز وجل:

من المعروف أنّ الإمالة هي أنْ تنحو بالفتحة نحو الكسرة. فتميل الألف التي بعدها نحو الياء. بسبب التجانس الصوتي. أما ما يخص الإمالة في الألف في اسم (الله) عز وجل. فقد قال أبو علي: "فأمّا الإمالة في الألف من اسم (الله) تعالى فجائز في قياس العربية. والدليل على جوازها فيه أنّ هذه الألف لا تخلو من أنْ تكون زائدة لـ(فِعال) كالتي في (إزار) و(عماد). أو تكون عين الفعل. فإنْ كانت زائدةً لـ(فِعال) جازت فيها الإمالة من جهتين:

إحداهما أنّ الهمزة المحذوفة كانت مكسورة. وكسرها يوجب الإمالة في الألف. كما أنّ الكسرة في (عِماد) توجب إمالة ألفه. فإنْ قلتَ: كيف تمال الألف من أجل الكسرة وهي محذوفة؟ فالقول فيها: إنّها وإنْ كانت محذوفةً مُوجِبةٌ للإمالة. كما كانت

توجبها قبل الحذف: لأنها وإنْ كانت محذوفة فهي من الكلمة. ونظير ذلك ما حكاه سيبويه من أنّ بعضهم يُميل الألف في (مَادًّ) و(شادًّ)[18] للكسرة المنويّة في عين (فاعِل) المدغمة. قال:" ومنهم من يقول: هذا ماشٍ فيميل الألفَ في الوقف وإنْ لم يمكن في لفظه بالكلمة كسرة"[19]. فكذلك في اسم (الله) عز وجل يجوز إمالتها وإن لم تكن الكسرة ملفوظاً بها. ويجوز إمالتها من جهة أخرى. وهي أنّ لام الفعل منجرّةٌ. فتجوز الإمالة: لانجرارها. قال سيبويه:" سمعناهم يقولون: مِنْ أهْلِ عادٍ. ومررت بِعَجْلانِك. فأمالوا"[20]. فكذلك أيضاً تجوز الإمالة في الألف من اسم الله..."[21].

٢ - منع إمالة اسم الفاعل المضعف المختوم بالراء:

قال أبو علي:" فهل تجوز الإمالة في: هذا فارٌّ وبارٌّ. ورأيت فارّاً وبارّاً. كما أمال قوم على كل حال: هذا جادٌّ؟ فإنّ ذلك في الراء لا يجوز. قال سيبويه: " مَنْ قال: هذا جادٌّ لم يَقُل: هذا فارٌّ. لقوّة الرّاء هنا"[22]. فأما إمالة الألف في هذا النحو في حال الجرّ نحو (مررتُ بفارٍّ) و (ابْتني بمارٍّ) فجيّدٌ حسنٌ لا يدفعه شيٌ ولا يرده..."[23]. والذي يمكن ملاحظته مما سبق أنّه يجوز إمالة اسم الفاعل المضعف إذا كان مختوماً بالراء. وذلك في حالة الجر. كقولنا: مررتُ بفارٍّ. أما في حالتي الرفع والنصب فلا يجوز ذلك كقولنا: هذا فارٌّ ورأيتُ فارّاً. والسبب في ذلك أنَ صوت الراء المكسورة يبدو كأنه حرفان مكسوران.

٣ - منع إمالة المستعلي إنْ كان لاماً والعين راءً:

إنّ الحروف المستعلية في اللغة هي الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء، والمراد بمصطلح الاستعلاء هو أنَ تتصعد في الحنك الأعلى[24].

وقد ذكر أبو علي أن المستعلي إذا كان لاماً وعينه راءً. نحو مارِق وفارِق فإنّ الإمالة حينئذ لا تجوز: لأنّ في الإمالة هنا إصعاداً بعد الانحدار. فهو عكس طارد وبابه[25]. وذكر أنّ سيبويه قال:"تقول: ناقةٌ فارِقٌ. وأنيق مَفَارِيق فتنصب. كما فعلت ذلك حيث قلت: ناعِقٌ ومنافِقٌ ومناشِطٌ"[26].

والذي يبدو لي أنّ سبب عدم الإمالة في المستعلي إذا كان لاماً وعينه راءً هو: لكونها حروفاً مستعلية إلى الحنك الأعلى. والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى. فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها في مساجد.

ثانيا: الجانب الصرفي: وفيها مسائل عدة منها:

١ - حذف الهمزة في مضارع (أَفْعَل):

ذكر أبو علي[27] أنّ همزة أفْعَلَ تحذف في المضارع. نحو: أكْرَمَ – يُكْرِمُ. وسبب الحذف هو كراهية اجتماع الهمزتين كما ذكر ذلك سيبويه[28]. وهذا الحذف إنّما يكون في مضارع(أَفْعَلَ) عندما يكون الفعل المضارع للمتكلم. وقالوا (أُكْرِمُ) في مضارع (أَكْرَمَ) والأصل في مضارعه (أُؤَكْرِمُ). فحذفوا همزة القطع الزائدة. لثقلها عند اجتماعها مع همزة المتكلم في المضارعة.

٢ - الوزن الصرفي لـ (معيشة):

ذكر أبو علي[29] أنّ العين في (مَعِيْشَة) هي ياء من الفعل عند الخليل (ت١٧٥هـ) وسيبويه. يصلح أنْ يكون مَفْعُلَة. وأنْ يكون (مَفْعِلَة)[30]. ففي الأول تكون (مَعْيُشَة): إذ نقلت الضمة إلى العين فانضمت وبعدها ياء ساكنة. فأبدلت كسرة لتسلم بعدها الياء فصارت (مَعِيْشَة). وأمّا على وزن

(مَفْعِلَة) فتكون (مَعيشَة): إذ نقلت كسرة العين فقط.

والذي أراه أكثر صحة ما ذهب إليه أبو بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ) من أنّ أصلها مَعيشَة وتقديرها مَفْعِلَة والياء متحركة أصليّة. لذلك لا تنقلب في الجَمع همزة. وفضلاً عن هذا فإنّ الوزن الأول يحتاج إلى خطوات أكثر منه في الوزن الثاني.

٣ - الجموع: ومن أهم المسائل التي تأثر بها أبو علي بسيبويه فيما يخص الجموع هي:

أ - جمع القلة والكثرة:

قال أبو علي في جمع إناء: "وذكر سيبويه في جمعه القليل: آنِيَة. كإزار وأزِرَة. وجمعه الكثير: أوانٍ..."

إنّ أصل كلمة (آنية): أأْنِيَة بهمزتين ثانيتهما ساكنة. خففت وتحولت إلى مد فأصبحت (آنية) وزنتها أَفْعِلَة: إذ إنّ هذا الوزن يطرد في الاسم المذكر الرباعي قبل آخره حرف مد. وأمّا (أوانٍ) فإن وزنها أفاعل: إذ إنّها تطرد في مزيد الثلاثي بحرف واحد.

ب - إجراء التثنية مجرى الجمع:

ذكر أبو علي أنّ التثنية قد تجري مجرى الجمع. كقوله تعالى: ﴿فقدْ صغتْ قلوبُكما﴾. ثم ذكر أنّ هذا يكون أيضاً فيما كان شيئين منفردين نحو ما حكاه سيبويه عن يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) في قوله: (وَضَعَا رِحالَهُما). و(وهم غِلْمَانُهُمَا) وهم يريدون غلامين. ورَحْلَي راحلتين.

ثالثاً: الجانب النحوي:

١ - حذف نون (لدن):

ذكر أبو علي مسائل في الحذف منها حذف النون من (لدن) كقولنا: من لدُ الصلاة ومن لدُ شَوَلا...". فإذا أُضمِرَ رُدَّ إلى الأصل فقيل: من لدُنه قال تعالى: ﴿من لَدُنْه ويُبشّر المُؤمنين﴾. فرُدَّ في الإضمارَ المحذوفُ في حال الإظهار. وكذلك قال سيبويه. ومنهم من ذكر في لدن ثلاث لغات هي: لَدُنْ ولَدَى ولَدُ.

٢ - إضمار اسم (أنْ) المفتوحة المخففة:

من المعروف لدى النحاة أنه إذا خففت (أنّ) بقيت على ما كان لها من العمل. شريطة أن يكون اسمها ضمير الشأن محذوفاً. وخبرها لا يكون إلا جملة. نحو علمتُ أنْ زيدٌ قائمٌ.

وقد ذهب أبو علي مذهب سيبويه في أنه لا بد من إضمار اسم (أنْ) المفتوحة المخففة إذ قال: "ويذهب سيبويه إلى (أنّ) المفتوحة إذا خُفِّفَتْ أضمر معها القصة والحديث ولم يظهر في موضع..."

٣ - مجيء الواو لمطلق الجمع:

اختلف النحاة في مجيء (واو العطف) لمطلق الجمع أو للترتيب. فالبصريون يرونها لمطلق الجمع. فإذا قلت: (جاء زيد وعمرو) دلّ ذلك على اجتماعهما في نسبة المجيء إليهما. واحتمل كون (عمرو) جاء بعد (زيد) أو جاء قبله أو جاء مصاحباً له. وإنما يتبين ذلك بالقرنية. نحو: جاء زيدٌ وعمرو بعده. وجاء زيد وعمرو قبله. وجاء زيدٌ وعمرو معه. ومذهب الكوفيين: أنها للترتيب. ولكنه مردود بقوله تعالى: ﴿إنْ هي إلاّ حياتنا الدُّنيا نموتُ ونحيا﴾.

وقد ذكر أبو علي الفارسي نقلاً عن سيبويه أنّ: "الواو التي في قولك: (مررتُ بعمرو وزيد) إنمّا جئت بها. لتضمَّ الآخرَ إلى الأول وتجمعهما. وليس فيه دليل على أنّ أحدهما قبل الآخر". والذي

يبدو لي مما جاء به النحاة أنّ الواو العاطفة تفيد الجمع المطلق دون تحديد وإنما يتضح ذلك من خلال القرينة التي تأتي في السياق.

٤ - إعمال (إذن) إذ فُصلت عن الفعل بالقسم:

ذكر النحاة شروطاً لإعمال (إذن)[٥٠]، وهي:

١ - أن تكون مُصدَّرة، فتكون غير عاملة. نحو قولك: أنا إذنْ أكرمُك.

٢ - أن يكون الفعل بعدها دالاً على الاستقبال، فلو حدّثك شخص بحديث فقلت له (إذن تصدقُ) رفعتَ: لأن نواصب الفعل تقتضي الاستقبال وأنت تريد الحال، فتدافعا.

٣ - أن يكون الفعل إما متصلاً أو منفصلاً بالقسم أو بلا النافية. فالأول كقولك: (إذن أكرِمَك). والثاني نحو (إذن والله أكرمَك). والثالث نحو: (إذن لا أفعلَ). وقد ذكر أبو علي أن (إذن) تكون عاملة إذا فصل بينها وبين الفعل بالقسم إذ قال: " وأيضاً فإنه يَفصِل بين (إذن) والفعل إذا نُصبَ. نحو ما حكاه سيبويه من قولهم: "إذنْ واللهِ آتيَكَ"[٥١].

٥ - تركيب (لن):

ذهب الخليل في أحد قوليه: أنّ أصلها (لا أنْ، وكان يقول: إنها (لا أن. ولكنهم حذفوا لكثرته في كلامهم. كما قالوا: وِيلمّه. يريدون: وي لأمه. وكما قالوا: يومئذ. وجُعلت بمنزلة حرف واحد)[٥٢].

فالذي نلاحظه أن الأداة (لن) قد مرت بمرحلتين حتى وصلت إلى ما عليه اللفظة. فالمرحلة الأولى تمثلت بحذف همزة (أن). والأخرى: اتصال اللام بالنون مباشرة بعد حذف الألف من (لا): لالتقاء الساكنين. فصارت (لن).

أما سيبويه فقد ذهب إلى أنها مفردة غير مركبة. فقد كان يرد على الخليل بأنه (لو كانت - يعني لن - على ما يقول الخليل لما قلت: أمّا زيداً فلن أضربَ. لأن هذا اسم والفعل صلة له. فكأنه قال: أمّا زيداً فلا الضرب له)[٥٣].

وقد قال أبو علي نقلا عن سيبويه في (لن): (أمّا الخليل فزعم أنها (لا أنْ). ولكنّهم حذفوا لكثرته في كلامهم. كما قالوا: ويْلُمُّه. وكما قالوا: يومئذ وحينئذٍ وجُعلت بمنزلة حرف واحد...)[٥٤].

والراجح عندي ما ذهب إليه الدكتور مهدي المخزومي مؤيداً في ذلك مذهب الخليل. إذ قال: "والذي أوقع سيبويه في مثل ما وقع فيه أنه لم يفهم وجهة نظر الخليل في ذلك. ولم يدرك أنّ الخليل لم يفته مثل ما ظن أنّه استدركه عليه. فإنّ الخليل كان يرى أن الكلمتين (إذا ركبتا. ولكل منهما معنى وحكم صار لهما بالتركيب حكم جديد). فلم يعد لـ(أن) المركبة مع (لا) حكمها الأول. وصار لها بعد التركيب استعمال جديد وحكم جديد. ولذلك لم يعد لاعتراض سيبويه مكان)[٥٥].

٦ - زيادة (ما) في لاسيما:

ذكر العلماء حكم الاسم الواقع بعد لاسيما[٥٦]. وهو إمّا أن يكون مجروراً أو مرفوعاً. كما ذكر سيبويه تقول: "أحبُّ العلماء ولاسيّما محمود أو ولاسيّما محمودٌ" ففي حالة الجر تكون (ما) زائدة مؤكدة بين المضاف والمضاف إليه. فالمضاف هو (سي) والمضاف إليه هو محمود. وفي حالة الرفع تكون (ما) موصولة أو نكرة موصوفة والتقدير: ولا مثل الذي هو محمود أو لا مثل شخص هو محمود. وعند كلام أبي علي على الحروف الزائدة قال: "فرُب زائد لازمٌ حتى يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف. ومثل ذلك (من) في ﴿**كأيِّنْ منْ قرْية**﴾[٥٧]. و(ما) في (سيّما) عند الأكثر فيما حكاه سيبويه"[٥٨]. والذي يراه الباحث أنّ زيادة (ما) في (لاسيما) كما ذهب إليه سيبويه هي لازمة

إذ قال: "فربَّ توكيدٍ لازمٌ حتى يصير كأنه من الكلمة"[٤٩].

٧ - دلالة الفعل المضارع على المضي:

ذكر الدكتور فاضل السامرائي[٥٠] المواضع التي يدل فيها الفعل المضارع على المضي وهي:

أ) إذا اقترن بـ (لم) أو (لما).

ب) إذا دخلت عليه (لو) الشرطية.

ج) إذا دخلت عليه (إذ).

د) إذا دخلت عليه (قد) التقليلية.

هـ) إذا دخلت عليه (ربما).

و) إذا وقع المضارع حالاً عامله فعل ماضٍ.

ز) حكاية الحال الماضية.

وقد ذكر أبو علي الفارسي هذا الأمر إذ قال: "قال سيبويه: وقد يقع (نَفْعَلُ) في موضع (فَعَلْنا) في بعض المواضع. ومثل ذلك قول رجلٍ من سلول[٥١].

ولقد أمرُّ على اللئيم يسُبُّني
فمضيتُ ثُمّت قلتُ لا يعنيني

قال[٥٢]: "وأسير بمعنى سرْتُ إذا أردتَ بـ(أسيرُ) معنى (سرتُ)". وقال في موضع آخر[٥٣]: "يجوز أن يُجعَلَ (أفعلُ) في موضع (فعلتُ). ولا يجوز (فعلتُ) في موضع (أفعلُ) إلا في مجازاة نحو: (إن فعلتَ فعلتُ)"[٥٤].

٨ - امتناع مناداة الاسم المعرَّف بـ(أل):

حصل خلاف بين النحاة في هذه المسألة. فقد جوّز الكوفيون مناداة الاسم المعرّف بـ(أل) مباشرة. محتجين بكلام العرب من شعر ونثر. فمن الشعر قول الراجز:

فيا الغلامان اللذان فرّا
إياكما أن تُكسبانا شرّا[٥٥]

وقول العرب: (يا الله اغفر لي).

أما البصريون فقد منعوا ذلك محتجين بعدم جواز اجتماع مُعرِّفين على مُعرَّف واحد. رادّين شواهد الكوفيين. إذ حملوا قول الراجز على ضرورة الشعر. والتقدير عندهم: يا أيها الغلامان. فحذف المنادى الموصوف (أي). وأقيمت الصفة (الغلامان) مقامه لإقامة الوزن.

أمّا قول العرب. فقد ردّوا عليها من ثلاثة أوجه[٥٦]:

الأول: إن الألف واللام في لفظ الجلالة (الله) ليست للتعريف. لأنّ اسمه عز وجل لم يكن نكرة ثم تعرّف بها. إذ إن اللام فيه عوض من فاء الاسم المحذوفة: لأنّ أصله (إله). حذفت فاؤه. وجيء بالألف واللام للتعويض. وأدغمت اللام بالام.

والثاني: كثرة استعمال الاسم الشريف. وخفّته. فلا يقاس عليه غيره من الأسماء.

والثالث: عدم اشتقاق الاسم الشريف من غيره. فهو كسائر أسماء الأعلام المرتجلة من غير أصل يُرد إليه. لذلك جاز دخول حرف النداء عليه.

فقد ذكر أبو علي قول سيبويه في نداء الاسم الموصول (الذي) إذ قال: "لو سمّيت رجلاً (الذي رأيته) لم يجز نداؤه. كما أنك لو سمّيت بالرجل والرجلين. لم يجز نداؤه"[٥٧].

والذي يمكن أن نلتمسه مما ذكره العلماء في هذه المسألة ما يأتي:

أ - يتوصل إلى نداء المعرّف بـ (أل) إمّا بـ(أيّ) نحو: يا أيّها الرجل. أو باسم الإشارة نحو: يا هذا الرجل.

ب - إن الأدلة التي جاء بها الكوفيون مردودة وغير مقنعة. فالدليل الذي هو من الرجز لم يكن سائغاً من حيث الاستعمال اللغوي. فضلاً عن التكلف في الكلام من خلال مناداة الاسم المعرّف بالألف واللام هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ الدليل على مناداة لفظ الجلالة (الله) فيه نوع من عدم فهم كلام العرب. بل فيه تجرؤ على اسم الله عز وجل. إذ كيف يوصف هذا الاسم المبارك بأنه نكرة ثم عُرّف. لذلك فإنّ (أل) التعريف أصلية فيه.

ج - إنّ ما جاء به البصريون هو انطلاق من واقع الاستعمال اللغوي الواسع الذي لا يهتم البتة بالمسموع النادر.

٩ - ما ينوب عن المصدر:

من الأمور التي تنوب عن المصدر. ما يدل عليه نحو: كل وبعض. مضافين إلى المصدر. والمصدر المرادف لمصدر الفعل المذكور. واسم الإشارة. وضميره. وعدده والآلة. ومن الأمور التي ذكرها أبو علي متأثراً بسيبويه هو إنابة اسم الإشارة مناب المصدر. قال أبو علي نقلاً عن سيبويه: "ذاك في قولهم: (ظننت ذاك) هو: الظن. كأنك قلت: ظننتُ ذاك الظن..."[٦٨].

والذي يبدو لي مما ذكره النحاة في هذا الأمر هو إن ما ينوب عن المفعول المطلق من اسم الإشارة وغيره يندرج تحت المفعول المطلق المبين للنوع. فضلاً عن ذلك أن اسم الإشارة (ذاك) له دلالة واضحة على الظن. وعدم الوصف به.

١٠ - بناء (أيُهم) على الضم:

إن (أيّاً) لها أربعة أحوال[٦٩]:

أحدها: أن تكون مضافة. وصدر صلتها مذكوراً. نحو (يُعجبني أيُهم هو قائم).

الثاني: أن تكون غير مضافة. وصدر صلتها غير مذكور. نحو: (يعجبني أيٌّ قائمٌ).

الثالث: أن تكون غير مضافة. وصدر صلتها مذكوراً. نحو: (يعجبني أيٌّ هو قائم). وفي هذه الأحوال الثلاثة تكون معربة بالحركات الثلاث حسب العامل.

الرابع: أن تكون مضافة وصدر صلتها غير مذكورة. نحو: (يعجبني أيُّهم قائمٌ). ففي هذه الحالة تبنى على الضم مهما كان العامل. وقد ذكر أبو علي الحالة الرابعة. إذ قال نقلاً عن سيبويه ((أنها مبنية على الضم. لأنها خالفت أخواتها. واستُعمل معها حذف الابتداء. تقول: اضربْ أيُّهم أفضلُ. تريد: أيُّهم هو أفضل...))[٧٠].

١١ - أنّ بمعنى لعلّ:

ذكر أبو علي الفارسي أنّ (أنّ) تأتي بمعنى (لعل). عند شرحه قوله تعالى: ﴿وما يُشعِرُكم أنها إذا جاءتْ لا يُؤمنون﴾[٧١]. إذ قال: وزعم سيبويه عن الخليل أنّ معناها: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وهي قراءة أهل المدينة[٧٢]. قال الخليل: هذا كقولهم: ائت السوقَ أنّك تشتري لنا شيئاً أي: لعلّك تشتري لنا شيئاً[٧٣].

١٢ - دعا بمعنى سَمّى:

ردّ أبو علي على أبي إسحاق الزجاج الذي قال بعدم جواز أن يكون (دعا) بمعنى (سمّى) بقوله: ("فإن قلت: كيف امتنع وقد أجازه سيبويه. فقال: "تقول: دعوتُه زيداً إذا أردتَ معنى سَمَّيْتُه. فتعدّيه إلى مفعولين. فإن أردت الدعاء إلى أمر لم يجاوز مفعولاً واحداً"[٧٤]. فكيف لم يُجز أن يكون (دعوتُه) في الآية بمعنى سمّيته؟)[٧٥].

وقد ذهب الزمخشري[٧٦] (ت٥٣٨هـ) ووافقه على ذلك السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)[٧٧].

إلى أن الفعل (دعا) في قوله تعالى: ﴿أن دعوا للرحمن ولدا﴾[78]. يجوز أن يكون بمعنى (سمى) فيتعدى لمفعولين فيكون المفعول الأول في هذه الآية المباركة محذوفاً. واستدل على ذلك بقول الشاعر[79]:

دعتني أخاها أمُّ عمرو ولم أكن
أخاها ولم أرضع لها بلبان
دعتني أخاها بعد ما كان بيننا
من الفعل ما لا يفعل الأخوان

وجوّز أن يتعدى لواحد فقط إنْ كان بمعنى (نسب) الذي مطاوعه ما في قول الرسول ﷺ: (ومن ادعى إلى غير مواليه)[80]. وقول الشاعر[81]:

إنَّا بني نهشل لا ندَّعي لأب
عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

أي: لا ننتسب إليه.

وبعد الانتهاء من كتابة البحث. يمكن القول: إن تأثر أبي علي الفارسي بسيبويه كان واضحاً غاية الوضوح. إذ إنّ سيبويه مثّل اتجاهاً نحوياً ظلّ أبو علي متمسكاً به في صفحات كتابه إلا في مواضع قليلة جداً. فقد كان لسيبويه وآرائه أثرٌ واضحٌ جداً في أبي علي وكتابه. ولعلّ السبب في ذلك يعود كما ذكرنا إلى دراسة أبي علي العميقة لكتاب سيبويه. ومدح العلماء له. فضلاً عن الفارسية التي جمعت بين هذين العلمين. ومن خلال تتبعي لآراء سيبويه. وجدته يرجح رأيه على رأي غيره إلا في مواضع قليلة جداً. فضلاً عن أنه كان ينبه على الآراء التي جاءت على مذهب سيبويه. واحتكامه إلى كلام هذا العالم الفذ في ترجيح توجيهٍ على توجيه آخر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحواشي

(١) الامتاع والمؤانسة: ١/١٣١-١٣٢.

(٢) ينظر: أخبار النحويين البصريين:٣٩.

(٣) ينظر: الإغفال: ٢/١٣٥.

(٤) ينظر: نفسه:٢/١٥٢.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/١٥١-١٥٢.

(٦) الهاء في (حكاه) تعود إلى الزجاج.

(٧) ينظر: الكتاب: ٢/١٩٧. والإغفال: ١/٣٩.

(٨) ينظر: الكتاب: ٣/٢٦٠.

(٩) الإغفال: ١/٢٢٥.

(١٠) سورة المؤمنون: ٣٥.

(١١) ينظر: الإغفال: ٢/٤٥١.

(١٢) ينظر: الكتاب: ٣/١٣٢.

(١٣) ينظر: المقتضب: ٢/٣٥٤.

(١٤) ينظر: معاني القرآن للأخفش:١/١١٩.

(١٥) الإغفال: ٢/٤٥١.

(١٦) سبق تخريجها.

(١٧) الإغفال: ٢/٤٥٢.

(١٨) ينظر: الإغفال:١/٧٢.

(١٩) الإغفال: ١/٧٢.

(٢٠) الكتاب: ٤/١٢٢.

(٢١) الإغفال: ١/٧٣.

(٢٢) الكتاب: ٤/١٤٠.

(٢٣) الإغفال: ٢/١٧١.

(٢٤) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/٧١.

(٢٥) ينظر:الإغفال: ١/١٧٩.

(٢٦) الكتاب: ٤/١٣٧.

(٢٧) ينظر:الإغفال: ١/١٠٨.

(٢٨) ينظر: الكتاب: ٤/٢٧٩.

(٢٩) ينظر:الإغفال: ٢/٢٢٩.

(٣٠) ينظر: الكتاب٤/٣٤٩.

(٣١) ينظر: المنصف: ١/٢٩٦، ٢٩٧.

(٣٢) ينظر: مختار الصحاح: ٤٦٥.

(٣٣) ينظر الكتاب٣/٦٠٢.

(٣٤) الإغفال: ١/٣١٨.

(٣٥) ينظر: الكتاب ٣/٦٠١-٦٠٢. والمقتضب: ٢/٢١٢-٢١٣.

(٣٦) ينظر: الكتاب: ٣/٦٤٤.

(٣٧) ينظر.الإغفال: ١/٢٦٨.

(٣٨) سورة التحريم:٤.

(٣٩) ينظر. الكتاب: ٣/٦٢٢.

(٤٠) ينظر. نفسه: ١/٢٦٥.

(٤١) رجزٌ لم أقف على قائله. وتتمته:((مِنْ لَدُ شَوْلاً فإلى إتْلائها)). ينظر: الكتاب: ١/٢٦٤. وشرح أبيات سيبويه: ٦/٢٨٧.

(٤٢) سورة الكهف:٢.

(٤٣) ينظر: الكتاب:٢/٢٧٣.

(٤٤) ينظر: مختار الصحاح: ٥٩٦.

(٤٥) ينظر: شرح ابن عقيل:٢/١٦.

(٤٦) الإغفال ١/٦٨. و ينظر: الكتاب: ٣/١٦٣-١٦٤.

(٤٧) ينظر: شرح ابن عقيل٣/٨٥.

(٤٨) سورة المؤمنون:٣٧

(٤٩) الإغفال ١/٢٥٠. و ينظر: الكتاب. ٤/٣١٦.

(٥٠) ينظر: اللمع في العربية:٣٢٠. الغرّة المخفية:١/١٦٢.

(٥١) الإغفال: ٢/١٦٨.

(٥٢) ينظر: المقتضب: ٢/٨. والغرّة المخفية:١/١٦٢. وفي النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٧٧.

(٥٣) الكتاب: ٣/٥.

(٥٤) . الإغفال: ١/٢٣٥-٢٣٦. وينظر: الكتاب: ٣/٥.

(٥٥) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٧٧.

(٥٦) إعراب لاسيما وفوائد أخرى/ ١٤٤-١٤٥.

(٥٨) الإغفال: ١/٢٨٦. وينظر: الكتاب:٢/١٧١.

(٥٩) الكتاب:٢/١٧١.

(٦٠) ينظر: معاني النحو:٣/ ٢٨٣-٢٨٦.

(٦١) البيت في الأصمعيات: ١٢٦ منسوب إلى شمر بن عمرو الحنفي. أحد شعراء بني حنيفة باليمامة.

(٦٢) الكتاب:٢/٢٤.

(٦٣) نفسه: ٣/٥٥.

(٦٤) الإغفال ١/٣٥٥. الكتاب:٢/٢٤.

(٦٥) رجزٌ قائلة مجهول. وقد ردّ المبرد رواية البيت. فقال: "فإن إنشاده على هذا غير جائز. وإنما صوابه: فيا غلامانِ اللذانِ فرّا". المقتضب:٤/٢٤٣.

(٦٦) ينظر: الكتاب: ٢/١٩٥-١٩٦. والمقتضب: ٤/٢٤١-٢٤٣.

(٦٧) الإغفال: ١/٢٨٢. والكتاب: ٢/٣٣٢.

(٦٨) الإغفال: ١/٢٦٦. والكتاب: ١/١٢٥.

(٦٩) ينظر: شرح ابن عقيل: ١/٦٠.

(٧٠) الإغفال: ٢/٣٩٨. والكتاب: ٢/٤٠٠.

(٧١) سورة الأنعام: ١٠٩.

(٧٢) قرأها أُبَيٌّ ﴿لعلها إذا جاءتْ لا يُؤمنون﴾. ينظر: الكشاف: ٢/٤٤.

(٧٣) ينظر: الإغفال: ٢/٢٠٣. والكتاب: ٣/١٢٣.

(٧٤) الكتاب ١/٣٧.

(٧٥) الإغفال: ٢/٤٤٢.

(٧٦) ينظر. الكشاف: ٢/٥٧٦.

(٧٧) ينظر الدر المصون: ٧/ ٦٤٩-٦٥٠.

(٧٨) سورة مريم. ٩١.

(٧٩) الشاعر هو عبد الرحمن بن الحكم. والبيتان في الكامل: ١/١٢٥.

(٨٠) الحديث في صحيح البخاري: ٦/٢٤٨٥ (باب من ادعى إلى غير مواليه. ولفظه. (ومن ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله).

(٨١) الشاعر هو بشامة بن حزن النهشلي. والبيت في الكامل: ١/١١١.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أخبار النحويين البصريين. لأبي سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ). تحقيق: طه محمد الزيني. ومحمد عبد المنعم خفاجي. ط١. القاهرة. ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- الأصمعيات. اختيار أبي سعيد الأصمعي (ت٢١٦هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون. ط٥. دار المعارف. القاهرة (د.ت).
- الإغفال. لأبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ). تحقيق وتعليق: د.عبد الله ابن عمر الحاج إبراهيم. المجمع الثقافي. ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث. دبي. ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م.
- الدر المصون. للسمين الحلبي. (ت٧٥٦هـ). تحقيق: د.أحمد محمد الخراط. دمشق. ط١. ١٨٨٦م.
- سر صناعة الإعراب. لابن جني (ت٣٩٢هـ). ج١. تحقيق مصطفى السقا وجماعة. ١٩٥٤م.
- شرح ابن عقيل (ت٧٦٩هـ) على ألفية ابن مالك (ت٦٧٢هـ). راجعه وعلق عليه: د.مالك المطلبي ود.غالب المطلبي. دار الحرية للطباعة. بغداد. ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
- شرح أبيات سيبويه. لأبي سعيد السيرافي (ت٣٨٥هـ). تحقيق. د.محمد علي سلطاني. دار المأمون. دمشق. ١٩٧٩م.
- صحيح البخاري. لمحمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ). تحقيق: د. مصطفى البغا. بيروت. ط٣. ١٩٨٧م.
- الغرّة المخفية. لابن الخبّاز (ت٦٣٩هـ) في شرح الدرة الألفية لابن معط (ت٦٢٨هـ) تحقيق. حامد محمد العبدلي. الناشر: دار الأنبار. بغداد. الرمادي. مطبعة العاني. ط١. ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- في النحو العربي نقد وتوجيه. د. مهدي المخزومي. دار الشؤون الثقافية العامة (سلسلة علم وأثر). ط٢. بغداد. ٢٠٠٥م.
- الكامل في اللغة والأدب. للمبرد (ت٢٨٥) علق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. (د.ت)
- كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ). تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. مصر. ط٢. ١٩٧٧م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل. لأبي القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ). دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت - لبنان (د.ت).
- اللمع في العربية. لابن جني (ت٣٩٢هـ). تحقيق حامد المؤمن. منشورات جمعية منتدى النشر. النجف الأشرف. مطبعة العاني. بغداد. ١٩٨٣م.
- مختار الصحاح. لأبي بكر الرازي (ت٦٦٦هـ) دار الرسالة. الكويت. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- معاني القرآن. للأخفش (ت٢١٥هـ). تحقيق: فائز فارس. المطبعة العصرية. الكويت. ١٩٧٩م.
- معاني القرآن وإعرابه. لأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ). تحقيق: عبد الله الجليل عبده شلبي. عالم الكتب. بيروت. ط١. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معاني النحو. للدكتور فاضل صالح السامرائي. ط٢. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- المقتضب. لأبي العباس المبرّد (ت٢٨٥هـ). تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة. القاهرة. ١٣٨٩هـ.
- المنصف شرح تصريف المازني. لابن جني (ت٣٩٢هـ). تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ط١. ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.

الدوريات:

إعراب لاسيما وفوائد أخرى. تأليف: الشيخ حسين بن محمد البالي الفزّي (ت١٢٧١هـ). تحقيق د. صبيح التميمي. مجلة آفاق الثقافة والتراث. دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد. دبي. الإمارات العربية المتحدة. السنة التاسعة. العدد السادس والثلاثون. شوال. ١٤٢٢هـ. كانون الثاني. ٢٠٠٢م.

سيميائية الرمز والأيقونة

((قصيدة ابن العلاف في رثاء هرٍ مثالاً))

أ.د. أحمد علي محمد
حمص - سوريا

١ - مقاربة بين المفهوم والمنهج:

١-١: يحصر المهتمون بمجال السيمياء العلامات الدالة من حيث وظيفتها التواصلية بثلاث وسائل أساسية: المؤشر (Index) والرمز (Sybole) والأيقونة (Icone)، وهذه إنما هي في الواقع علاماتٌ مفردة لا تنجم عنها دلالات واضحة ما لم يتم إدخالها في أنظمة دالة، أي مجموعة من العلامات القائمة على التداخل والاندماج والمماثلة التي تمكّنها من التحوّل إلى علامات أخرى بمؤثر ثقافي ما يسهم في إيجاد وعي يدرك دلالاتها التعبيرية، ومن ثَمّ تحديد مجالها التأويلي.

وما من شك أنّ معرفة الوظيفة التواصلية للعلامات وطبيعتها الإشارية لا تتحقق من دون الكشف عن مجالات تشكيل تلك العلامات في المنظومة النصيّة التي تسهم أصلاً في خلق مجال تتأسس فيه الدّلالة العلاماتية كفك المرموز إليه من خلال الرمز، وتعيين المؤشر الدال، ووعي التشابه بين الأيقونة وما ترمي إليه. وقد تنبه الجاحظ إلى الغاية التوصيلية للعلامات في معرض كلامه عن آلة البيان في قوله: "وجعل (الله) آلة البيان التي يتعرفون بها معانيهم والترجمان الذي يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء: اللّفظ والخط والإشارة والعقد"[1].

وثمّة اختلاف ظاهر بين تلك الوسائل الدّالة ينجم عن اختلاف طرائق تشكلها وآليات أدائها الدّلالي فالرّمز إشارةٌ حرفية إلى مضمون ما. أما الأيقونة فهي تمثيل لا يدل على موضوعه مباشرة بقَدْرِ ما يدل على جهة تتصل بالرؤيا، أو تشير إلى ثيمة تلوح من وراء وشاح لتنبيه المتلقي على أمر يَعْضُدُ الاختلاف والتباين. من أجل ذلك كان الرّمز أُحادي الدّلالةِ، وضحاً ينهل من موروث

ثقافي معروف. والأيقونة متعددة تنبعث منها دلالات مبعثرة. فيها طاقة تشكيلية وقدرة شعرية نادرة تعمد إلى توظيف الإشارات النصيَّة بما فيها الرّمز لإعادة إنتاج المعنى باستمرار.

ليست الأيقونةُ فكرةً بل تسهم في إنتاج فكرة: لأنّ لديها قابلية التّطور والتشكّل بصور غير متناهية. ومن ثم فهي تختلف عن الرّمز الذي يتضح عادة في ذهن المتلقي في حال موافقته محفزات استدعائه. ومن ثم حضوره مجسداً بهيئته دال بجوهره لا بصفاته. لذلك سرعان ما يتحول إلى مؤشر لا يُفهم ما لم ينحل إلى أيقونة.

ويميز بيرس بين الرّمز والأيقونة والمؤشر. إذ يقصد بالرمز إثبات علاقة دائمة في ثقافة ما بين عنصرين. أما الأيقونة فهي إعادة الدلالة بطريق تحويل العلاقات المعروفة بين العلامات عن أساسها الوضعي. في حين كان المؤشر عنده متصلاً بالواقع الخارجي. إلا أنّ العلاقة بينه وبين الواقع إنّما هي علاقة تجاوز وتخط. إذ المؤشر يستدعي الاستدلال مثل الدُخان الّذي يستحيل مؤشراً على وجود النار. أمّا الرّمز فيسلك عادة طرقاً وضعية مثل الميزان الذي يرمز إلى العدالة. وكذا الأيقونة تنحل عن علاقة مشابهة مع الواقع الخارجي إذ تظهر في خصائص أو صفات الشيء المُشار إليه بطريق الاستدعاء مثل أن نقطة الدَم اللّون الأحمر[illegible].

٢-١ ثمّة محاولاتّ تخطّت المجال النّظري السيميائي العلاماتي بُغية إيجاد إجراء نقدي يعضد الممارسات التحليلية في الكشف عن سيميائية بعض نصوص الأدب. كمحاولة عبد الملك مرتاض في كتابه الموسوم بـ"تحليل الخطاب السيميائي" الذي درس فيه قصيدة السياب "شناشيل ابنة الجلبي" من خلال ثلاثة مستويات سيميائية: الأول: التشاكل والتباين. والثاني المماثلة والقرينة والثالث: الحيّز والتحيّز[illegible]. في حين تناول محمد جاهين حلبي "سيميائية التناظر والتقابل في نونية ابن زيدون"[illegible]. واكتفى محمد يوسف بدراسة الدّلالات المفتوحة للعلامة اللُغوية في كتابه الذي سمّاه "مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة"[illegible].

والحقُ أنّ المضمار البحثي التطبيقي في مثل هذه الدراسات لم يجز الطور التجريبي. أي لا يعدو كونه مقاربات انعدمت في سبلها الصوُر. لتبقى الإشكالية قائمة بين مستوييها: التنظيري والتطبيقي: ذلك لأنّ التوصيف النظري للعلامات اللّغوية لم يؤيد بأمثلة مقنعة يرجحها السيّاق النّصي عامة. وآية ذلك محاولة مرتاض التي لا تخرج في حقيقتها عن دراسة معجمية ونحوية لبعض كلمات قصيدة السياب إضافة لبعض

التعليقات المستوحاة من الثقافة عامة. مع أنّه يرى في دراسته جانباً فريداً إذ يقول: "قد تكون الممارسة التطبيقية التي جريتُ عليها. **على هذا النّحو من التفصيل والتركيز حدثت لأول مرة في العربية**"[illegible]. ومع ذلك لن تستطع تلك الممارسة الإفادة من العناصر السيميائية الدّالة كالمؤشرات والرّموز والأيقونات التي تُعدُ كما أشرتُ وسائل سيميائية بامتياز. يضاف إلى ذلك الخلط الذي محا الحدود بين مجالات الدّلالة والمعجم ومجالات الإشارات والسيمياء كما هو الشأن في دراسة أحمد يوسف. وتحوّل الدراسة السيميائية عن محورها الإشاري إلى مجال بنيوي صرف مثلما حدث في دراسة محمد جاهين التي ارتكزت أساساً على محوري التقابل والتناظر.

٢ - النص: (من المنسرح):

١. يا هرُّ فارقتنا ولم تعُدِ … وكنت منا بمنزل الولد
٢. فكيف ننفك عن هواك وقد … كنت لنا مدّة من المدد
٣. تمنع عنا الأذى وتحرسنا … بالغيب من حيّة ومن جرد(١)
٤. وتُخرِجُ الفأر من مكامنها … ما بين مفتوحها إلى السَّند
٥. يلقاك في البيت منهم مددٌ … وأنت تلقاهم بلا عَدد
٦. لا عددٌ كان منك منفلتًا … منهم ولا واحد من العدد
٧. لا ترهبُ الصيف عند هاجرة … ولا تهابُ الشّتاء في الجمد
٨. وكان يجري ولا سداد لهم … أمرُك في بيتنا على سدد
٩. حتّى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا … ولم تكن للأذى بمعتقد
١٠. وحُمت حول الرّدى بظلمهم … ومن يحم حول حوضه يرد
١١. إنّ الزّمان استقاد منك ومن … يسلم لغير الزّمان يستقد
١٢. فإنْ رماك الرّدى بحادثة … فما على الحادثات من قود
١٣. وكان قلبي عليك مرتعداً … وأنت تنسابُ غير مُرتعد
١٤. تدخلُ برج الحمام متئداً … وتخرج منه غير متئد
١٥. وتطرح الرّيش في الطريق لهم … وتبلعُ اللّحم بلعَ مزدرد
١٦. أطعمك الغيّ لحمها فرأى … قتلك أربابها من الرُّشد
١٧. كادوك دهراً فما وقعت وكم … أفلت من كيدهم ولم تكد
١٨. حتّى إذا خاتلوك واجتهدوا … وساعد النّفس كيدُ مجتهد
١٩. صادوك غيظاً عليك وانتقموا … منك وزادوا ومن يَصِدْ يُصَد
٢٠. فلم تزلْ للحمَام مرتصداً … حتّى سُقيت الحِمام بالرّصد
٢١. ثم شفوا بالحديد أنفسهم … منك ولم يربعوا على أمد
٢٢. لم يرحموا صوتك الضّعيف كما … لم ترثِ منها لصوتها الغرد
٢٣. فحين كاشفت وانهتكت وجا … هرت وأسرفت غير مُقتصد
٢٤. أذاقك الموت من أذاق كما … أذقت أطيارهُ يداً بيد
٢٥. كأنهم يقتلون طاغيةً … كان لطاغوته من العَبد
٢٦. فلو أكبّوا على القرامط أو … مالوا على زكرويه لم يزد
٢٧. يا من لذيذ الفراخ أوقعهُ … ويحك هلا قنعت بالقدد
٢٨. ما كان أغناك عن تسوّرك البـ … ـرج ولو كان جنة الخلد

٢٩. لا بارك الله في الطعام إذا ... كان هلاك النفوس في المعد

٣٠. كم أكلة داخلت حشا شره ... فأخرجت روحه من الجسد

٣١. أردت أن تأكل الفراخ ولا ... يأكلك الدهر أكل مضطهد

٣٢. هذا بعيد عن القياس وما ... أعزه في الدنو والبعد

٣٣. ولم تكن لي بمن دهاك يد ... تقوى على دفعه يداً بيد

٣٤. ولا تبين حشو جلدك عنـ ... ـد الذبح من طاقة ومن جلد

٣٥. كأن حبلاً حوى بحوزته ... جيدك للذبح كان من مسد

٣٦. كأن عيني تراك مضطرباً ... فيه وفي فيك رغوة الزبد

٣٧. وقد طلبت الخلاص منه فلم ... تقدر على حيلة ولم تجد

٣٨. فجدت بالنفس والبخيل بها ... كنت ومن لم يجد بها يجد

٣٩. عشت حريصاً يقوده طمع ... ومت ذا قاتل بلا قود

٤٠. فما سمعنا بمثل موتك إذ ... مت ولا مثل عيشك النكد

٤١. عشنا بخير وكنت تكلؤنا ... ومات جيراننا من الحسد

٤٢. ثم تقلبت في فراخهم ... وانقلب الحاسدون بالكمد

٤٣. قد انفردنا بمأتم لهم ... بعد بالعروس أي منفرد

٤٤. قد كنت في نعمة وفي سعة ... من المليك المهيمن الصمد

٤٥. تأكل من فأر بيتنا رغداً ... وأين بالشاكرين للرغد

٤٦. قد كنت بددت شملهم زمناً ... فاجتمعوا بعد ذلك البدد

٤٧. وفتتوا الخبز في السلال فكم ... تفتت للعيال من كبد

٤٨. فلم يبقوا لنا على سبد ... في جوف أبياتنا ولا لبد

٤٩. فرغوا قعرها فما تركوا ... ما علقته يد على وتد

٥٠. ومزقوا من ثيابها جدداً ... فكلنا في مصائب الجدد

٥١. فاذهب من البيت خير مفتقد ... واذهب في البرج شر مفتقد

٥٢. ألم تخف وثبة الزمان وقد ... وثبت في البرج وثبة الأسد

٥٣. أخنى على الدار فيه بالأمس ... ومن قبلها أخنى على لبد

٥٤. ولم يدع في عراصها أحداً ... ما بين عليائها إلى السند

٥٥. عاقبة البغي لا تنام وإن ... تأخرت مدة من المدد

٥٦. ومن لم يمت يومه يمت غده ... أو لم يمت في غد فبعد غد

٥٧. والحمد لله لا شريك له ... فكل شيء يرى إلى أمد

٢-١: تفترض الممارسة النقدية تعيين العلامات السيميانية في النص ومن ثم تحديد دلالاتها. بمعنى أنه لابد من تعيين الرموز والأيقونات والمؤشرات التي تبدو لنا على الوجه الآتي:

أ- إنّ كلمة (هِرّ) التي جاءت في مستهل القصيدة لها مجالات كما سبقت الإشارة: مجال صريح مباشر يحدد الغرض من النّص بوصفه كما قال الصفدي في رثاء الحيوان. ومجال إشاري غامض غير معين يوحي بالتقنع والرّمز والكناية كما لاحظ المتقدمون.

والواقع أنّ لفظ (هرّ) هنا كناية عن شخص رثاه ابن العلاف بصورة خفية. فلهذا استترت مقاصد القصيدة وراء قناع حيواني تمثل بهر تسلق أبراج الحمام وفتك بفراخها. على نحو ما تكشف عنه ظواهر البُنى النَّصية. غير أنّ البنية العميقة للغة في النّص ترجح مستوى آخر في الدلالة يسهم في تشكيل أيقونة لديها قابلية التحول بصورة كنائية مفترضة. أو رمز ناجم عن تضافر دلالات تربطها المصادر الأدبية بابن المعتز أو بغلام ابن العلاف أو بالمحسن بن الحسن بن الفرات.

ب- ذكر رجاء النّقاش أنّ قصيدة ابن العلاف الدّالية كانت في رثاء ابن المعتز الخليفة العباسي الذي لم يُمضِ في الخلافة سوى يوم وليلة. إذ أغرى به الأجناد فوثب على الخلافة طُمعاً بالقوة والسلطة والسيادة. وكانت بينه وبين ابن العلاف صداقةٌ متينة قبل توليه الخلافة. فلما قتله المقتدر هاله ما آلت إليه أمور صديقه ابن المعتز. فنظم هذه القصيدة في رثائه مستتراً برمز الهر خوفاً من بطش الخليفة . وبذا يخلص النقاش أنَّ الهر هو ابن المعتز نفسه[٨].

ويلاحظ النقّاش أنّ القصيدة لم تكن خالصة في الرّثاء والتأسف لموت ابن المعتز. بل انطوت على نقد لاذع وعتاب شديد[٩] من دون أن يلتمس سبباً لذلك النقد أو يكشف الدافع إليه. والواقع أنّ القصيدة جازت العتاب واللوم والنقد لتستحيل ضرباً من التشفي. والسؤال المهم هنا: إذا كان ابن المعتز صديقاً لابن العلاف. وكانت قد انعقدت بينهما علاقة أدبية سامية ونزيهة فما دواعي العتاب والنقد والتشفي؟

لم يكن ابن المعتز مندفعاً للخلافة. بل دفع إليها دفعاً. وكان أمضى دهراً من زمانه في مخالطة العلماء والأدباء حتى عُدَّ من جملتهم. وقد شهدت له مصنفاته في الأدب والشعر على حُسن خُلقه ودماثة طبعه وطيب معشره. كما عُرف بتخلقه بأخلاق العلماء الأفاضل. يقول ابن خلكان: " كان عبد الله بن المعتز مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم إلى أن جرت له الكائنة في خلافة المقتدر. واتفق معه جماعة من الأجناد ووجوه الكتاب فخلعوا المقتدر يوم السبت لعشر بقين وقيل لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومئتين. وبايعوا عبد الله وسموه المرتضي بالله وقيل المنصف بالله... وأقام يوماً وليلةً. ثم إنّ أصحاب المقتدر تحزبوا وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى دسه واستخفى ابن المعتز في دار أبي عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر فأخذه المقتدر وسلمه إلى مؤنس الخادم فقتله وسلمه إلى أهله"[١٠].

وظاهر الخبر لا يعضد في الحقيقة الكناية التي تربط بين الهر وشخصية ابن المعتز. بل على العكس تماماً. إذ لا نجد ما يشي بالتشابه بين الهر (الأيقونة) هنا ودلالتها على ابن المعتز .

٢-٢: أيقونة الهر في التراث:

تحيل كلمة (هَرَّ) بحسب اللغة على الكره والشرّ. يقول صاحب اللسان: "هرَّ الشيء هراً وهريراً كرهه. وقال ابن الأعرابي أجد في وجهه هَرَّةً وهريرة أي كراهية. ويقال هَرَّ الكلبُ يهر هريراً. إذا أخرج صوتاً دون النباح من قلة صبره على البرد. وفي المثل كما حكى سيبويه: شرٌّ أهر ذا ناب. وقيل الهر: العقوق. وذُكر أنَّ البرَّ الإكرام والهرَّ الخصومةُ. والهِرُّ: السنّور"[١١].

أما صورة الهر كما انطوت عليها كتب التراث العربي فقريبة من المعنى الذي وضحته المعجمات إذ ارتبطت بالقبح والشناعة فساق ابن طيفور على لسان أعرابية تهجو زوجها وزوج أختها بيتاً تقول فيه[١٢]:

أسيودُ مثل القرد لا خير عنده

وآخر مثل الهر لا حبذاهما

وقال أبو البلاء الطهوي. وكان من شياطين العرب يصف الغول الذي زعم انه قتله[١٣]:

إذا عينان في وجه قبيح

كوجه الهر مشقوق اللسان

وورد في "ثمار القلوب للثعالبي:" ويقال إنّ الكلب آلفُ من الهر: لأنّ الكلب يألف الإنسان والهر يألف المكان[١٤]. وذكر الزمخشري:" أنّ الهر يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب. وليس كل سَبُع كذلك[١٥]. ويربط بعض الشعراء بين الهر والميل إلى الأذى والعدوان والفساد يقول أبو الفرج الأصفهاني في صفة الهر[١٦]:

يالحدب الظهور وقعص الرقاب

لدقاق الأنياب والأذناب

خلقت للفساد مذ خلق الخلـ

ـق وللعيث والأذى والخراب

ومؤدى القول أنّ الهر في التراث الأدبي واللغوي العربي يمثل أيقونة تجسد صورة تحيل على القبح والأذى والعدوان. وعليه فإنّ توشح قصيدة ابن العلاف بصورة هر يحيل في حقيقة الأمر على رمز ليس ببعيد من تلك الأيقونة. أعني أن المخصوص بالرثاء هنا لم يكن أثيراً لدى الشاعر وهذا ما يفسّر أكثر الدلالات اللغوية التي تشف عن النقد اللاذع والتشفي. أما الدلالات التي يستشف منها التعاطف والتأسف فهي من غير شك تخص شخصاً آخر غير الذي رمز له بالهر. من أجل ذلك فالخطاب في القصيدة يتجه إلى شخصين لا إلى شخص واحد.

٢-٣ الرمز والأيقونة:

وبالنظر إلى علاقة ابن العلاف بابن المعتز لا نكاد نعثر على ما يدل على كره قد استحكم بين الرجلين. وإذا كان الهرّ على نحو ما يشير الصفدي في خبره الأنف. ويقر به النقّاش. كنايةً أو رمزاً لابن المعتز فإنَّ ذلك يقتضي أن تنطوي المرثية على علامات أو ثيمات تكشف عن ذلك بصور خفية أو ظاهرة. أعني أن تغلب عليها ألفاظ التأسف والتوجع والحزن. لا بل استنكار الخطب الذي ألمَّ بصديقه. وتتراجع بالمقابل الألفاظ الدالة على النقد واللوم والتعنيف والتشفي. لأنّ الهالك ضحية. ولا معنى للعتاب هنا إذا كان ينعى فيه معنى الصداقة والأخوة بحسب ما ذهب إليه النقاش على نحو خاص. ولبيان مدى هيمنة الوحدات اللغوية التي جاءت في مصلحة هذا الترجيح لا بُدَّ من تصنيف الوحدات اللغوية النصية بحسب إحالتها الدلالية وفق الجدول الآتي.

البيت	العلامات الدالة على التأسف والوجع والحزن	العلامات الدالة على التعنيف واللوم والتشفي
ب١	فارقتنا - لم تعد - بمنزل الولد	
ب٢	هواك - مدة من المدد	
ب٣	تمنع عن الأذى - تحرسنا	
ب٥		تلقاهم بلا عدد
ب٦		لا عدد كان معك
ب٧	لا ترهب - لا تهاب	
ب٨	أمرك على سدد	لا سداد لهم
ب٩		لم تكن للأذى بمعتقد
ب١٠		حمت حول الردى
ب١١		الزمان استقاد منك
ب١٢		رماك الردى
ب١٣	قلبي عليك مرتعدا	
ب١٤		تخرج الفرخ غير متئد
ب١٥		تطرح الريش
ب١٦		أطمعك الغي
ب١٧		وقعت
ب١٨		خاتلوك واجتهدوا
ب١٩		من يَصِدْ يُصدِ
ب٢٠		سقيت الحِمام
ب٢١		شفوا بالحديد أنفسهم منك
ب٢٢		لم ترث لصوتها الغرد
ب٢٣		أسرفت غير مقتصد

ب٢٤		أذاقك الموت
ب٢٥		يقتلون طاغية
ب٢٦		فلو أكبوا على القرامط..
ب٢٧		يا من لذيذ الفراخ أوقعه
ب٢٨		ما كان أغناك عن تسورك البرج
ب٣١		يأكلك الدهر
ب٣٥		جيدك للذبح
ب٣٦		تراك مضطرباً
ب٣٧		لم تقدر على حيلة
ب٣٩		مت ذا قاتل بلا قود
ب٤٠		عيشك النكد
ب٤١		عشت بخير
ب٤٢		تقلبت بين فراخهم
ب٤٤		كنت في نعمة
ب٤٥		أين بالشاكرين للرغد
ب٤٦		كنت بددت شملهم فاجتمعوا...
ب٤٧		فتتوا الخبر في السلال
ب٤٨		لم يبقوا لنا على سبد
ب٥٠		مزقوا من ثيابنا جدداً
ب٥١		اذهب من البرج شر مفتقد
ب٥٢		لم تخف وثبة الزمان
ب٥٥		عاقبة البغي لا تنام

٤-٢: تحليل الجدول ومحاولة تعيين المرموز إليه:

أ - الهر وابن المعتز:

تنحاز القصيدة في معظم دلالاتها إلى اللوم والعتاب الشديد والتشفي بصورة تشي بأن المقصود بالهر هنا ليس ابن المعتز. وتعضد هذا الافتراض مؤشرات لغويّة واضحة الدّلالة كما هو الشأن في "ب٦" **(لا عدد كان معك)**. فهذه إشارة تخالف الواقعة التاريخية التي تذكر أنّ جماعة من الأجناد والكُتّاب اتفقوا مع ابن المعتز لخلع المقتدر ففعلوا. بمعنى أنَّ مع ابن المعتز عدداً من الجنود ولم يكن وحيداً لمّا وثب على الخلافة. وفي ب"١٩" **(من يصد يصد)**. و"ب٢٥" **(يقتلون طاغية)** ما يخالف سيرة ابن المعتز الذي كان حَسَنَ السيرة محمودَ الخلال إذ لم يُعرف عنه الغدر والطغيان. وفي "ب٢١" (شفوا بالحديد أنفسهم منك) و"ب٣٥" **(جيدك بالحديد)**. ما يخالف الواقعة التي أودت بابن المعتز إذ لم يقتل بالسيف وإنما رجم بالحجارة.

إنَّ لفظ الهر في ضوء الدلالات غير المعينة هنا يستحيل أيقونة وليس رمزاً بحال من الأحوال: لأن الرمز مبني على التواضع. والأيقونة تتشكل في النّص من خلال ثيمات وعلامات يؤسسها السياق. وعليه فإنّ ما تحيل عليه الأيقونة غير ابن المعتز بالتأكيد. وهذا لا يعني أنّها تتخلى عن رمزيتها. فهي من غير شك ليست في رثاء هر. وهنا لا بُد من النّظر إلى الاحتمال الآخر بحسب الروايات التي تقدم ذكرها. أعني أنّها إما في غلام ابن العلاف وإما في المُحسن بن أبي الحسن بن الفرات.

ب- الهر وغلام ابن العلاف:

قصيدة ابن العلاف متدرجة من حيث دلالاتها، إذ تمثل أبياتها الأربعة التي جاءت في بدايتها سطح الموضوع وظاهره. ويمكن إجمال ما تشي به تلك الأبيات بمقولة يدركها القارئ بغير جهد: أنّ هره الأثير ذبح بعد أن تسلق أبراج الحمام. فخلّف ذلك في نفسه ألماً وحسرة إذ أودى به بعد أن كان عنده بمقام الابن الذي يعينه على قضاء حاجاته. وذلك بحسب إشارته في "ب١" **(وكنت منا بمنزل الولد)**. والواقع أنّ ثمة مؤشراً في دلالة هذه العبارة ينفي المشاركة بين الهر والغلام. لأن الهر لا يكون بمنزلة الولد. لذا فالعبارة أعلق بالغلام. ثم تأتي إشارة مماثلة في "ب٢" **(وكيف ننفك عن هواك)**. والهوى هنا مرتبط بالغلام أيضاً. لأنه لا ينعقد هوى بين الرجل والهر. وفي "ب٣" يأتي قوله **(تمنع عنا الأذى)**. وهي إشارة عائمة تبدو قوية في دلالاتها على عمل الهر. ويريد أنه يمنع عنه أذى الفئران. وتصح دلالاتها على عمل الغلام الذي يمكن أن يحرس المنزل ويحميه. وفي "ب٤" تأتي إشارة خاصة بالهر **(تخرج الفأر من مكامنها)**. وليس للغلام فيها نصيب. مع إمكانية قيام الغلام بهذا العمل كأن يوكل إليه تصيد الفئران في المنزل. مع أنّ هذا العمل منوط بالهر عادة. وعليه تبدو الدلالات في مقدمة القصيدة محيرة ماكرة لأنها تستهدف التعبير عن مستويين: الأول ظاهره هر يبالغ الشاعر في التوجع على مصابه. فيرى فيه ابناً باراً ومعشوقاً أثيراً وحارساً أميناً وخادماً مطيعاً. والثاني يوحي بالاشتراك والتماثل والمشاكلة: لأن الغلام يحسن أن يكون كالولد والمعشوق والحارس والخادم.

وتصرح القصيدة في "ب٣٤" بوضوح أنّ الهر (الغلام) لما ذبح حشي جلده تبناً. وفي ذلك تأكيد للحكاية القائلة بأنّ الغلام لمّا عشق جارية علي بن عيسى انكشف أمرهما فذبحا وحشيت جلودهما تبناً. يقول:

ولا تبين حشو جلدك عنـ
ـد الذبح من طاقة ومن جلد

وهذا التصريح في ضوء كثرة العلامات المغايرة يتحول دلالة خادعة. أو هو تمويه للقصد الحقيقي ليكون بعيداً عن الشبهة التي يمكن أن تنجم من خلال تناوله موضوعاً محظوراً يعود عليه بكثير من المتاعب.

من أجل ذلك نرى أن أيقونة (الهر) ترتد إلى شخص آخر نرى أنه المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الذي ترسم له المصادر صورة بنهاية الرداءة والسوء لسبب يتصل بطبيعة الأيقونة المخالفة للرمز. وذلك لحاجتها إلى جملة من الدلالات المتضافرة لتكون قابلة للتعيين. وما جاء في "ب٤٠" من أمر الجارية والغلام يستحيل معنى عارضا لافتقاره إلى علامات مماثلة.إذ ليس هناك اشتراك في الدلالات النصية يشي بأنّ الكلام على مصير الغلام والجارية أمر محظور يدعو لكل هذا الكتمان.

ج - الهر والمحسن بن أبي الحسن بن الفرات:

كان المحسن بن أبي الحسن بن الفرات كما يذكر النويري" وقحاً ظالماً سيء الأدب ذا قسوة شديدة. وكان الناس يسمونه الخبيث بن الطيب"[٢٧].

وتروي المصادر أنّه أهلك خلقاً كثيراً. ولم يف بحقوق من أحسنوا إليه كعلي بن عيسى الذي كان قد أعطاه في أثناء ولايته عشرة آلاف درهم. فقام في أيام نكبته بالتنكيل به وتجريده من أمواله ثم قتله. وقد أثخن في القتل في الزمن الذي كان فيه أبوه وزيراً للمقتدر. فحين ثار نفر من القرامطة وقطع طريق الحج على الناس وأوشكت أمور المقتدر أن تنحل بادر المحسن إلى أحد سجون بغداد فقتل من كان محبوساً فيها لأنّه أخذ منهم أموالاً جليلة فخاف أن ينكشف أمره"[٢٨].

ولم ينج الوزير ابن الفرات من أثر ثورة القرامطة هذه. فاتهم بأنّ ثمّة علاقة كانت خفية بينه وبينهم. وقد انكشفت للناس فقيل في بغداد آنذاك: " القرمطي الصغير قتل المسلمين بطريق مكة. والقرمطي الكبير قتل المسلمين ببغداد"[٢٩]. يريدون بالقرمطي الكبير ابن الفرات وقد شنّع النّاس عليه وثاروا ضده فكسروا منابر المحاريب. فضعفت نفس ابن الفرات عقب ذلك فحضر إلى المقتدر ليأخذ منه أمرَ ما يقطعُ به"[٣٠].

ويبدو أن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات كان سبباً فيما آلت إليه أمور أبيه من سوء: ذلك لأن أباه قد تولى الوزارة في عهد المقتدر ثلاث مرات. الأولى: بعد مقتل ابن المعتز من سنة ٢٦٩-١٩٩هـ. إذ بدا فيها من أصحاب الرياسة والسياسة. فأسهم في إخماد الفتنة في بغداد بعد مقتل ابن المعتز. وقد روي أنّ أول ما ظهر من محاسن ابن الفرات لما استوزره المقتدر أن صندوقين حُملا إليه من بيت ابن المعتز" فقال أعلمتم ما فيهما؟ قيل: نعم جرائد بأسماء من بايعه. فقال لا تفتحوها. ودعا بنار فطرح الصندوقين فيها. فلما احترقا قال: لو فتحتهما وقرأت ما فيها فسدت نيات الناس بأجمعهم علينا واستشعروا منا مع ما فعلناه. وقد هدأت القلوب وسكنت النفوس"[٣١].

والثانية: من سنة ٣٠٤ - ٣٠٦هـ والثالثة من سنة ٣١٢-٣١٣ هـ. وكان كما يذكر ابن خلكان قد أطلق يد ابنه المحسن في وزارته الثالثة فكانت بذلك نهايته. وكان ابنه المحسن قد لاذ بالفرار فاختبأ عند حماته في الرقة حين عزم والده ابن الفرات على التنحي عن الوزارة وتماثله لأمر المقتدر بعد ثورة القرمطي. ثم انكشف أمر المحسن بطريق

امرأة كان قد قتل زوجها. فسلم للمقتدر بعد ذلك.

ومن الواضح هنا أنّ سياق حياة المحسن على قدر كبير جداً من التماثل مع دلالات أغلب البنى النصية في القصيدة. إذ هو المقصود بكل عبارات التشفي والتعريض في النص. وما يكشف مضمرات النص في هذا الأمر كثير من الروايات التي تطبق على أن المعني إنما هو المحسن دون غيره. يشاركه في الصفات المناقضة أبوه. وفي هذا السياق يروي النويري عن الصاحب بن عباد قوله: " أنشدني أبو الحسن بن أبي بكر بن العلاف، وهو الأكول المقدم في الأكل في مجالس الرؤساء والملوك قصيدة أبيه في الهر. وقل إنما كنى بالهر عن المحسن ابن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه"[٢٢].

والسؤال المهم هنا إذا كان المحسن هذا طاغية وظالما وسيئا فقيل عنه " الخبيث بن الطيب" فلماذا رثاه ابن العلاف. وليس هنالك نبأ عن صداقة أو وشيجة قربى بينهما. ثم إذا كانت القصيدة كما بينا آنفا أقرب ما تكون إلى التشفي والعذل الشديد إذ أودي بالمحسن غير مأسوف عليه عند الخاصة والعامة فما دواعي الكتمان. وما وجه الخطورة على ابن العلاف أن يقول صراحة: إن المحسن لقي جزاءه الذي يستحق وتنتهي القضية. ولاسيما أن القصيدة ترجح هذا الجانب في علامتها التي جاءت في "ب ٩"(ولم تكن للأذى بمعتقد) :أي أنّ المحسن حين ألحق الأذى بالناس لم يحسب حساباً لعواقب ظلمه. وفي"ب ١٥" (وتبلعُ اللّحم بلع مزدرد):أي كان المحسن يأكل أموال الناس بالباطل. وفي"ب ١٩" (ومن يصد يصد): وهذه كانت صفة في المحسن الذي كان يتصيد الناس ويستولي على أرزاقهم وينتهب أموالهم ويثخن في قتلهم. وقد آل به المصير إلى أن ذبحه رجال المقتدر ثم ألقي رأسه بين يدي أبيه. وفي ذلك مؤشر دال على أنّ ابن الفرات الذي أطلق العنان لولده في أثناء توليه الوزارة لم ينهه عن غيه ولم يحاسبه فكان كالمشارك له في الطغيان. وفي"ب ٢٣"(أسرفت غير مقتصد): وهنا يتجه الخطاب للمحسن بصورة واضحة.

إن أهمَ أمارة على أن المخصوص بالقصيدة المحسن ما ورد في"ب٢٤" (عند الذبح) وفي"ب٣٥"(جيدك للذبح): إذ تستحيل هاتان الأمارتان قرينتين تدلان على الطريقة التي قتل بها المحسن وأبيه إذ ذبحا كما تذبح الخراف.

وعليه فإن تعيين القرينة يحول الأيقونة إلى رمز في ضوء المؤشرات الكثيرة الدالة على أنّ الهر ينحصر في دلالته الرمزية بين المحسن وأبيه ابن الفرات.

وملامسة دلالة الرمز شخصية المحسن هنا لا تعني أن ذلك الترجيح يسلم من الشك بل على العكس تماماً: لأن في القصيدة دلالات كثيرة مناقضة كالعبارات التي تدل على تعاطف الشاعر مع الهر. فإذا كان المحسن هو المقصود بالهر وكان سيئا وقحا فما معنى أن يتعاطف معه ابن العلاف؟

الحق أنّ جملة من الدلالات المتناقضة. كما ألمحنا سابقاً، اندرجت تحت رمزية الهر. تماماً كالتناقض بين المحسن وأبيه. وعليه يمكن إرجاع الصفات الإيجابية التي جاءت بها القصيدة إلى ابن الفرات. والصفات السلبية إلى ابنه المحسن. وعليه فإنّ الهر هنا جانبين من حيث الدلالة إذ المحسن كان سبباً في مصاب أبيه وإليه يعزى معنى النقد والتشفي. وكذا يمس النقد أباه مساً رفيقاً لأنه أطلق يد ابنه المحسن في أثناء وزارته

الثالثة. والجانب الآخر ينحاز في دلالته إلى ابن الفرات وهو الجانب المتصل بالرثاء والتأبين على نحو ماتظهره القصيدة في معظم أبياتها.

جـ - الهر وابن الفرات:

رمزية القصيدة متعددة الأوجه. فهي كما أشرنا من فك الجدول السابق تجمع بين نمطين متغايرين من العلامات.

تجمع التأسف إلى التشفي. والحزن إلى العتاب. والتوجع إلى النقد اللاذع. فإذا كان المخصوص بالتشفي والعتاب والنقد المحسن بن أبي الحسن ابن الفرات. فإن المخصوص بالتأسف والعتاب والتوجع ابن الفرات نفسه. وبالعودة إلى الجدول تتعين تلك الدلالة بوضوح.

كان ابن الفرات على نحو ما تصور المصادر التاريخية كثير البذل للمحتاجين فقد أجرى كثيراً من أمواله لمساعدة أهل العلم والمتدينين والفقراء. ونال الأدباء عنده حظوة. ومن الطبيعي أن يبكيه كل معتف وكل طالب معروف. ومن أجل ذلك قيل عنه "الطيب" وقيل عن ابنه المحسن "الخبيث" فابن الفرات كان "كريما ذا رياسة وكناية في عمله. وكان مصطنعا للنّاس. فإن جميع كتابه الذين اصطنعهم صاروا وزراء. وكان يجري على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوتات والفقراء"[٢٢].

والقصيدة بكلمة واحدة جمعت في أوصافها ما يخص الطيب وما يخص الخبيث. ففي "ب١ (**وكنت منا بمنزل الولد**): عبارة تختص بالدلالة على ابن الفرات الذي كان كثير الإحسان للناس. وفي "ب٢" (**هواك**): إشارة إلى أن كثيراً من النّاس تعلقوا به وأحبوه. وفي "ب ٣" (**تمنع عنا الأذى**): لكونه من أولي الأمر الوزراء الذين تقع عليهم مسؤولية حماية الناس.

ولعل الإشارة الواردة في "ب ٨" شديدة الوضوح لاتصالها بمحنة ابن الفرات الذي اتهم بأنه كان على صلة بالقرامطة. وابن العلاف فيما يبدو كان ينكر ذلك فقال:

وكــان يــجــري ولا ســـداد لـهـم
أمـــــرك فـي بـيـتـنـا عـلـى سـدد

بمعنى أن تلك العلاقة كانت ذريعة للتخلص من ابن الفرات. وفي قرارة نفس ابن العلاف شك بمصداقية هذه العلاقة. وهذا هو موجب الكتمان والتستر والاعتماد على الرمز والكناية هنا. ومما يؤكد هذه الدلالة قرائن أخرى وردت في متن القصيدة منها:

كـأنـهــم يـقـتـلـون طـاغـيـةً
كـان لـطـاغـوتـه مـن الـعـبـد
فـلـو أكـبـو عـلـى الـقـرامـيـط أو
مـالـوا عـلـى زكـرويـه لـم يـزد

ففي البيتين صورة من صور الاحتجاج على مقتل ابن الفرات. فقوله: (**كأنهم يقتلون طاغيةً**) ينفي عنه صفة الطغيان لأنه قال: (كأنهم). فقيل ابن الفرات كان بسبب علاقته بالقرامطة. وهذه ذريعة ملفقة عند ابن العلاف يشفُ عنها استحضاره ذكر القرامطة في البيت الثاني. لم تكن تلك الإشارة مصادفة: لأن نجم ابن الفرات هوى بعد أن قطع القرامطة طريق مكة على الحجيج وكان منهم نفر من أقارب المقتدر. وقد حُمّل ابن الفرات مسؤولية ذلك. وهنا نلاحظ أن القصيدة برمزيتها فيها استنكار واحتجاج على مقتل ابن الفرات لأنه كان من أهل الرئاسة والكرم والإحسان. كما فيها

تشف بما أصاب المحسن الذي طغى وتجبر. وفي الوقت نفسه توشحت بقناع الهر خوفاً من أن يدرك المقتدر مقاصد ابن العلاف. لأنه كان نديماً له. وعليه فإن الراجح في رمز الهر أنه عائد على ابن الفرات من جهة وعلى ولده المحسن من جهة أخرى.

٥-٢، تعيين الرموز وتأويلها بما يوضح دلالة الأيقونة:

يختزن النص عدداً من الرّموز التي تحوج إلى تعيين ما ترمز إليه. ومن ثم إيجاد ما هو مشترك بين المرموزات والأيقونة (الهر) التي قلنا إنّها ترمي إلى المشابهة مع ابن الفرات وابنه المحسن بحسب مجمل العلامات النصية التي تم إحصاؤها فيما سبق:

أ. لعل أهم الرموز التي انطوت عليها القصيدة ما جاء في ب ٢٦:

فلو أكبوا على القراميط أو

مالوا على زكرويه لم يزد

فزكرويه كما تعينه المصادر هو أبو القاسم يحيى القرمطي صاحب الشامة. وقد خرج أيام المكتفي "بجهة السماوة منة تسع وثمانين ومئتين. فقوي أمره وأشتدت شوكته ثم قتل على مقربة من دمشق. فخرج أخ له فصار يعترض الحجاج . . . فبعث إليه الخليفة حمدان بن حمدون التغلبي فآل الأمر أن قتل وصلب ببغداد فرجمه الناس"[٣٤]. وأما القرامطة فنسبة إلى" قرمط بن الأشعث لأنه كان يقرمط في خطه أو مشيه أي يقاربه. وكان يدعي أنه داعية المسيح وأنه الكلمة والدابة المذكورة في القرآن والناقة وروح القدس والمهدي المنتظر وزكريا.."[٣٥].

وثمة صلة كما وضحنا آنفاً بين ابن الفرات والقرامطة. وقد استغلت من قبل المقتدر للتخلص منه. وابن الفرات نفسه كان يتهم بعض خصومه بالقرمطية أمثال الوزير علي بن عيسى كما يشير ياقوت في معجمه[٣٦].

وجهة الدلالة تدور حول الواقعة التي أودت بابن الفرات وابنه المحسن لأنهما قتلا بسبب صلتهما بالقرمطية. غير أن القصيدة كما هو واضح تميل إلى الإشارة بأن ذلك من الأسباب الملفقة. فقتل المقتدر ابن الفرات وابنه أشبه بِترةٍ أو قصاص اقتصه منهما. فلو وقع زركويه نفسه بين يديه لم يفعل به أكثر مما فعله بالوزير وابنه.

فزركويه بمروقه على الدين وخروجه على السلطان لم ينل العقاب الذي لحق بابن الفرات. وهذا يبين فداحة الخطب الذي ألم بالمرثي. وهو معنى وإن لم يكن مصرحاً به إلا أن ذكر القرامط وزركويه في هذا الموضع يشف عنه ويستدعيه. ليتحول لفظ زركويه وهو رمز للطغيان هنا إلى أيقونة ترجحها العلامات النصية المماثلة لتجعل من ابن الفرات نظيراً للسنور الضعيف الذي لحق به عذاب أعظم مما كان قد ارتكبه من أخطاء.

ب: في ب ٣٥ ترميز بوساطة الاقتباس من القرآن الكريم في قوله:

كأن حبلاً حوى بحوذته

جيدك للذبح كان من مسد

فإشارته: (حبلاً من مسد) اقتباس من قوله تعالى: (في جيدها حبل من مسد)(المسد٥). غير أنّ ذلك الاقتباس يشي بغير المطابقة. أي ليست هنالك مطابقة بين كون الوزير قد ذبح ذبحاً واستدعاء تعبير الحبل. وقد دلت كلمة (الذبح) في البيت الأنف على شرود دلالة (حبلاً حوى جيدك). لأن المرثي لم يشنق بحبل

مقتول. وإنما ذبح كما تذبح الخراف على نحو ما صورت المصادر التاريخية. ومع ذلك فإن الاقتباس القرآني في هذا الموضع يثير إلى عظم فعل القتل. وهذه هي وظيفة

التشبيه هنا الذي يُحمل على جهة التمثيل. إذ المآل الذي آلت إليه أمور ابن الفرات من الخسران لا يفوقه خسران سوى خسران أبي لهب الذي لن تغني عنه أمواله في آخرته وهو يهوي في الجحيم. وهنا يبدو التعريض الصريح بابن الفرات وابنه على ما أشيع من إحسانه للناس. إلا أنه كان في حياته يدخر المال الكثير. وكذا ابنه المحسن الذي رأى في جمع المال حصناً منيعاً يسور به حياته. غير أن ذلك كله لم يغن شيئاً في أثناء محنته.

ج - ويأتي الترميز بالتمثيل أيضا في قوله في ب ٤٨:

فلم يبقُوا لنا على سُبد

في جوف أبياتنا ولا لبد

ليدل على ما كان يقدمه ابن الفرات في حياته للفقراء والمحتاجين والمتعلمين والعلماء من ذوي الحاجة ومستحقي الصدقات. إذ خلت بيوتهم بعد موته من القوت. معبراً عن ذلك بالمثل (ماله سُبد ولا لبد) فالسبد كما يقول ابن قتيبة الشعر والوبر يعني الإبل والمعز. واللبد:الصوف ويعني الغنم[٢٧].

د - ومن ضروب الترميز بالتمثيل قوله ب ٥٣:

أخنى على الدار فيه بالأمس

ومن قبلها أخنى على لبد

إذ تتركز الإشارة على حال من التشابه بين دار المرثي التي أخنى عليها الدهر ولبد آخر نسور لقمان. الذي يشكل في التراث العربي جانباً تنحل فيه عناصر مختلفة منها ما هو ثقافي تحول إلى رمز وأسطورة ومنها ما هو ديني وتفصيل ذلك ما عرضه اليوسي في قوله: " أنَّ عاداً لما بعث الله إليهم نبيهم هوداً فدعاهم فكذبوه فاحتبس القطر ثلاث سنين حتى جهدوا . فأوفدوا وفداً إلى البيت الحرام يستسقون لهم فيهم لقمان بن عاد ... وفيهم رجل يقال له يزيد بن سعد ... فقال لهم: والله لا تسقون حتى تطيعوا نبيكم فلم يجيبوه إلى ما قال. وقالوا لمعاوية بن بكر احبس عنا يزيد لا يدخل معنا مكة وهو على دين هود. فانطلقوا حتى دخلوا مكة وخرج يزيد وراءهم قبل أن يدعو بشيء فقال: اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا فقد هلكنا. فأنشأ الله سحائبَ ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء. ونودي من السَّحاب قيل: اختر لنفسك ولقومك قال: اخترت السوداء: لأنها أكثر السحاب ماءً. فنودي اخترت رماداً لا يبقي من آل عاد أحداً. فساق الله السحابة السوداء بما فيها النقمة على عاد...وسأل لقمان أنْ يُعمِّر فخيِّر بين عمر سبع بقرات سمر. ومن ظباء عُفر. في جبل وعر. لا يمسها القطر. وبين سبعة أنسر. كلما هلك نسر خلف بعده نسر. فاختار النّسور. فكان يأخذ فرخ النّسر من البيضة فيغذيه حتّى إذا هلك أخذ آخر. حتى بلغ السابع وهو لبد فكان يغذيه حتّى هرم ولم يستطع النهوض فأيقن حينئذ لقمان بالموت"[٢٨].

وقد أنشد لبيد في ذلك[٢٩]:

ولقد جرى لُبدٌ فأدرك جريهُ

ريبُ الزّمان وكان غير مثقّل

لما رأى لُبدُ النسور تطايرت

رفع القوادم كالفقير الأعزل

من تحته لقمان يرجو نهضةً

ولقد يَرى لقمان ألا يأتلي

إنَّ حكاية لقمان مع الأنسر شبيهة بحكاية ابن الفرات مع ولده المحسن.فكما رأى لقمان أن امتداد عمره لا يكون إلا بحياة الأنسر. من أجل ذلك كان يأخذ الواحد منها حالما يخرج من البيضة فيغذيه ويحوطه بالرِّعاية ليحفظ له البقاء أطول فترة ممكنة. كذلك كان ابن الفرات يرعى بنيه وعلى رأسهم المحسن. فحين زلت قدمه في وزارتيه الأولى والثانية أطلق يد ولده المحسن في أثناء توليه الوزارة الثالثة ليكون عوناً له إذا ما زحزح عن وزارته الثالثة فخرج منها خالي الوفاض. وهذه حال لحقت بكثير من ذوي الشأن والنفوذ قبل توليه، كالذي حدث مع أبي إسحاق الصابئ كاتب الوزير أبي محمد المهلبي الذي جرده عضد الدولة من أمواله وطرحه في السجن. ولما خرج منه لم يجد ما يستعين به على قضاء حاجاته. يقول في رسالة وجهها إلى الصاحب بن عباد: "فإن نوب الدَّهر تتردد مذ سنين عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق. منيخةً بنوازلها. ملقيةً بكلالها. كالحةً بوجوهها. كاشرةً عن أنيابها. لتعاقب الأيدي الوالية علينا. وتدرجها في الإساءة إلينا. وتزايدها في الفظاظة بنا. وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالنا. وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي. وصوني لنفسي. وبذلي دونها مالي. ووقايتي إياها بما ملكت يدي حيث لم أسأل المعونة أحداً. ولا سمحت أن أستميح مسوَّدا ولا سيداً. راجعاً إلى شيء مما يرجع إليه الناس من موروث تالد. ومكسب طارف. حتى انتهت مغارمي إلى نحو خمس مئة ألف درهم. لم يبق لي بعدها ضيعةٌ ولا منزلة ولا باطن ولا ظاهر"[٤٣].

ومثل ذلك ما حدث مع الوزير علي بن عيسى الذي تولى ابن الفرات الوزارة بعده وكان المحسن قد جرده من أمواله ثم قتله. ولهذا كان ابن الفرات يرى أنّ استمرار حياته منوطٌ بقوة ولده المحسن من بعده، كما كان يرى لقمان استمرار حياته بقوة أنسره ولاسيما لبد. وكذا نهاية الرجلين كانت متشابهة. أعني نهاية لقمان ونهاية ابن الفرات. إذ أبصر كلّ واحد منهما نهايته قبل موته. فلقمان تراءت له النهاية حين رأى نسره قد تثاقل وهرم ولم يعد يقوى على الطيران. وابن الفرات بدت له نهايته حين ذبح ولده المحسن ثم ألقي برأسه بين يديه. ومن هنا يتحول رمز النسر إلى أيقونة دالة على نهاية ابن الفرات بطريق التمثيل.

٣: الموضوعات المماثلة:

لابن العلاف مقطعان يذكر فيهما الهر إضافة لقصيدته المشهورة التي وقفنا عليها. الأولى يقول فيها:

يا رُبَّ بيت ربَّه
فيه تضايق مستقره
لما تكاثر فأره
وجفاه بعد الهجر هره
وسعى إلى برج امرئٍ
فيه الفراخ كما يسره
ظن المنافع أكلها
فإذا منافعها تضره

ويعزو الشاعر في هذه المقطعة سبب تسلق هره أبراج الحمام إلى الضيق وإلى الجفاء. وهذه الدلالة مخالفة تماماً لما جاء في قصيدته السابقة التي تكلم فيها على ألفة انعقدت بينه وبين الهر وقد دعاه ذلك لجعله بمقام الولد. ويقول في مقطعته الأخرى:

يا هر بعت الحقَّ بالباطل
وصرت لا تصغي إلى عاذل
إذا البيت البرج من خارج
طارت قلوب الطير من داخل
علماً بما تصنع في برجها
فهي على خوف من الفاعل
قد كنت لا تغفل عن أكلها
ولم يكن ربك بالغافل
فانظر إلى ما صنعت بعد ذا
عقوبة المأكول بالآكل
مازلت على مسكين مستقتلاً
حتى لقد منيت للقاتل
قد كنت للرحمة مستأهلاً
إذ لم يكن منك بمستأهل

وهذه المقطعة مرمزة وفي الموضوع نفسه الذي خصصه ابن العلاف لرثاء هره. ومن الملاحظ أن هاتين المقطعتين تخلوان من التعاطف ليستحيلا ضرباً من اللوم والتقريع والتشفي. وعلى كل حال فهما يعضدان الترجيح الذي ذهبنا إليه إذ صورة الهر هنا أيقونة تحولت إلى رمز لابن الفرات وابنه. وهذا هو فحوى الكناية التي لاحظها القدماء في القصيدة. ومن الطريف أن طريقة ابن العلاف في الاستعانة بالرمز والكناية والوشاح قد استمالت عدداً من الأدباء الذين نسجوا على منوالها كما صنع الاستاذ ابن العميد في قوله[١٦]:

يا هر فارقتنا مفارقة
عمت جميع النفوس بالثكل
لو كان بالحادثات لي قبل
إذا أتاك الصريخ من قبلي
يا مثلاً سائراً إذا ذكر الـ
ـحسن تركت الحسان كالمثل
وقيل هل تفتديه إن قبل الـدّ
هر فداء فقلت حيهل
أفديه بالصفوة الكرام ومن الأ
خوان دون الأخدان والخلل
بل بمحل الكرى ومعتلج الـ
ـفكر وحب القلوب والمقل
بل بسكون الوجيب يجلبه الأ
من إلى قلب خائب وجل
بل بحلول الشفاء بجنبه الصـ
ـحة بعد الأوصاب والعلل
بل ببلوغ المنى وقاصية الـ
ـبغية عفواً ونهبة الأمل

وواضح أنّ قصيدة ابن العلاف في ظاهرها وفي رمزيتها استحالت سياقاً تركت آثارها فيما بعد تلاها من شعر في هذا الموضوع.

٤. الخاتمة:

بعد العرض الذي تقدم لابد من تدوين جملة من الملحوظات لتكون بمنزلة النتيجة التي آل إليها هذا المبحث على النحو الآتي:

١ - من الواضح أنّ دالية ابن العلاف المشهورة في رثاء الهر فيها ثراء دلالي. وهي من القصائد النادرة في الأدب العربي التي تحلت بكثافة إيحائية هامة. ومع أنّ طرافة الموضوع كافية للصعود بها لتحتل حيزاً مكيناً في الذاكرة الأدبية. إلا أنّ ثنائية الظاهر والباطن قد شحنت طاقاتها الكنائية لتغدو على جانب كبير جداً من الخطورة والأهمية. وتكمن تلك الأهمية في تعدد وجوهها. وهنا وجد الأدباء أنّ التعلق بظاهرها يكفي لجعلها فريدة في باب رثاء الحيوان. وهذا أمر حقيقي لأن شاعراً في تاريخ العربية لم يقف في قصيدة تجوز في أبياتها الخمسين على رثاء حيوان لا يشغل كل هذه الأهمية في حياة الإنسان. فالهر بضعفه وما يمكن أن يؤديه من معونة لاينهض موضوعاً شعرياً بهذا الحجم الذي جاءت به قصيدة ابن العلاف. ثم إن أحداً لا يصدق بأن الألفة التي انعقدت بين الشاعر والسنور قد بلغت مبلغ الهوى. إذ التعلق الشديد بالهر يشي بأن وراء الأمر أمراً أعظم من أن يكون الموضوع الضخم الذي حملته القصيدة في هر كان عند أهله يتصيد الفئران ثم سولت له النفس ليسطو على برج الحمام فكان في سطوه هذا ختام حياته. والقصة من حيث الظاهر لا تحتاج إلى قصيدة بهذا الحجم كما أن الحادثة لا تكفي لشحن نفس شاعر مثل ابن العلاف

لينظم مطولته في هر مقتول. إذن هذه مجرد أقنعة تخفي رموزاً لا يحسن التصريح بها.

٢ - القصيدة لها حظ وافر من التخييل. بمعنى أنها تترك في نفس المتلقي سؤالاً محيراً لماذا الهر. ومن هو الهر الحقيقي الذي بعث مقتله في نفس الشاعر كل هذه الآلام لينظم قصيدة فريدة من حيث ما صرحت به أو رمزت إليه؟ إن الخيال هو الشعر كله. أو إنه أول ما تتفتق به القريحة وآخر ما يبقيه الزمان من ظلال القصيدة التي تتراءى من وراء سجف لا تتناهى من الأضواء. وهو العنصر المتبقي من كل تجربة في الفن تتجسد في تصاوير ورموز باقية تشبع نهم القارئ إلى الجمال السري العميق الغامض. ومن ثم يأتي التخييل الذي تحصله النفس من بقايا الصور التي تنثرها القصيدة في محاولة لانبعاثات تدب فيها الروح مع الدلالة المتجددة. وهنا يغدو قلب القصيدة ممثلاً بالرمز. ومجال التخييل ممثلاً بالمرموز له. أعني أنّ جمال القصيدة يترجح بين الهر والمحسن وابن الفرات وهؤلاء جميعاً كانوا موضوعاً لقصيدة ابن العلاف بصورتها الظاهرة وفي قراراتها على حد سواء. ثم يجيء فعل القراءة في كل زمن ليسلط الريح العاتية على النصر لتتحرك بواطنه وتطفو درره على السطح. فيرى فيه ما كان مستورا. ليبلغ التأويل مداه. ومع ذلك لا يمكن للقراءة الجديدة أن تقول كلمتها النهائية عقب كل تأويل لأن وراءَ المعاني معاني أُخر. وخلف ظواهرِ النّصوص بواطنَ لا تحصى من أجل ذلك لم يكن بيد القراءة سوى مفاتيح الأسئلة التي لا تتناهي في ضوء ما هو متاح اليوم من إمكانية انفتاح النصوص بما فيها النصوص القديمة التى نراها ميدانا لكثير من تساؤلات النقد الحديث.

الحواشي

١ - الجاحظ (الحيوان). تحقيق عبد السلام هارون. ط بمصر ١٩٤٧م. ص ١/ ٤٥.

٢ - قاسم. سيزا وادريس. قاسم (أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة) ص: ٢٠٨.

٣ - مرتاض. عبد الملك (التحليل السيميائي للخطاب الشعري) ط. اتحاد الكتاب العرب. دمشق ٢٠٠٥م.

٤ - بدوي. محمد جاهين (سيميائية التناظر والتقابل في شعر ابن زيدون- النونية نموذجاً) حوليات كلية آداب القاهرة ٢٠٠٤م.

٥ - يوسف محمد (الدلالات المفتوحة - مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة). نشر الدار العربية. منشورات الاختلاف ٢٠٠٥م.

٦ - مرتاض. عبد الملك (التحليل السيميائي للخطاب). ص: ٣٩.

٧ - أثبت الصفدي (ومن جُرد) وقال: يقولون لداء يحدث في قوائم الدواب جَرَد والصواب جرذ بالذال معجمة وهذا قول أهل اللغة إلا أن ابن دريد قال في الجمهرة: لا أدري بالدال هو أم بالذال (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف). للصفدي. نشره فؤاد سزكين. فرانكفورت. ١٩٨٥. ص:٢٢/ ١٢٣).

٨ - النقاش. رجاء (شاعر يرثي قطة) منتديات التاريخ. صحيفة إلكترونية. نشرت بتاريخ ٩/ ٧/ ٢٦ ١٤هـ.

٩ - المرجع السابق.

١٠ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) تحقيق د. إحسان عباس ط دار صادر. بيروت. ص٥٠/ ٣٤٢.

١١ - ابن منظور (هرّ).

١٢ - ابن طيفور (بلاغات النساء). تحقيق أحمد الألفي. القاهرة١٩٠٨م. ص: ٢١٠.

١٣ - ابن عبد القرطبي (بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس) نشره محمد مرسي الخولي بمصر ١٩٨١م. ص١٤٠.

١٤ - الثعالبي (ثمار القلوب في المضاف المنسوب). تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. طبع بمصر ١٩٦٥م. ص: ٣٢١.

١٥ - الزمخشري (ربيع الأبرار) طبع بمصر ١٢٩٢هـ. ص: ١٣١.

١٦ - الصفدي (نكت الهميان في نكت العميان). طبعة أحمد زكي وآخرون. مصر ١٩١١ ص:٢٣٤.

١٧ - النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) ط بمصر ١٩٩٠م ص : ١٢/ ١٢٣

١٨ - المصدر السابق

١٩ - المصدر السابق

٢٠ - المصدر السابق

٢١ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) ص ٤٠/ ٣١٢.

٢٢ - النويري (نهاية الأرب) ص : ١٢/ ١٢٤.

٢٣ - الصفدي (نكت الهميان) ص: ٢٣٥.

٢٤ - ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ط القاهرة ١٩٦٣م ص : ٤/ ٢٢١.

٢٥ - ابن خلكان (وفيات الأعيان) ص :٥/ ٢٢١.

٢٦ - ياقوت (معجم الأدباء) تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٩٣م ص: ٤/ ٢١٧

٢٧ - ابن قتيبة (أدب الكاتب) ط ليدن١٩٠١م ص:٣/ ١٤.

٢٨ - اليوسي. نور الدين (زهر الأكم في الأمثال والحكم). تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر. الدار البيضاء ١٩٨١.ص : ٣٢٤.

٢٩ - الزمخشري (المستقصى في أمثال العرب) ط بيروت ١٩٧٧م ص ٣٠٤.

٣٠ - أرسلان. شكيب (المختار من رسائل الصابئ) ص٢٦٥.

٣١ - الثعالبي (يتيمة الدهر)ص ٢/ ٢٣١.

المصادر والمراجع:

١ - أرسلان شكيب : المختار من رسائل الصابئ. طبع دار النهضة ١٩٦٠م.

٢ - ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة). طبع القاهرة ١٩٦٣م.

٣ - الثعالبي. أبو منصور: (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم طبع بمصر ١٩٩٥م.

٤ - الثعالبي. أبو منصور: (يتيمة الدهر). تحقيق مفيد قميحة. ط ١. طبع الدار العلمية. بيروت ١٩٧٣م.

٥ - الجاحظ. عمرو بن بحر: (الحيوان). تحقيق عبد السلام هارون طبع بمصر ١٩٤٧م.

٦ - ابن خلكان : (وفيات الأعيان). تحقيق إحسان عباس طبع دار صادر بيروت.

٧ - الزمخشري: (ربيع الأبرار) طبع بمصر ١٢٩٢هـ.

٨ - الزمخشري: (المستقصى في أمثال العرب). طبع ببيروت ١٩٧٧م.

٩ - الصفدي:(نكت الهميان في نكت العميان) طبعه أحمد زكي وآخرون مصر ١٩١١م.

١٠ - الصفدي. (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) نشره فؤاد سزكين فرانكفورت ١٩٨٥م.

١١ - ابن طيفور : (بلاغات النساء). تحقيق أحمد الألفي القاهرة ١٩٠٨م.

١٢ - ابن عبد البر القرطبي. (بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذاهن والهاجس) نشره محمد مرسي الخولي بمصر ١٩٨٠م.

١٣ - قاسم. سيزا و إدريس: (أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة) بيروت ١٩٨٦م.

١٤ - ابن قتيبة:(أدب الكاتب). طبعة ليدن١٩٠١م.

١٥ - مرتاض.عبد الملك: (التحليل السيميائي للخطاب الشعري) طبع اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٢٠٠٥م

١٦ - النقاش. رجاء: (شاعر يرثي قطة). مقال منشور في شبكة المعلومات صحيفة منتديات التاريخ الإلكترونية بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٩م.

١٧ - يوسف. محمد.(الدلالات المفتوحة - مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة). نشر الدار العربية للدراسات. ٢٠٠٥م.

١٨ - اليوسي. نور الدين: (زهر الأكم في الأمثال والحكم). تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر. طبع بالدار البيضاء.

الداعية المصلح و الرحالة الخطيب
الشيخ الفضيل الورتيلاني الأزهري الجزائري
[1318-1379هـ / 1900-1959م]

د. أحمد عيساوي
جامعة باتنة - الجزائر

تمهيد:

كتب الشيخ محمد الأكحل شرفاء يصف أستاذه الفضيل الورتيلاني فقال: ((.. إن نفس الورتيلاني العظيم من تلك الفئة الأولى الأصيلة: تلك التي تشبه المعدن الذهبي، ذلك الذي يصهر بالنار، ولكنه يخرج منها ألمع ما يكون بريقا، وأنقى ما يكون من الشوائب، وهذا نفس ما حدث للفضيل، فلقد مرت عليه كما تمر على الأفذاذ العباقرة، ظروف عابسة، حسبها الناس حجابا صفيقا بين ماضيه ومستقبله، ولكنها سرعان ما انقشعت كما تنقشع السحب الثقال عن وجه الشمس، فأشرف الورتيلاني من جديد على دنيا الإسلام والعروبة بالأضواء الكاشفة، فأنار طريق الكفاح من جديد، وفتح جبهة الجهاد من جديد، وتبوأ مركزه العظيم بين أساطين النهضة الإسلامية في العالم الإسلامي))[(*)].

المرحوم الشيخ الفضيل الورتيلاني شخصية فريدة من نوعها، ونوعية متميزة في عالم الدعوة والإصلاح الديني في الجزائر وفي العالمين العربي والإسلامي. وهو من أهم الشخصيات الدعوية والإصلاحية والسياسية والدينية الجزائرية في العصر الحديث؛ إذ لم تعرف الجزائر بين الجمع الغفير من علمائها ودعاتها ومصلحيها نمطا دعويا يشابهه في حله وترحاله، وأسلوبه وبيانه، وشجاعته وإقدامه، وتوكله وإيمانه.

وهو ظاهرة دعوية جديرة بالدراسة والتحليل، كما أنه ظاهرة إصلاحية جديرة بالتتبع والاقتفاء التحليلي والمنهجي، فقد عاش -يرحمه الله- نصف عمره في الجزائر متعلما ومعلما ومربيا وداعيا، كما قضى نصف عمره الآخر داعيا ومصلحا وخطيبا ومجاهدا متجولا في سبيل

التعريف والدعاية والنصرة للقضية الجزائرية في جميع أنحاء المعمورة، إلى أن توفي - يرحمه الله - في تركيا وحيدا غريبا عن وطنه، ووري التراب دون حضور الأهل والخلان. حتى تفطنت له الجزائر في عهد الرئيس السابق (الشاذلي بن جديد ١٩٧٩-١٩٩١م) فنقلت رفاته سنة ١٩٨٧م، ودفن في قريته بني الورتيلان بالقرب من مدينة سطيف.

ولعل إلقاءنا بعض الأضواء على بيئته وظروف عصره السياسية والثقافية، التي ولد وعاش ونشأ وتعلم فيها، قبل أن يهاجر بقضية الجزائر إلى سائر دول العالم ما يكشف لنا حقيقة المهمة الدعوية والإصلاحية الجسيمة التي اضطلع بها في حياته الجهادية الثرية .

بيئته وظروف عصره :

وسنعرض فيها لوضع الجزائر السياسي والثقافي والتربوي والاجتماعي بشيء من الدقة والعمق والتركيز، عامدين إلى الخلاصات والنتائج التي توصل إليها المؤرخون الجزائريون ضمانا لدقة التشخيص، ووضوح الرؤية القاتمة للفترة الحالكة التي مرت بها الجزائر غداة النصف الأول من القرن العشرين ١٩٠٠-١٩٥٨م، حيث عاش ودعا وجاهد ورحل وخطب الشيخ الفضيل الورتيلاني - يرحمه الله - في سبيل الإسلام والعروبة والجزائر إلى أن لاقى ربه مرضيا .

وضع الجزائر السياسي غداة القرن العشرين:

اختزل المؤرخ الجزائري الباحث الأستاذ الدكتور العلامة أبو القاسم سعد الله وغيره من الباحثين والمؤرخين الجزائريين وضع الجزائر السياسي في الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٠٠-١٩٤٠م في المحطات البارزة التالية :

١ - كانت الجزائر في غليان دائم ومستمر، ثم ظهرت فيها التمردات الثورية بحدة، وسادت فيها أيضا الاضطرابات السياسية، وعمتها النشاطات الثقافية والأدبية المتنوعة[١].

٢ - إن الاحتلال الفرنسي لم يخلق الوطنية، ولكنه أيقظها، وقواها بتوفير أسباب نضجها وبروزها.

٣ - لقد قامت هذه الوطنية برد فعل عنيف ضد الاحتلال الأجنبي ورغم حجم الإجراءات المضادة التي اتخذها الاحتلال لإضعافها حقبة، فإنها قد ظهرت مرة أخرى في آخر القرن الماضي مستعملة تكتيكا جديدا، وضغطا قويا ضد الاحتلال.

٤ - لقد كان إلحاق الجزائر بفرنسا سنة ١٨٣٤م، وإصدار قانون مجلس الشيوخ (سانتوس كونسيلت) سنة ١٨٦٥م، و(قانون الأهالي كود دولانديجان) سنة ١٨٨١م، وإنشاء محاكم الاضطهاد الخاصة (تربينو ريبريسيف) سنة ١٩٠٢م، والتجنيد الإجباري سنة ١٩١٢م، (كل ذلك) خرقا للاتفاق المبرم سنة ١٨٣٠م بين الجزائر وفرنسا، كما كان خرقا لجميع المبادىء الديمقراطية، التي تتبجح بها فرنسا صاحبة الثورة الفرنسية ومبادئها العادلة.

٥ - لقد كان الحكم الفرنسي في الجزائر حكما ردعيا، زجريا، قمعيا، اضطهاديا، وسلبيا أيضا..

٦ - يتحمل المستعمرون، وساسة فرنسا على قدم المساواة مسؤولية تردي أوضاع الجزائريين.

٧ - كانت مساعدات وإعانات القوى المناوئة لفرنسا للحركة الوطنية ضئيلة جدا، وغير حاسمة.

٨ - اعتمد الجزائريون على أنفسهم في تكوين حركتهم النهضوية الوطنية دون انتظار عون من أحد.

٩ - إن طلب الجزائريين المساواة مع الفرنسيين لم يكن ضد قيمهم الوطنية الأصيلة، بل كان مجرد وسيلة لحماية حركتهم من القوانين الاستثنائية، وهي في - حد ذاتها - حركة إيجابية الهدف منها مخادعة القوانين الزجرية الاستثنائية الفرنسية القاسية.

١٠ - لم يكن وجود الثقافة الفرنسية في الجزائر عامل إنعاش، وترقية للثقافة الجزائرية الوطنية - كما يدعي بعض الناعقين - بمقدار ما كانت عامل قمع، وقهر، ومطاردة.

١١ - إن عدم وجود قوة إقليمية كبرى، أو عالمية تنافس فرنسا على الجزائر، - مع اعتقاد فرنسا بكون الجزائر مقاطعة فرنسية تابعة لها - قد ساعد وساهم في عزلة الحركة الوطنية الجزائرية[١].

أما وضع الجزائر الثقافي والاجتماعي والتربوي واللغوي والديني... فلم يكن أفضل حالا من وضعها السياسي، ولعل إلقاءنا الأضواء عليه يبين لنا حالة التردي التي كان يرسف فها الجزائريون، ومنهم الشيخ الفضيل الورتيلاني يرحمه الله.

وضع الجزائر الثقافي غداة القرن العشرين:

أما وضع الجزائر والشعب الجزائري الثقافي واللغوي والديني والتعليمي والتربوي والفني فقد وصنه الباحث الدكتور عثمان سعدي بقوله: ((..لقد كان مخطط الاستعمار طوال وجوده بالجزائر مبنيا على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضمونها القومي والوطني لإحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها، وكان يشرف على تطبيق هذا المخطط كبار أساتذة الاستعمار الفرنسي، وهم متخصصون في كل العلوم الإنسانية وعارفون بالدقائق الخفية للتركيب النفسي والاجتماعي للفرد الجزائري، وكان هذا المخطط ذا حدين متوازيين متكاملين: الأول مباشر، وتمثل في غلق جميع الفرص أمام الجزائري، التي تمكنه من تعلم لغته الوطنية، وهذا يطبق في المدرسة على الخصوص.. والثاني غير مباشر تمثل في إفساد الذوق الفني الجزائري في الأغنية، والموسيقى، والمسرح، والأدب، وسهر على تطبيق هذه الخطة جهاز الإعلام الفرنسي المتطور..))[١].

ويضيف الدكتور عثمان سعدي مبينا مخطط الاستعمار الفرنسي مسخ وتشويه معالم الشخصية الجزائرية بقوله: ((..وكل المجهودات التي بذلتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حيال الفرد والمجتمع الجزائري في النواحي التربوية والتعليمية والثقافية، إنما هدفت بالأساس للقضاء على اللغة العربية أولا المقوم الرئيس للثقافة العربية والدين الإسلامي، وإلى تحويل الفرد الجزائري من لغته وثقافته ودينه إلى لغة المستعمر وثقافته ودينه..))[١].

وقد مرت في عمليتها التدجينية تلك، بواسطة مجموعة من الإجراءات والوسائل والأساليب، محولة الفرد الجزائري بالتدريج من فرد ناقم ومقاوم ومغالب للاستعمار، إلى فرد راض بالتعايش مع الاستعمار، ثم إلى فرد خاضع للاستعمار، ثم إلى فرد متميز بخاصية القابلية للاستعمار والاستذلال، ثم إلى درجة المسلم المطلق بحتمية الاستعمار الفرنسي عليه، وقدره المحتوم عليه وذلك عبر جملة من الأساليب والوسائل والإجراءات القهرية التي من أهمها:

١ - محاربة اللغة العربية محاربة استئصالية شديدة، وتقسيمها إلى ثلاث لغات: (عامية، قديمة، حديثة). وذلك بغية محوها من عالم الشهود الحضاري المحلي والإقليمي والعالمي.

٢ - محاربة الدين الإسلامي الحنيف، كدين متكامل - حمى الجزائر عبر فتراتها التاريخية المتلاحقة - والتقليل من شأنه، وتشويهه بشتى أساليب التشويه والمسخ.

٣ - اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في دارها وبين أهلها بموجب قانون الـ ٠٨/مارس/١٩٣٨م.

٤ - فرنسة مراحل التعليم، وطبعها بالطابع الأوربي المسيحي.

٥ - تشويه تاريخ الجزائر في ظل العروبة والإسلام، وضرب قيم الانتماء، ومقومات الهوية العربية الإسلامية للفرد وللمجتمع الجزائري.

٦ - عدم تدريس الجزائريين تاريخهم الوطني العريق العربي الإسلامي، وعدم تدريس جغرافية بلادهم والعالم العربي والإسلامي، والاستعاضة عنهما بتدريس تاريخ وجغرافية فرنسا وأوربا والصليبية، والوثنية اليونانية والرومانية البائدة[٥].

٧ - تقديم الثقافة المسيحية القوية الناهضة بديلا عن الثقافة العربية الإسلامية الضعيفة المهزومة .

٨ - ضرب ستار حديدي مقيد وعازل للجزائر عن وسطها الطبيعي وامتدادها العربي الإسلامي، وذلك بهدف عزلها حضاريا .

٩ - تضييق الخناق، وضرب الحصار، بالنفي، والتشريد، والسجن، والغرامات، وقيود التراخيص وغيرها .. على كل رجال الفكر، والعلم، والفقه، والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

١٠ - فرنسة الإدارة، ووسائل الإعلام، وجميع مجالات الفكر، والأدب، والفن، والثقافة، ومطاردة الثقافة العربية الإسلامية في جميع المجالات .

١١ - تعطيل النوادي العربية الحرة التي كانت تقوم بنشر اللغة العربية، وتربية النشء على القيم العربية الإسلامية الأصيلة .

١٢ - تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية لكل المسلمين الجزائريين وفرض الاحتكام إلى القوانين الوضعية الفرنسية، أو إلى العرف والعادات بالنسبة لبلاد القبائل .

١٣ - إخضاع جميع المؤسسات الدينية إلى السلطة الاستعمارية المباشرة، ورفض العمل بقانون فصل الدين عن الدولة .

١٤ - فتح الجزائر أمام البعثات التبشيرية المسيحية على اختلاف مذاهبها، وتمكين تلك البعثات من كل الأسباب المادية والمعنوية والبشرية والقانونية.

١٥ - القضاء على كل مراكز الثقافة العربية الإسلامية، من : جوامع، ومساجد، ومدارس، وزوايا، وكتاتيب، ورباطات، ومكتبات..[٦].

١٦ - تكوين جيل مشوه وممسوخ من الجزائريين لا صلة له بأمته، وتاريخه، ولغته، ودينه، ومجتمعه الجزائري، وذلك بدمجهم ضمن إطار الثقافة والقوانين الفرنسية ليصبحوا مسلمين فرنسيين مندمجين يشكلون جيوب تبعية للاستعمار الفرنسي في حالة وجوده ورحيله، وهو ما تم بالفعل بعيد استقلال الجزائر المظاهري سنة ١٩٦٢م.

وما كاد يمضي على الجزائر والجزائريين قرن

وثلث القرن من الاستعمار حتى كانت نسبة الأمية تشكل في رجاله ٩٥٪ . وفي نسائه ٩٨ ٪[١].

هذه هي حضارة أوربا المسيحية التي حملتها إلى العالم العربي والإسلامي لتحضيره وتمدينه. والتي تربى في أحضانها الأجيال والناشئة من أمثال الشيخ المرحوم الفضيل .

وعندما زارها الزعيم المصري الكبير الأستاذ (محمد فريد بك وجدي) ووصف واقع الجزائر والشعب والجزائري الثقافي مع مطلع القرن العشرين. الذي تناوله بكثير من الفهم والعمق والشجاعة والإسهاب. واضعا يده على الأسباب والدوافع الحقيقية والتاريخية له. ومما جاء فيه قوله: ((..كانت ربوع العلم آهلة بالطلاب. وجوامع القطر الجزائري ملأى بالمعلمين والمتعلمين. ودور الكتب عامرة بالمؤلفات. والمطالعين. واشتهر من بين أهل الجزائر كثير من الكتبة والمؤلفين. إلى أن أخذت هذه الحال تتبدل في أوائل القرن الماضي. وكان الفتح[٨] الفرنساوي الضربة القاضية. على العلم وأهله. بسبب اشتغال جميع الأهالي بمحاربة المغيرين على بلادهم. والدفاع عن ديارهم حقبة من الزمان. وما أعقب تلك المقاومة الشديدة من مصادرة الحكومة الفاتحة لأملاك أغلب العائلات الكبيرة. عقابا لها عن دفاعها عن وطنها. ومهاجرة الكثير من علمائها. ومثريها إلى البلاد الإسلامية الأخرى. ووضع الحكومة يدها على جميع الأوقاف الخيرية بلا استثناء. بما فيها المحبوسة على الجوامع والطلبة والمدرسين مقابل ترتيب مبلغ زهيد في ميزانيتها لما بقي من الجوامع بعد التي حولت إلى كنائس. أو هدمت لإصلاح طريق. أو بناء قلعة. أو استعملت ثكنة للجند أو غير ذلك. فأصبحت البلاد ولم يبق فيها من المدرسين بالجوامع إلا ما يعد على الأصابع. وقل الطالب والمطلوب. وهجرت ربوع العلم. وخربت دور الكتب. وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء. وكادت تدرس معالم اللغة العربية. كما تطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية. بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل: وهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وغيرها من السواحل والثغور..))[٩]

وفي ظل هذه الأوضاع الثقافية المتردية ولد وعاش وتربى وتعلم الشيخ الفضيل الورتيلاني وأمثاله. ومارسوا نشاطهم الدعوي والإصلاحي الشاق. الذي سنحاول - بعون الله - الكشف عنه في هذه الدراسة المتواضعة .

أصله ومولده ونشأته وتعلمه :

ولد السيد حسنين الفُضيل بن محمد السعيد بن فضيل الورتيلاني يوم ١٨/فبراير/١٩٠٠م في قرية [آنو] ببلدية بني ورتيلان بولاية سطيف. وكان مسجلا في بلدية [بوقاعة - لافاييت سابقا-][١٠].

وقد عاش في عائلة كريمة محافظة ذات علم ومجد ومكانة وفضل. فقد كان جده الأعلى لأبيه الشيخ الحسين الورتيلاني من أكابر علماء عصره. وقد ترك بعد وفاته العديد من المؤلفات الدينية. منها: [شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار]. و[الكواكب العرفانية والشوارق الأنية في شرح الألفاظ القدسية]. وهي قصيدة في علم التصوف للشيخ العلامة المالكي (عبد الرحمن الأخضري) صاحب السلم المرونق في علم المنطق وغيره من المؤلفات والشروح والحواشي القيمة[١١].

وفي تلك العائلة الفاضلة تربى الفضيل. فحفظ القرآن الكريم والمبادىء الأولية للعلوم العربية والدينية. وتتلمذ على يد العالم الفاضل الشيخ محمد السعيد البهلولي [١٢].

وقد وصفه حق الوصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فقال: ((.. ومعرفة الأستاذ الورتيلاني لا تتم، إلا بمعرفة نشأته وتربيته الأولى. فقد نشأ على مقربة من الفطرة السليمة. وتربى تربية دينية يتعاهدها المربي من والدين ومعلمين بالمحاسبة على الصغيرة والكبيرة، والمناقشة في الجليلة والحقيرة. فأيفع وشب مرتاض الطبع على المحاسبة والمناقشة والاهتمام والجد، مع توهج الإحساس، واشراف الروح وسمو الغاية. يعاون ذلك كله ذكاء متوقد. وبديهة مطاوعة في مجالات القول. ولسان كالسيف المأثور إذا لاقى الضريبة صمم. ومازالت تلوح على تفكيره ورأيه آثار من تلك التربية. يعرفها من يعرفها وينكرها من يجهلها..))[13].

وفي خريف من سنة ١٩٢٨م سافر إلى قسنطينة والتحق بحلقات ودروس الشيخ عبد الحميد بن باديس فتتلمذ على يديه، وبعد تخرجه تولى التدريس معه في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، فتخرج على يديه خلق كثير من التلاميذ، الذين اضطلعوا بالعمل الإصلاحي والثوري في الجزائر. وأعجب به الشيخ عبد الحميد بن باديس أيّما إعجاب، وصار يصطحبه معه أينما ذهب. ويتباهى به في كل مجلس. ويستخلفه في غيابه من بعده في شؤون التربية والتعليم والإدارة. كما كان يرسله ممثلا ونائبا عنه في الكثير من المناسبات التربوية والتعليمية والدينية والاجتماعية ..[14]

عوامل نبوغه :

اجتمعت جملة من العوامل الفطرية والمكتسبة لتجعل من شخصية الشيخ الفضيل الورتيلاني شخصية نابغة ومتميزة في عصره، وأهم هذه العوامل هي:

١ - انتسابه لأسرة كريمة ومحافظة مشهورة بالعلم والأدب والفضل.

٢ - تلقيه تربية دينية وأخلاقية صالحة، وبقاؤه وفيا لفطرته السمحة التي فطر الله الناس عليها. فلم يُعرف عنه التبديل أو التغيير أو التحريف أو الانزلاق..

٣ - ذكاؤه وفطنته وشجاعته وجرأته في الحق. وثراء قدراته ومواهبه الفطرية المتعددة .

٤ - حفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة، وحفظه للأحاديث والأخبار الصحاح، وتعلمه اللغة العربية.

٥ - تتلمذه على يد الشيخ المرحوم عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر من سنة ١٩٢٨-١٩٣٢م.

٦ - تقريب الشيخ عبد الحميد له وتوليته بعض المهام التربوية والتعليمية والدينية والصحفية والدعوية .

٧ - هجرته الدعوية المبكرة إلى فرنسا بتكليف من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتولي شؤون الجالية الجزائرية الأمية المهاجرة من سنة ١٩٣٦-١٩٤٠م .

٨ - تلقيه تعليما جامعيا عاليا في الأزهر الشريف من سنة ١٩٤٢-١٩٤٩م، وحصوله على شهادة العالمية في الشريعة وأصول الدين .

٩ - إقامته الطويلة والمثمرة في المشرق العربي منذ سنة ١٩٤٢م إلى وفاته سنة ١٩٥٩م .

١٠ -علاقاته وصداقاته العديدة مع رجال الدعوة والإصلاح الديني أمثال الشيخ المرحوم الشهيد [حسن البنا] والشيخ [محمد محمد رمضان] وسائر رجال جماعة الإخوان المسلمين، وجماعة

الشبان المسلمين وجماعة عباد الرحمن .. ومع رجال الأدب والفكر والثقافة والفن .. ومع رجال السياسة ومن الرؤساء والقادة والزعماء. ومع رجال الإصلاح الإسلامي .

١١ - رحلاته الكثيرة في الشرق والغرب.

١٢ - انتماؤه لجماعة الإخوان المسلمين وتبوئه منصبا دعويا وقياديا وإرشاديا فيها.

١٣ - سرعة بديهته. وقوة حافظته. وبيان عارضته. وذرابة لسانه. وبلاغة خطبه وبيانه .

١٤ - عظيم إخلاصه وتضحيته وتفانيه في سبيل خدمة أمته ودينه ولغته وتاريخه العربي الإسلامي .

١٥ - نشاطاته السياسية المتعددة المحلية والإقليمية والعربية والعالمية وغشيانه النوادي والمجامع والمحافل خطيبا وداعيا .

نشاطه الدعوي والإصلاحي :

وبعد أن أمضى سنوات يدرس على يد الشيخ عبد الحميد في قسنطينة. ألحقه بسلك المدرسين التابعين لمدارس جمعية التربية والتعليم. وعهد له الشيخ سنة ١٩٣٣م بمتابعة ومراقبة وإخراج وتطوير مجلة (الشهاب). وظل كذلك إلى أن كلفته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمهمة الوعظ والإرشاد وهداية المهاجرين الجزائريين في فرنسا خاصة وأوربا عامة. فهاجر منتدبا من قبل الجمعية إلى فرنسا سنة ١٩٣٦م. وظل بها أربع سنوات يدعو إلى الإسلام واللغة العربية بين صفوف المهاجرين. ويستحث هممهم لطلب الاستقلال عن فرنسا. فخشيت الإدارة الاستعمارية من نشاطاته الدعوية والدينية فقررت الخلاص منه. ولكنه استغل أحداث الحرب العالمية الثانية وسقوط فرنسا بيد الألمان سنة ١٩٤٠م فهرب إلى مصر[٥].

وفي مصر كان له تاريخ حافل بالمآثر والأمجاد. كما كان سجله الدعوي والحركي والديني والعلمي عظيما في تلك الفترة. التي بدأها بمتابعة دراسته في جامع الأزهر. إلى حصوله منه على شهادة العالمية الأزهرية. ثم رئيسا ممثلا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مصر إلى غاية التحاق الشيخ البشير الإبراهيمي سنة ١٩٥٢م. ثم عضوا فاعلا في جماعة الإخوان المسلمين. وكثيرا ما كان الشيخ [حسن البنا] ينيبه في الخطابة عنه في الكثير من المناسبات ؛ ولاسيما دروسه ومحاضراته الإرشادية الأسبوعية. كما كانت له العديد من التدخلات والمشاركات النضالية السياسية والفكرية والأدبية والدينية في جماعة [الإخوان المسلمين]. و[جمعية الشبان المسلمين] بمصر وفي بعض الأقطار العربية الأخرى. وكذلك علاقته الإصلاحية والدعوية الوطيدة بجماعة [عباد الرحمن] ببيروت. التي اعترفت بجميله في خدمة الدعوة الإسلامية فطبعت مقالاته النارية الثائرة - التي كانْ يعرّف فيها بعدالة القضية الجزائرية الرازحة تحت نير الاستعمار الفرنسي - سنة ١٩٥٦م. ثم أعادت طباعتها سنة ١٩٦٣م. ثم شارك في ثورة اليمن ضد السلطان يحي حميد الدين سنة ١٩٤٨م. وحكم عليه بالإعدام مما اضطره للهرب إلى سورية ولبنان[٦].

ومع حلول سنة ١٩٤٩م قام الشيخ الفضيل بإنشاء مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة. وعمل به ممثلا للجمعية. وقد قام بعدها بالاتصال بقادة دول المشرق العربي والإسلامي. بهدف استقبال الطلبة الجزائريين للدراسة فيها. فلبت دعوته الكثير من الدول. التي توافد عليها

طلاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإتمام دراستهم العليا فيها[17].

ثم انضم إلى صنوف الثورة التحريرية من أول يوم. وقدّم هو والشيخ البشير الإبراهيمي بيان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من مصر المؤيد والمناصر للثورة التحريرية. وقدم الكثير من أجل التعريف ونصرة القضية الجزائرية. كما أكثر من الترحال في سبيل الجزائر، إلى أن انتقل إلى تركيا ممثلا للثورة الجزائرية فيها، وقد استطاع أن يبدل الموقف الرسمي والشعبي التركي فيها ليصبح مؤيدا للقضية الجزائرية العادلة[18].

وقد اشتهر بعذوبة لسانه وخطبه الرنانة ولاسيما خطبه السياسية منها. وكان عنيفا في خطبه ومقالاته وحواراته. وناريا في مهاجمة الطغاة والمستعمرين، وقاتلا في الإغارة على أعوانهم وخدمتهم وأذيالهم الكثيرين يومها في العالمين العربي والإسلامي وفي الجزائر خاصة. كما كان مندفعا فيما يدعو إليه. ومتحمسا فيما يعمل من أجله. وقد ترك لنا كتابه الشهير [الجزائر الثائرة] المطبوع في بيروت سنة ١٩٥٦م والذي أعيد طبعه ثانية سنة ١٩٦٣م، وقد ضم بعضا من مقالاته المنشورة في الصحف العربية والجزائرية[19].

وعليه يمكن تقسيم مراحل نشاطه الدعوي والإصلاحي إلى المراحل التالية :

١ - المرحلة الأولى ١٩٢٨-١٩٣٦م:

وهي المرحلة التي بدأت منذ التحاقه بالشيخ عبد الحميد بن باديس طالبا للعلم في حلقاته العلمية العامرة بالجامع الأخضر بقسنطينة وتنتهي بتكليف الشيخ له بالعناية والاهتمام بشؤون الجالية الجزائرية المهاجرة في فرنسا .

٢ - المرحلة الثانية ١٩٣٦-١٩٤٢م:

وهي المرحلة التي تبدأ بانتقاله إلى فرنسا ونشر الدعوة والتوعية في صفوف العمال المهاجرين فيها. وتنتهي أثناء الحرب العالمية الثانية وهربه إلى تركيا ثم إلى مصر .

٣ - المرحلة الثالثة ١٩٤٢- ١٩٤٩م:

وهي المرحلة التي التحق فيها بالقاهرة وانضم إلى الجامع الأزهر لمتابعة دروسه العلمية وتحصيله في نهاية المطاف على شهادة العالمية في الشريعة وأصول الدين سنة ١٩٤٩م .

٤ - المرحلة الرابعة ١٩٤٩- ١٩٥٩م :

وهي المرحلة التي تبدأ مع تأسيسه لمكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة سنة ١٩٤٩م بتكليف من الجمعية. وانخراطه في العديد من الجمعيات والمنظمات السياسية والاجتماعية والدعوية، وقيامه بالعديد من الرحلات التبشيرية لمستقبل الجزائر وقضيتها العادلة إلى حين وفاته .

نشاطه السياسي :

اضطلع الشيخ الفضيل الورتيلاني بنشاط سياسي ملفت للانتباه. ولم تكد تمر مناسبة سياسية عربية وإسلامية. إلاّ وكان له توقيع المشاركة فيها. فعندما أمضت مصر اتفاقية الجلاء مع بريطانيا سنة ١٩٥٤م سارع إلى تأكيد موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منها. ومما جاء في البرقية المرسلة إلى مكتب رئاسة الجمهورية المصرية بتوقيعه والشيخ البشير الإبراهيمي قوله: ((إن مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة، ليسره أن يبعث إلى سيادتكم بالتهنئة الحارة، على إرسائكم الحجر الأساسي لتحرير

مصر من المعتدين الغاصبين. وإن اعتقادنا في همتكم وعزيمتكم واتساع أفقكم. مع ما يتجدد في كل مناسبة من أقوالكم المتحدة. ذات الطابع العسكري البسيط. كل ذلك يجعلنا نأمل كل الأمل في أن يكون تحرير مصر على أيديكم وأيدي زملائكم الكرام. إنما هو بداية لتحرير جميع العرب وجميع المسلمين. وطريق معبد لجمع كلمتهم على الحق والخير. ليعيدوا تاريخ أسلافهم الأبرار. في إسعاد الإنسانية جمعاء.

وإن خير ما نذكركم به هو ما ذكرتم به نفسكم والناس. ذلك في كلمتكم الرزينة للمواطنين حين قلتم: "إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت. ومرحلة جديدة على وشك أن تبتدئ. هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا. وتعالوا نبني وطننا من جديد. بالحب والتسامح والفهم المتبادل".

وإن خير ما ندعو لكم به في هذه المناسبة هو نفس ما دعوتم به أنتم "اللهم أعطنا المعرفة الحقة. كي لا يستخفنا النصر وتدور رؤوسنا غرورا مع نشوته". إلى آخر ذلك الدعاء الحي الملائي. نسأل الله أن يستجيب لكم. وأن يسدد خطاكم. وأن يديم توفيقكم في خدمة العروبة والإسلام. والسلام.

عن مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة: [محمد البشير الإبراهيمي. الفضيل الورتيلاني][٢٠].

كما أصدر بالقاهرة رفقة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بيان الجمعية التاريخي المندد بسياسة وموقف فرنسا الاستعمارية. والمؤيد للثورة التحريرية منذ انطلاقتها الأولى.

وعندما حل الزلزال الكبير بمدينة [الأصنام - الشلف حاليا] الجزائرية شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤م سارع إلى إرسال برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يستعطنه فيها للتبرع لمنكوبي الجزائر. ومذكرا إياه بحالة التعليم السيئة في الجزائر. فبادر الرئيس جمال عبد الناصر بالرد عليه. وبتخصيص مبلغ عشرة آلاف جنيه لمساعدة منكوبي الأصنام[٢١].

كما كانت له علاقات وطيدة مع زعماء العالم وأحراره. فقد قابل مرة الزعيم الهندي [جواهر لال نهرو. والزعيم الباكستاني محمد علي جناح. والزعيم الأندونيسي أحمد سوكارنو]. وزعيم الجماعة الإسلامية السيد أبو الأعلى المودودي. ومع زعيم مسلمي الهند الشيخ أبو الحسن الرابع الندوي. وغيرهم من الزعماء السياسيين والدينيين.

منهجه ووسائله الدعوية والإصلاحية:

تنوعت أساليب الشيخ الفضيل الورتيلاني الدعوية والإصلاحية والتربوية والتغييرية. بحيث لم يترك وسيلة ناجعة يستطيع أن يوصل بها رسائله التوعوية إلا واستثمرها أيما استثمار. ويمكن حصر وسائله وأساليبه الدعوية والإصلاحية في الوسائل التالية:

١ - التربية والتعليم والتدريس في المدارس.

٢ - الخطب والدروس الدينية والمواعظ المسجدية.

٣ - الانخراط وتأسيس الجمعيات الوطنية والمحلية والعربية والإسلامية العالمية.

٤ - الكتابة في الصحف والمجلات العربية والإسلامية والجزائرية.

٥ - حضور المؤتمرات والندوات والتجمعات الخاصة والعامة.

٦ - ربط الصلة بالمشرق العربي لغة وروحا وانتماء .

٧ - إحياء قيم وماضي وتاريخ وأمجاد الجزائر في نفوس الشعب الجزائري .

٨ - محاربة الطرقية والبدعية، وكل أشكال الخرافة .

٩ - مقابلة الملوك والقادة والرؤساء العرب والمسلمين وزعماء أحرار العالم .

١٠ - الرحلات الإصلاحية الكثيفة في شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه .

وبهذه الوسائل والأساليب والطرق المتنوعة استطاع الشيخ الفضيل الورتيلاني - يرحمه الله - أن يدعو لقضية الجزائر العادلة، ويبشر لمستقبل الجزائر المشرق .. ولعلنا نلقي بعض الأضواء على أهم وسائله الإصلاحية وهي :

١ - العمل السياسي :

وقد تجلت نشاطاته السياسية في انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين، وجمعية الشبان المسلمين بمصر، وجماعة عباد الرحمن ببيروت، وفي رئاسته لمكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة من سنة ١٩٤٩-١٩٥٢م قبل التحاق الشيخ البشير الإبراهيمي بها، وفي عضويته الدائمة بمكتب المغرب العربي برفقة الشيخ [علال الفاسي] والمجاهد المغربي الكبير الشيخ [عبد الكريم الخطابي ت ١٩٧٣م] والشيخ [الشاذلي المكي التبسي الجزائري ت ١٩٨٨م]، وفي عضويته للجنة العليا للدفاع عن الجزائر التي تأسست بالقاهرة سنة ١٩٤٢م، وعضويته في جمعية الجالية الجزائرية، وجبهة الدفاع عن شمال أفريقيا التي أنشئت بمصر سنة ١٩٤٤م، وفي جبهة تحرير الجزائر التي أنشئت بلبنان في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤م، إلى أن أصبح ممثلاً لمكتب جبهة التحرير الوطني بتركيا سنة ١٩٥٨م[٢٢].

وكان الشيخ الفضيل الورتيلاني قد اتهم بمشاركته في ثورة اليمن التي قتل فيها الإمام يحي حميد الدين، ولكن تأكدت براءته من المشاركة في الثورة، وتبين أن الشيخ الفضيل تواجد في اليمن ساعة قيام الثورة فعفى عنه ابنه بقرار ملكي[٢٣].

٢ - الصحافة :

كتب الشيخ الفضيل الورتيلاني المئات من المقالات والرسائل والبرقيات والخواطر الثائرة، في سبيل نصرة القضية الجزائرية العادلة الرازحة تحت نير الاستعمار والعبودية، في الصحف الجزائرية والعربية والإسلامية، ولم تشغله قضية وطنه المغتصب فحسب، بل كتب في كل شؤون الوطن العربي والإسلامي الكبير الكثير من المقالات، وقد احتلت قضية فلسطين مساحة بارزة في كتاباته، ولعل تسليطنا الضوء على مقال له سنة ١٩٥٤م، جاء في صيغة نداء وندبة وتحسر تحت عنوان [هل يعرف العرب هذه الحقائق عن فلسطين -أنقذوا الممكن منها قبل نزول الغضب]، يبين لنا مكانتها لديه، وقد كتبه بعد أن كلفه المؤتمر الإسلامي العام بزيارة الأماكن المقدسة ومعايشة الفلسطينيين عن كثب لمدة ثلاثة شهور، ومما جاء في مقاله القيم قوله: ((.. أيها العرب، أيها المسلمون، إليكم أسوق الكلام مرة أخرى عن فلسطين، وأنا أعلم أنكم قد مللتم الكلام عن فلسطين، لأنكم ألفتموه من عشرات السنين، حتى ما بقي ضرب من ضروب البيان في النظم والنثر، إلاّ وقد مر على أسماعكم يحمل اسم فلسطين، ومأساة فلسطين، وكارثة فلسطين، والدعوة إلى

التضحية بالمال والأنفس في سبيل فلسطين. وإلى غير ذلك من صراخ وبكاء وعويل على فلسطين.

على أننا يوم كنا نملأ الفضاء بتلك الصيحات من الأقوال مزهوين كان اليهود يملؤونها بالأفعال صامتين متواضعين. فكأن القرآن الذي حكم بأشد المقت على الذين يقولون ما لا يفعلون. والذي جعل دليل صدق إيمان المؤمنين. الاستعداد بكل شيء، ولكل شيء. كأن هذا القرآن الكريم إنما أنزل باللغة العبرية. وعلى بني إسرائيل. ولم ينزل باللغة العربية. وعلى بني عدنان والمسلمين .

أما الذي أريد أن ألفت إليه الأنظار في هذه الكلمة المتواضعة. فأعتقد أنه خطير جدا. أو أعتقد أن مغزاه جديد على كثير من العرب والمسلمين. وينحصر هذا الجديد في أمور بلوتها بنفسي. ومن وقت قريب لم يتغير بعدها شيء ذو أهمية .

كان المؤتمر الإسلامي العام قد كلفني بدراسة أحوال اللاجئين. ودراسة أحوال المرابطين في القرى الأمامية. فاستجبت لرغبتهم وقضيت زهاء ثلاثة أشهر في ذلك الجو الرهيب. تعرفت فيه على ما في النفوس وعلى ما في العقول. ثم عرفت طبيعة الأرض الباقية في أيدي العرب وعرفت خطورتها وأهمية الاحتفاظ بها. ثم خرجت بحقائق في الآفاق وفي الأنفس. أعتقد أنها خطيرة جدا. ويجب أن يعلمها كل من يهمه أمر هذه البقعة المقدسة التي دفنت فيها كرامة العرب والمسلمين.

الحقيقة الأولى في الأنفس: وتتمثل في تلك المعنويات الجبارة التي ما يزال الإخوان الفلسطينيون رغم عظم المحنة يتمتعون بها. وإنها لثروة نادرة عن أن توجد أو تبقى طويلا في مجتمع قد ابتلي بأشنع كارثة عرفها تاريخ الإنسانية المهذبة. لقد أدركت بنفسي عظمة تلك المعنويات. وأدركتها عن اختبار واسع ومقصود. وجدت مئات الآلاف من اللاجئين. وفيهم من كان يسكن القصور ويقوم على خدمته الخدم والحشم. وجدتهم يسكنون في معسكرات موحشة. ربما كان بعضهم أيام العز يستنكف أن يجعلها حظائر للحيوانات. ورأيت سيدات مع بناتهن كالبدور. ربما كن حتى الأمس القريب في بيوتهن أشباه الملكات. رأيتهن على شكل طوابير ينتظرون الساعات الطوال أمام مكتب يديره أعداء العرب والفلسطينيين. ينتظرن بضعة أرطال من الدقيق المخلوط. تسلمه لهن محسنة من محسنات القرن العشرين. يسمونها وكالة الغوث .. إنما يطلبون في حماس وإلحاح إعدادهم للجهاد فقط. يطلبون سلاحا. ويطلبون ذخيرة. وهم يقنعون بعد ذلك بإحدى الحسنيين. إما نصر على الأعداء أو شهادة في سبيل الله.

والحقيقة الثانية متعلقة بالآفاق. أو بأرض فلسطين الباقية في أيدي العرب. هذه البقعة المقدسة يجب أن يعمل العرب لأهميتها ألف حساب.. وبناء على هذا فإني أعتقد أن اليهود يبيتون نية الاعتداء حتما على هذه البقعة الخطيرة. وأنهم مصممون على احتلالها على طريقة الأمر الواقع الذي جربوه مرارا فنجح .. وبعد فإننا نستطيع أن نخلص من هذا الاستعراض إلى الخلاصة الآتية. بيدنا حتى الآن قوتان لاسترداد فلسطين : الأولى معنويات أهلها. والثانية هي الأرض الباقية التي لا تزال بين أيديهم. فإذا لم ننجح في المحافظة عليها. فإن الطمع في استرداد فلسطين قبل قرون يصبح ضربا من الخرافة. ويجب أن يعلم المسئولون أن الاعتماد على غير الفلسطينيين لخوض غمار المعركة في الجولة الثانية. ينطوي على شيء كثير من الخيال وسوء التقدير. لأن الفرق بين معنويات الفلسطيني في هذه القضية بالذات وبين غيره. ولو

كان ذلك الغير عربيا، كالفرق بين النادبة والثكلى. ثم إن الفلسطيني أخبر الناس بطبيعة بلاده، فلقد يستطيع المائة منهم بفضل الخبرة أن يفعلوا ما لا يستطيع أن يفعله جيش قائم بذاته، ويكفي أن يعلم العرب اليوم أن الفلسطينيين يستطيعون أن يسرحوا ويمرحوا في داخل إسرائيل وفي تل أبيب ويافا وحيفا بالذات من غير أن يخشوا أدنى أذى من اليهود، بل من غير أن يكون لليهود أدنى علم بتنقلاتهم وتصرفاتهم، ولو أن الحكمة تجيز أن أتوسع في هذا الموضوع لضربت عشرات الأمثلة عن صنيع أولئك المجاهدين المغامرين .

وبعد فيا أيها العرب ويا أيها المسلمون: إن الفرصة لا تزال قائمة وفي استطاعتكم أن توهنوا عظم اليهود تمهيدا لإيقاف ظلمهم، ثم القضاء على روح الجشع والاعتداء فيهم، وإن لم تفعلوا فيوشك أن ينزل الله عقابه، ثم لا يصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . - الفضيل الورتيلاني -))[٢٤].

والمحلل لهذا المقال يتبين منه الكثير من الرؤى السياسية الاستراتيجية الصائبة في فكر الشيخ الفضيل يرحمه الله، من أهمها، تنبيهه إلى أهمية اضطلاع الفلسطينيين بعبء العمل الجهادي، وتنبيهه إلى أهمية الحفاظ على الجزء المتبقي من الأراضي العربية في فلسطين، وأهمية مقاومة العدو الصهيوني من الداخل .

٣ - الرحلات :

قام الشيخ برحلات عديدة شملت العديد من الدول، بدأها من أوربا سنة ١٩٣٦م، ثم زار كلا من سورية وتركيا ولبنان واليونان وإيطاليا وسويسرا ولكسمبورغ وبلجيكا وهولندا وانكلترا وإيرلندا وإسبانيا والبرتغال والمغرب، ثم عاد إلى بيروت واستأنف رحلاته باتجاه الشرق فزار كلا من الكويت والسعودية وإيران والبحرين وباكستان والهند وبورما والملايو وسنغافورة واندونيسيا . وفي إندونيسيا حضر العديد من المؤتمرات واللقاءات السياسية والدينية[٢٥] .

ولعلنا نقدم تغطية جريدة البصائر لرحلتيه الشهيرتين اللتين قام بهما إلى الهند واندونيسيا، ومما جاء في تلك التغطية الصحفية تحت عنوان: [بريد الشرق] المراسلة التالية: ((تلقينا من الأستاذ خليل أبو الخدود مدير مكتب وكالة إندونيسيا في بيروت هذه الأخبار الهامة الثلاثة، فنشرناها شاكرين رغم تأخر ورودها إلينا:

- دلهي - لمراسل وكالة أنباء إندونيسيا للنشر العربي.

وصل إلى عاصمة الهند الرحالة الإسلامي الكبير الأستاذ الفضيل الورتيلاني الزعيم المغربي الشهير . وفي يوم وصوله إلى دلهي قابل نائب رئيس الوزراء، لأن المستر نهرو كان متغيبا في رحلة داخلية، وقابل وزير المعارف مولانا أبو الكلام آزاد، وقد دار الحديث حول قضية شمال أفريقيا عموما والقضية التونسية والمغربية خصوصا، وتعهد المسؤولون الهنديون بالوقوف في صف القضية العربية العادلة، ثم عقد ندوة صحفية مع مراسلي وكالات الأنباء العالمية والمحلية، ثم استمر في رحلته فزار كلكتا، ومنها اتجه إلى باكستان الشرقية))[٢٦].

كما وافى مراسل وكالة أنباء إندونيسيا بخبر وصول الزعيم المغربي الرحالة الشيخ الفضيل الورتيلاني إلى جاكرتا، ومما جاء فيها: ((.. وصل إلى إندونيسيا الزعيم الإسلامي الكبير الأستاذ الفضيل الورتيلاني مندوبا عن مؤتمر العالم الإسلامي، وعن مؤتمر علماء المسلمين

المنعقدين في كراتشي عاصمة باكستان موفدا من قبل الهيئات السياسية في المغرب العربي، وألقى فور وصوله إلى جاكرتا محاضرة قيمة نقلت بالإذاعة، ثم توالت عليه الدعوات فسافر إلى جزيرة سومطرة لحضور مؤتمر نهضة العلماء، وخطب فيه ثلاثة أيام متوالية، كان لخطبه في المؤتمر دوي عظيم، واستطاع بلباقته وقوة منطقه وصادق إخلاصه أن يقرب وجهات النظر بين أركان حزب ماشومي الكبير الذي شاع سوء التفاهم بين صفوفه في الأيام الأخيرة، ثم دعي إلى أنحاء إندونيسيا فقام بجولة بربوعها كان لها أعظم الأثر، وكانت الإذاعات والصحف تنقل دائما أخباره، وقد اجتمع برئيس الجمهورية أكثر من مرة، وبرئيس الوزراء والوزراء، وكان محل حفاوتهم وإكرامهم جميعا..))[٦٠].

مؤلفاته :

لم يترك الشيخ الفضيل الورتيلاني بعد وفاته المؤلفات والمصنفات بسبب انشغاله بالعمل الدعوي والإصلاحي وتأليف قلوب الرجال، بالرغم من ثراء تجربته، وما تركه سوى مقالاته، التي تطوعت جماعة عباد الرحمن بنشره سنة ١٩٥٦م، ثم أعادت طباعتها سنة ١٩٦٣م ببيروت، وقد حدثنا الشيخ البشير الإبراهيمي عن مكانته العلمية والأدبية واللغوية والفنية والفكرية والثقافية لو أراد التأليف والكتابة والتصنيف، ولكن عرض علينا مشاريعه المستقبلية في التأليف، وكان رحمه الله ينتظر فرصة سانحة يستريح فيها ليدون فيها الكثير، ولكن المنية عاجلته فمات دون أن يدون شيئا، ومما جاء من كلام الشيخ البشير قوله: ((..ولكن الآفة التي أضاعت على الجمهور القارئ الاستفادة من آرائه وأحكامه أنه لم يدونها خصوصا في هذه الحقبة التي اختل فيها استقراره وامتحن بها بما يمتحن به الأحرار، وقد وقفت بحكم العلاقات الوثيقة بيني وبينه على عدة آراء له مدونة في قضايا العرب الخاصة وقضايا المسلمين العامة، أصاب في معظمها، وقرطس وربط المعلولات بعللها، وكشف عن خبايا لا يتأتى الكشف عنها، إلاّ للأقل من القليل من رجالنا، فألححت عليه أن ينشرها على الناس، مع توسع في بعضها بالشرح والتحليل مادام للتاريخ عند كل مفكر ذمام، وقد وعد بنشر ما تسمح به الظروف العامة بنشره ويسمح له وقته الخاص بإعادة النظر فيه، وتقويم كل أسلوبه، أما مذكراته في الأحداث العربية فهو يتربص بها ساحل الأمان واعتدال الزمان..))[٦١].

والظاهرة التي تميز علماء القطر الجزائري عن غيرهم من علماء الأقطار الإسلامية عموما، والمغاربية خصوصا قلة التصنيف والكتابة والتأليف، وتفضيلهم العمل الميداني الإحيائي في البيئة والواقع الاجتماعي، على العكس من غيرهم من العلماء الذين يكثرون من التصانيف كل حسب قدرته وطاقته وعمره وفنه .

ويعود سبب تواضع إنتاجهم النظري لعامل دعوي مهم انطلقوا منه بوعي وإصرار متميز ولاسيما خلال الفترة الاستعمارية البغيضة للجزائر ١٢٤٥-١٣٨٤هـ/١٨٣٠-١٩٦٢م، حيث غلبت على بيئتهم وفردهم ومجتمعهم عوامل التخلف والأمية والجهل والضياع، بسبب سياسة الاستعمار الهمجية التي سلطها عليهم، لمحو شخصيتهم، واغتيال هويتهم ووجودهم وحاضرهم مستقبلهم من

الخارطة العالمية. الأمر الذي استدعى حضورهم الدؤوب في الأنفس والواقع والوجود. وليعيدوا بذلك الحضور الشهودي في المساجد والمدارس والنوادي والأماكن الخاصة والعامة إلى الشعب الجزائري الضائع قسماته وخصائصه الدارسة. وبسبب القيود القمعية والقانونية التي كانت الإدارة الاستعمارية تفرضها على الحرف العربي المطبوع والمكتوب. ولولا حضورهم المستمر في المساجد وتلاوة القرآن بشكل دوري كل يوم بعد الصلوات وبشكل جماعي وفردي. وتدريسهم لعامة الناس. وعبر الحلقات العلمية المتخصصة لانتهى الإسلام من الجزائر بعد قرن من الاحتلال.

وانطلاقا من هذا التشخيص الواقعي لأمراض أمتهم تحتم عليهم التركيز على محاربة مظاهر وأسباب التخلف والجهل والأمية والضياع. وذلك بفتح الكتاتيب القرآنية. والمدارس العربية الحرة. والنوادي الثقافية والأدبية والفنية والرياضية والكشفية. والمعاهد المتوسطة والعالية. وبناء المساجد الحرة. وتقديم الدروس التوعوية العامة فيها للكبار. والدروس والحلقات العلمية المتخصصة للناشئة الصغار .

ولم يكونوا يكتبون إلاّ في الصحف والمجلات الخاصة بهم. أو التي تنتشر في العالم العربي والإسلامي. كصحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين [الشريعة. السنة. الصراط. الشهاب. البصائر]. أو بعض الصحف المستقلة كـ [النجاح الجزائرية] الصادرة بقسنطينة سنة ١٩١٩م والتي توقفت عن الصدور سنة ١٩٥٦م. و[الشعلة ١٩٤٧-١٩٤٩م] . و [المغرب العربي ١٩٤٧-١٩٤٨م]. أو بعض الصحف والمجلات العربية والإسلامية[٢٩].

فيعالجون في هذه الصحف قضايا وأمراض أمتهم. ويجيبون على فتاوى عامة. وينيرون درب السالكين. ويردون على المستعمرين. ويصححون أخطاءهم على الدرب. ويتجهون بالنصح والتوجيه لمن يتنكب الطريق.

إهماله لصحته ووفاته :

لقد كان بالفعل مريضا برسالته. ومتفانيا في الاهتمام بها. وهي رسالة ضخمة تنوء بالعصبة أولي القوة. تبتدىء بوطنه الصغير الجزائر. والمغرب العربي. ثم ترتقي إلى العرب وإلى المسلمين. ثم إلى الإنسانية كافة. وهو في الاستجابة لطلباتها التي لا تنتهي. والتي لا يرحم نفسه منها. فقد يشتغل الليل موصولا بالنهار.. إلى أن هانت حيويته. وخارت قواه. وتراجعت فتوته. وأصيب بالعديد من الأمراض فاعتلت صحته. فلقد أصابه مرض الربو وضيق التنفس والسكري. نتيجة الإرهاق. وتوجب عليه العلاج والسفر إلى أوروبا لإجراء عملية جراحية. ولكن اندلاع ثورة الجزائر أنساه كل شيء فظل في حركة دائبة حتى أسلم روحه لبارئها.

ولما استحكمت العلل فيه والأمراض نصحه بعض الإخوان بالسفر إلى أوروبا أو إلى تركيا للاستطباب فيها. وبحكم كونه كان ممثلا لجبهة التحرير الوطني الجزائرية بتركيا فقد اتجه إليها مباشرة أواخر سنة ١٩٥٨م. ولكنه لم يكد يبدأ العلاج فيها حتى حمل إلى المستشفى الكبير بأنقرة وفيها توفي يوم ١٢/مارس/١٩٥٩م من ثقل الأمراض المزمنة التي استشرت في جسده المجاهد والتي كان يعاني منها. وبها دفن. ثم نقلت رفاته إلى الجزائر يوم ١٢/مارس/١٩٨٧م[٣٠].

مميزات شخصيته :

تميزت شخصية الشيخ الفضيل الورتيلاني بين دعاة ومصلحي عصره بالكثير من الفرائد والقيم والأخلاق والسلوكات المثالية. ولعل وصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي له خير دليل. وخير شاهد على قيمة ومكانة وتميز هذه الشخصية. ومما جاء فيها قوله:

((.. والأستاذ الورتيلاني ابن بار من أبناء جمعية العلماء. وغصن من دوحتها الفينانة. فتح عينيه على شعاعها. وسار في الحياة من أول خطوة على هداها. وقضى عنفوان شبابه في أحضانها. وتخرج في العلم والعمل على قادتها. وبزّ الجياد القرّح في ميادينها. ورمى الغايات البعيدة بتسديدها. وراض عقله على التفكير الصائب. ولسانه على الحديث الصادق. في الإصلاح الديني الذي هو أساس مبادئها. فجذبه استعداده القوي منه إلى العمل في ميدان الإصلاح الاجتماعي. وجرته غيرته المحتدمة على وطنه إلى العمل للإصلاح السياسي. وهذه أنواع من الإصلاح متشابكة الأصول. متشابهة الفروع. تفصل بينها فواصل اعتبارية دقيقة. ولكن الأجرياء المقدمين يرونها متلازمة. متوقفا بعضها على بعضها. فلا يتم جزء منها. إلاّ بتمام جميعها. ومن هؤلاء ولدنا الفضيل. فلما ضاق عنه وطنه الأصغر. طار إلى وطنه الأكبر..))[٦١].

وقد وصف نزعاته البارزة الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله :

((.. والأستاذ الورتيلاني إنساني النزعة. ثم إسلاميها. ثم عربيها. ثم جزائريها. تتزاوج هذه النزعات في نفسه من غير أن تتغاير ولا تتضارب. وهو يحسن التأليف بينها. ويلبس كل واحدة لبوسها. ويبرزها في زمانها ومكانها فلا تتناقض ولا تتعاند. ولكن أبينها سمة هي النزعة الإسلامية. فهي التي تستبد بمعظم تفكيره. ثم تأتي النزعة العربية. فله في كل قضية من قضايا المسلمين رأي. وله في كل حدث من أحداث العرب حكم. وله في كل جو من أجواء زمنه متنفس..))[٦٢].

وقد وصفه الأستاذ الشيخ رفيق سنو مدير الشؤون الاجتماعية لجماعة عباد الرحمن وهو يضع خاتمة آثاره (الجزائر الثائرة) فقال: ((..الفضيل الورتيلاني. نشأ نشأة الصبا والحداثة في أحضان الفطرة الطاهرة. وفي أحضان الجبال الشماء. فاكتسب من الأولى قوة الروح. وصفاء العقيدة. والصلابة في الدين. ومن الثانية قوة الجسم ووثاقة التركيب. وسلامة الحواس. ثم نشأ نشأة الشباب في أحضان جمعية العلماء. ففتح عينه على الميادين العامرة بأبطالها. وفتح أذنيه على الأصوات المجلجلة بالعلم والإصلاح. من دروس عامرة بحقائق التنزيل والحكم النبوية. ومحاضرات بليغة في التاريخ الإسلامي والأدب العربي. تفيض بالبيان الساحر. وتتدفق بالبلاغة الساحرة. فنشأ مؤمنا متين العقيدة. حرا عميق الفكر. صريحا لاذع الصراحة. جريء اللسان في كلمة الحق. شجاع الرأي إذا جمعت الآراء وتخافتت. غيورا على وطنه غيرته على دينه. إذن فهو معدود من بواكير هذه النهضة المباركة في الجزائر. رافقها في جميع مراحلها وشارك - على فتوته - الشيوخ المحنكين في بنائها .

لازم الشيخ عبد الحميد بن باديس سنوات. فتأثر بمنازعه الخطابية. مواقفه في حرب الضلال. وسقيت ملكته بغيث ذلك البيان الهامي.

فأصبح فارس منابر، وحضر اجتماعات جمعية العلماء الخاصة والعامة، فاكتسب منها الصراحة في الرأي، والجراءة في النقد، والاحترام للمبادىء لا للأشخاص، ثم لابس السياسيين وغشي مجتمعاتهم، فرأى من زيغ العقيدة وزيف الوطنية، وانحلال الأخلاق، نقيض ما رأى من رجال جمعية العلماء، فثار عليهم ودهوا منه بباقعة، وكان الأستاذ الرئيس يقدر له - وهو في الحداثة - عواقب الرجال، ويتخيل فيه مخايل الأبطال، ويقول له كلما رأى منه مخيلة صدق : "لمثل هذا كنت أحسبك الحسا"، ثم جاوز البحر سنة ١٩٣٦م بموافقة من الأستاذ الرئيس ومني، ليرد على الضالين من أبناء قومه هداية الإسلام، وليرد على الناشئين هناك من أبنائهم ما أضاعه الوسط من دين ولغة، وليزرع في قلوب الأبناء والآباء معا حب الدين والجنس واللغة والوطن، وليعيد إلى الجزائر بذلك كله قلوباً تنكرت لها، وأفئدة هوت إلى غيرها، وغراسا أظمأها الاستعمار في مغارسه فالتمست الري والنماء في غيرها، فتتبعهم الفضيل في مطارح اغترابهم، وجمع شملهم على الدين، وقلوبهم على التعارف والأخوة، وجمع أبناءهم على تعلم العربية، وأسس في باريس وضواحيها بضعة عشر ناديا، عمرها هو ورفاقه الذين أمدته بهم جمعية العلماء بدروس التذكير للآباء والتعليم للأبناء، والمحاضرات الجامعة في الأخلاق والحياة، ونجح الفضيل في أعماله كلها، نجاحا عاد على المسلمين في فرنسا بالخير والبركة، وعاد على جمعية العلماء بالسمعة العطرة والدعاية الطيبة، وكان في ذلك المدة كلها، متصل الأسباب بجمعية العلماء، مراسلة واستمدادا، وإشارة واستشارة، وقد رجع في أثنائها إلى الجزائر .. وفي أواخر سنة ١٩٣٨م هاجر إلى مصر مستزيدا من العلم والتجارب، مستجمعا قوته للعمل في ميدان أوسع وجو أصفى، وكانت له المواقف المشهودة، والرحلات الموفقة إلى الأقطار العربية..))[٢٣].

تأثيراته الإصلاحية :

وصف الأستاذ المرحوم محمد المنصوري الغسيري نشاطات الشيخ الفضيل في مصر عندما زارها، وعدد تأثيراته الإصلاحية بقوله: ((.. جاء الأستاذ الرئيس إلى الشرق العربي الإسلامي فجال جولات موفقة واتصل بولاة أمور البلاد فوجه وأرشد ولفتهم إلى وجوب تقديم المساعدة لأبناء عمومتهم في الجزائر عن طريق التربية والتعليم، فاستجابوا حفظهم الله وجزاهم عن الإسلام والعربية خيرا ..))[٢٤].

وقد كتب عن مجهوداته وتأثيراته تلميذه الشيخ محمد الأكحل شرفاء يصفها ويعددها، فقال: ((.. إن نفس الورتيلاني العظيم من تلك الفئة الأولى الأصيلة: تلك التي تشبه المعدن الذهبي، ذلك الذي يصهر بالنار، ولكنه يخرج منها ألمع ما يكون بريقا، وأنقى ما يكون من الشوائب، وهذا نفس ما حدث للفضيل، فلقد مرت عليه كما تمر على الأفذاذ العباقرة، ظروف عابسة، حسبها الناس حجابا صفيقا بين ماضيه ومستقبله، ولكنها سرعان ما انقشعت كما تنقشع السحب الثقال عن وجه الشمس، فأشرف الورتيلاني من جديد على دنيا الإسلام والعروبة بالأضواء الكاشفة، فأنار طريق الكفاح من جديد، وفتح جبهة الجهاد من جديد، وتبوأ مركزه العظيم بين أساطين النهضة الإسلامية في العالم الإسلامي..))[٢٥].

وقد وصف تأثيراته الأستاذ الشيخ رفيق سنو

مدير الشؤون الاجتماعية لجماعة عباد الرحمن وهو يضع خاتمة آثاره (الجزائر الثائرة) فقال: ((.. حضرت كثيرا من مجالس الورتيلاني مع رجال السياسة، ابتداء من رئيس الجمهورية إلى رؤساء الوزراء، إلى الوزراء والنواب والزعماء والصحفيين، فكان في كل ذلك محل إكبار وإعجاب، فكان في كل ذلك أستاذا ومعلما وموجها، في كل لغة مشرقة، ومنطق رصين، وكان في كل ذلك تستوقفني منه ظاهرة ملازمة له عجيبة، وهو وفاؤه لوطنه الأول الجزائر والمغرب العربي، ولم أسجل له يوما العجز على خلق الفرصة، للتحدث عن آلامه وآماله، والدعوة الحارة إلى نصرته ضد الاستعمار، وحضرت له كثيرا من المجالس مع رجال العلم والدين، من مسلمين ومسيحيين، فكانت تنجلي في لغته وأبحاثه معهم، معاني المساء في جمالها وجلالها، ويغمر جو الحاضرين حالة من الروحانية والتأثر، حتى كأنهم صاروا في جو من الصحابة والحواريين، وحضرته مع الشباب المثقف الشاك، ومع أهل العقائد السياسية من اشتراكيين وشيوعيين وقوميين ونقابيين، فكان هو ذلك المبرز في كل ميدان، المحترم من كل من ينشد الحق والاستفادة، وحضرته مع العوام والدراويش والأبضيات الأطهار، فكان يفهم عنهم ويفهمون عنه، حتى لكأنهم عاشوا في بيئة مشتركة، واصطلحوا على لغة واحدة، وفي ظني لو أن الرجل في مجموع مواهبه العظيمة قد كتب الله له الاستقرار في مجتمع واحد لمدة من الزمن كافية، لأمكن أن يخلق مجتمعا مثاليا بحق، ولكن آماله الواسعة في خدمة الإنسانية عامة، وتشتت جهوده في كل مكان من الشرق والغرب، وتغلب الأحوال السياسية والدولية في الأماكن التي يبتدىء فيها عمله، وحرمانه من مواصلته قبل أن يصل إلى هدفه الأخير، كل ذلك كان يقطع عليه الطريق في وسطه أو في آخره، ويضطره إلى العود لأوله، فيستأنف السير من جديد، وقد تكرر له ذلك في حياته مرارا، ولم ييأس ولم يفكر أن ينصرف نهائيا عن المتابعة والمحاولة، حتى في أسوأ الأحوال، وأقسى الظروف، لأن الكفاح في سبيل رسالته التي آمن بها، أصبح جزءا من حياته، ومرضا مزمنا غير قابل للعلاج..))[36].

مسرد الإحالات

(*) محمد الأكحل شرفاء، من أبطال الدعوة، جريدة البصائر، عدد ٣٥٨، ١٦/مارس/١٩٥٦م.

(١) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ج ١، ص ٥٦، وجمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث، منشورات متحف الجهاد، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م ص ١٨١ و ١٨٢.

(٢) سعد الله، أبحاث وآراء، ج ١، ص ٥٦ .. ٥٨.

(٣) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص ٩٣

(٤) المرجع نفسه، ص ٩٣ و ٩٤.

(٥) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ١٠٧ و ١٠٨.

(٦) المرجع نفسه، ص ٩٤ ... ٩٦، ١٩٦، ١١٥... ١١٩، ٢١١ ... ٢١٨.

(٧) تركي رابح، التعليم القومي، ص ٩٥.

(٨) لا يقصد الأستاذ فريد وجدي بك بمفهوم الفتح نفس الدلالات المعرفية المرادفة للفتح الإسلامي، بل وهو المفكر والزعيم الوطني والعربي - هو أبعد من أن يعد الغزو الفرنساوي فتحا بدلالاته الإسلامية.

(٩) محمد فريد بك وجدي. التعليم والمدارس في الجزائر. جريدة اللواء المصرية. عدد ٦١٢، ١٣/١٠/١٩٠١م. نقلا عن: تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح التربوي في الجزائر. ص ٩٧ و ٩٨.

(١٠) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ فضيل الورتيلاني. جريدة النصر الجزائرية. الثلاثاء ١٣/مارس/١٩٩٠م. ص ٥. من علماء الجزائر الأفذاذ - الشيخ الفضيل الورتيلاني -. جريدة الشرق الأوسط السعودية. عدد ٤٣٢١. الخميس ٢٧/٠٩/١٩٩٠م. ص١٤.

(١١) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ فضيل الورتيلاني. جريدة النصر الجزائرية. الثلاثاء ١٣مارس/١٩٩٠م. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. جريدة النهار الجزائرية. الجمعة ١٥/مارس/١٩٩١م. ص٨.

(١٢) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٣) محمد البشير الإبراهيمي. الدستور الإسلامي المنشود - رسالة الأستاذ الورتيلاني فيه -. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة السابعة. الجمعة ٢٨/ذوالحجة/١٣٧٣هـ الموافق ٢٧/أوت/١٩٥٤م. ص ١.

(١٤) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٥) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٦) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٧) محمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٨) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(١٩) وكالة الأنباء الجزائرية. في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني. ص ٥. ومحمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨. وعادل نويهض. معجم أعلام الجزائر. ص ٣٤٠ و٣٤١.

(٢٠) مكتب جمعية العلماء بالقاهرة. جريدة البصائر. السنة السابعة. السلسلة الثانية. الجمعة ٠٩/ربيع أول/١٣٧٤هـ ١٥/نوفمبر/١٩٥٤م. ص ٤. وانظر: البيان التاريخي الصادر عن مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة من توقيع الشيخ البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني. نقلا عن: الفضيل الورتيلاني. الجزائر الثائرة. دار الهدى. قسنطينة. الطبعة الأولى. ١٩٩٢م. ١٥٤ .. ١٥٦.

(٢١) حول زلزال الأصنام. من جمعية العلماء الجزائريين إلى الرئيس جمال عبد الناصر. جريدة البصائر. السلسلة الثانية. السنة السابعة. عدد ٢٨٨. الجمعة ١١صفر/١٣٧٤هـ الموافق ٠٨/اكتوبر/١٩٥٤م. ص ١.

(٢٢) محمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(٢٣) جريدة البصائر. عدد ١٧٤. سنة ١٩٥١م. نقلا عن عيون البصائر للشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. الطبعة الثانية. ١٩٧٨م. ج ٣. ص ٦٨٧. وانظر أيضا براءة الزعيم الورتيلاني. جريدة البصائر. السلسة الثانية. السنة الثالثة. عدد ١١٩. الإثنين ٢٨/رجب/١٣٦٩هـ ١٥/ماي/١٩٥٠م. ص ٧.

(٢٤) الفضيل الورتيلاني. هل يعرف العرب هذه الحقائق عن فلسطين - أنقذوا الممكن منها قبل نزول الغضب. جريدة البصائر. السنة السابعة. السلسلة الثانية. عدد ٢٨٦. الجمعة ٢٤/محرم/١٣٧٤هـ الموافق ٢٧/سبتمبر/١٩٥٤م. ص ٧ و ٨. بتصرف.

(٢٥) محمد مصباح. الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان. ص ٨.

(٢٦) بريد الشرق. الأستاذ الرحالة المغربي الفضيل الورتيلاني في الهند وباكستان. جريدة البصائر. السنة الخامسة. السنة الثانية. عدد ١٩٥. الإثنين ١٥/شوال/١٣٧١هـ الموافق ٠٧/جويلية/١٩٥٢م. ص ٣.

(٢٧) بريد الشرق. الأستاذ الفضيل الورتيلاني في إندونيسيا وسومطرة. جريدة البصائر. السنة الخامسة. السنة

الثانية، عدد ١٩٥، الإثنين ١٥/شوال/١٣٧١هـ الموافق ٠٧/جويلية/١٩٥٢م، ص ٣ .

(٢٨) محمد البشير الإبراهيمي، الدستور الإسلامي المنشود - رسالة الأستاذ الورتيلاني فيه -، جريدة البصائر، السلسة الثانية، السنة السابعة، عدد ٢٨٢، الجمعة ٢٨/ذوالحجة/١٣٧٣هـ الموافق ٢٧/أوت/١٩٥٤م، ص ١ .

(٢٩) تعريف بالصحف التي كتب فيها الشيخ الفضيل الورتيلاني :

❖ جريدة النجاح (١٩١٩ - ١٩٥٦) أول صحيفة عربية تأسست بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت يومية في أول أمرها ثم تحولت إلى أسبوعية، وكانت على صلة بوكالة (هافاس) العالمية، وهي صحيفة إخبارية جامعة، أدارها ورئس تحريرها عبد الحفيظ بن الهاشمي ، ثم انضم إليه إسماعيل مامي الصحفي والكاتب القسنطيني، ولم يكن لها اتجاه سياسي، إلا الربح المادي، ولذا فقد سخرتها الإدارة الاستعمارية فترة لمحاربة الصف الإصلاحي، انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص٤٣ و٤٤.

❖ جريدة المنتقد (١٩٢٥) جريدة أسبوعية صادرة بقسنطينة، رئس إدارتها الشيخ أحمد بوشمال ، ورئس تحريرها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي جريدة تمثل الخط الإصلاحي الاجتماعي، وقد دل عليها شعارها فهي جريدة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية ، وشعارها (الحق فوق كل واحد ، والوطن قبل كل شيء) ولهجتها الحادة مع الإدارة الاستعمارية عطلتها بعد أربعة أشهر من صدورها، وبعد أن صدر منها ثمانية عشر عددا، وقد صدر العدد الأول يوم ٢/٧/١٩٢٥م الموافق ١١/ذي الحجة/ ١٣٤٣هـ، والعدد الأخير منها يوم ١٠/ربيع ٢ /١٣٤٤هـ الموافق ٢٩/١٠/١٩٢٥م، انظر، محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص ٥٣ و٥٤.

❖ جريدة السنة النبوية (١٩٣٣) تعتبر أول جريدة تصدرها جمعية العلماء لتكون اللسان الناطق باسمها، وقد ظهر العدد الأول منها يوم ٨/ذي الحجة/١٣٥١هـ الموافق ٣/٤/١٩٣٣م وكانت تصدر أسبوعيا كل يوم اثنين تحت إشراف وإدارة الشيخ عبد الحميد بن باديس ورئاسة تحرير كل من الشيخ الطيب العقبي، والشيخ محمد السعيد الزاهري، وجاءت لترد على صحف جمعية علماء السنة المعيار، التي ظهرت بداية ١٦/١٢/١٩٣٢م، والإخلاص التي ظهرت بداية ١٩/١٢/١٩٣٢م، وأوقفت يوم ١/٧/١٩٣٣م بعد أن صدر منها ثلاثة عشر عددا، انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص١٣٠.

❖ جريدة الشريعة (١٩٣٣) التي صدر العدد الأول منها في ١٧/٧/١٩٣٣م الموافق ٢٤/ربيع أول/١٣٥٢هـ وقد كانت امتدادا لجريدة السنة المعطلة، ولم يصدر منها غير سبعة أعداد، حتى جاء قرار تعطيلها يوم ٢٩/٨/١٩٣٣م.

❖ جريدة الصراط السوي (١٩٣٣ - ١٩٣٤)، التي ظهر العدد الأول منها في ١١/٩/١٩٣٣م الموافق ٢١/جمادى الأولى/١٣٥٢هـ وكانت امتدادا لسابقتيها الشريعة والسنة المعطلتين، وقد صدر منها العدد السابع عشر حتى عطلتها الإدارة الاستعمارية في يوم ٨/١/١٩٣٤م، لمواقفها ولخطها الإصلاحي المصر على نشر الفضيلة والعلم، ومحاربة الرذيلة والجهل، انظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص ١٨١.

❖ جريدة المغرب العربي (١٩٤٧ - ١٩٤٨) الصادرة بالجزائر العاصمة تحت إدارة ورئاسة وتحرير محمد السعيد الزاهري.

❖ جريدة الشعلة (١٩٥١- ١٩٥٢م) صدرت الشعلة لمدة سنة واحدة، وقد ظهر منها (٥٣) عددا، وهي موجودة بمصلحة الأرشيف بولاية قسنطينة مع غالبية الدوريات والجرائد والمجلات العربية والفرنسية لتلك الحقبة في قسم الجرائد والمجلات.

❖ جريدة الوطن موجودة بمكتبة الشيخ العربي التبسي بمدينة تبسة، وقد أخبرني عمال المكتبة أن الأعداد تلك من ملك الشيخ العربي التي كان يرسلها له صديقه الأستاذ فرحات عباس.

❖ جريدة الأسبوع التونسية موجودة بمكتبة الشيخ العربي بمدينة تبسة، والأعداد هي من مخلفات مكتبة الشيخ

رحمه الله الذي كانت تصله الكثير من الجرائد العربية. وقد وجدت في مكتبته الكثير من الجرائد والمجلات العربية كالرسالة لأحمد حسن الزيات والصادقية.

❖ جريدة المنار الجزائرية الصادرة بمدينة تونس. والتي كانت معبرة إلى حد كبير عن توجهات حزب الشعب. واستمرت في الصدور لمدة ثلاث سنوات ١٩٥١-١٩٥٣م طبعت مؤخرا في الجزائر

❖ هذه الصحف موجودة بمركز أرشيف ولاية قسنطينة، وفي المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة.

(٣٠) وكالة الأنباء الجزائرية، في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني، ص ٥. ومحمد مصباح، الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان، ص ٨. في عهد الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد نقلت رفاته وبأمر منه بعد أن قبل مشورة أحد المستشارين الطبيبين، الذي أشار عليه بضرورة إعادة رفاته المهاجرة، نظرا لما فيه من سمعة ومكانة للجزائر. ففعل يرحمه الله مشكورا.

(٣١) جريدة البصائر، عدد ١٧٤، سنة ١٩٥١م. نقلا عن عيون البصائر، الشيخ البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٦٨٨.

(٣٢) محمد البشير الإبراهيمي، الدستور الإسلامي المنشود - رسالة الأستاذ الورتيلاني فيه -، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السابعة، عدد ٢٨٢، الجمعة ٢٨/ذوالحجة/١٣٧٣هـ الموافق ٢٧/أوت/١٩٥٤م، ص ١.

(٣٣) الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، ص ٤٧٧ و٤٧٨.

(٣٤) محمد المنصوري الغسيري، مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية، جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، عدد ٢٤٠، الجمعة ٠٢/محرم/١٣٧٣هـ الموافق ١١/سبتمبر/١٩٥٣م، ص ٨.

(٣٥) محمد الأكحل شرفاء، من أبطال الدعوة، جريدة البصائر، عدد ٣٥٨، ١٦/مارس/١٩٥٦م، نقلا عن الجزائر الثائرة، ص ٤٦١.

(٣٦) الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، ص ٤٧٠ و٤٧١.

قائمة المصادر والمراجع

١ - المصادر :

(١) الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، قسنطينة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

(٢) الفضيل الورتيلاني، هل يعرف العرب هذه الحقائق عن فلسطين - أنقذوا الممكن منها قبل نزول الغضب، جريدة البصائر، السنة السابعة، السلسلة الثانية، عدد ٢٨٦، الجمعة ٢٤/محرم/١٣٧٤هـ الموافق ٢٧/سبتمبر/١٩٥٤م، ص ٧ و ٨، بتصرف.

(٣) بريد الشرق، الأستاذ الرحالة المغربي الفضيل الورتيلاني في الهند وباكستان، جريدة البصائر، السنة الخامسة، السنة الثانية، عدد ١٩٥، الإثنين ١٥/شوال/١٣٧١هـ الموافق ٠٧/جويلية/١٩٥٢م، ص ٣.

(٤) بريد الشرق، الأستاذ الفضيل الورتيلاني في إندونيسيا وسومطرة، جريدة البصائر، السنة الخامسة، السنة الثانية، عدد ١٩٥، الإثنين ١٥/شوال/١٣٧١هـ الموافق ٠٧/جويلية/١٩٥٢م، ص ٣.

(٥) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ج ٢

(٦) وكالة الأنباء الجزائرية، في ذكرى رحيل الشيخ الورتيلاني.

٢ المراجع :

(١) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ج ١.

(٢) جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث، منشورات متحف الجهاد، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

(٣) عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

(٤) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح التربوي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٣ - الصحف والمجلات :

(١) جريدة البصائر، عدد ١٧٤، سنة ١٩٥١م .

(٢) محمد المنصوري الغسيري، مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية. جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السادسة، عدد ٢٠٠، الجمعة ٠٢/محرم/١٣٧٣هـ الموافق ١١/سبتمبر/١٩٥٢م، ص ٨.

(٣) محمد البشير الإبراهيمي، الدستور الإسلامي المنشود - رسالة الأستاذ الورتيلاني فيه -. جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السابعة، عدد ٢٨٢، الجمعة ٢٨/ذوالحجة/١٣٧٣هـ الموافق ٢٧/أوت/١٩٥٤م، ص١.

(٤) محمد الأكحل شرفاء، من أبطال الدعوة. جريدة البصائر، عدد ٣٥٨، ١٦/مارس/١٩٥٦م .

(٥) براءة الزعيم الورتيلاني، جريدة البصائر، السلسة الثانية، السنة الثالثة، عدد ١١٩، الإثنين ٢٨/رجب/١٣٦٩هـ ١٥/ماي/١٩٥٠م، ص ٧ .

(٦) مكتب جمعية العلماء بالقاهرة، جريدة البصائر، السنة السابعة، السلسلة الثانية، الجمعة ٠٩/ربيع أول/١٣٧٤هـ ١٥/نوفمبر/١٩٥٤م، ص٤، وانظر: البيان التاريخي الصادر عن مكتب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقاهرة من توقيع الشيخ البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني.

(٧) حول زلزال الأصنام، من جمعية العلماء الجزائريين إلى الرئيس جمال عبد الناصر. جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة السابعة، عدد ٢٨٨، الجمعة ١١/صفر/١٣٧٤هـ الموافق ٠٨/اكتوبر/١٩٥٤م، ص ١ .

(٨) محمد فريد بك وجدي، التعليم والمدارس في الجزائر، جريدة اللواء المصرية، عدد ٦١٢، ١٣/١٠/١٩٠١م . نقلا عن :

(٩) جريدة النصر الجزائرية، الثلاثاء ١٣/مارس/١٩٩٠م، ص ٥ .

(١٠) من علماء الجزائر الأفذاذ - الشيخ الفضيل الورتيلاني -، جريدة الشرق الأوسط السعودية، عدد ٤٣٢١، الخميس ٢٧/٠٩/١٩٩٠م، ص ١٤ .

(١١) وكالة الأنباء الجزائرية، في ذكرى رحيل الشيخ فضيل الورتيلاني، جريدة النصر الجزائرية، الثلاثاء ١٣/مارس/١٩٩٠م، ص ٥ .

(١٢) محمد مصباح، الشيخ العلامة الورتيلاني ملحمة كفاح مازالت تقاوم النسيان، جريدة النهار الجزائرية، الجمعة ١٥/مارس/١٩٩١م، ص ٨ .



صناعة المخطوط الأندلسي : البَيَاضي آخر الوَرَّاقين في الأندلس

عبد العزيز الساوري

الرباط - المغرب

قال أبو حامد العربي الفاسي: والنِّسَاخَةُ حِرْفَةُ النَّسْخِ، وهيَ الوِرَاقَةُ، وكُلُّ مَنْ جَعَلَ النَّسْخَ حِرْفَةً يَحْتَرِفُهَا، أوْ شُغْلاً يَشْتَغِلُ بهِ لِنَفْسِهِ فَهُوَ نَسَّاخٌ وَوَرَّاقٌ أيْضاً[1].

دفعني إهمال المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات والتراجم وغيرها للبَيَاضِي إلى محاولة التعرف إليه وصُنْعِ ترجمته من خلال استقراء عدّة مخطوطات - نمتلكها اليوم - مكتوبة بخطِّه الجميل المتقن، ومُذَيَّلَة بإجازاته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لم يُعرف - لحد الآن قديما أو حديثا - تأليف أو بحث يستوعب سيرته أو صناعته في الوراقة.

فمن هو البياضي[2] :

هو : علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البَيَاضي الأنصاري، من أهل بَلِّش[3]، ويكنى أبا الحسن. درس في المدرسة النصرية اليوسفية في غرناطة. ثم رحل إلى أرض العدوة، فسكن مكناسة الزيتون، ووَلِيَ بها خطابة الجامع الأعظم. وتوفي بها سنة ٩١٢ هـ، ودفن خارج باب البردعيين[4] أحد أبواب مكناسة بروضة الولي الوفي الصالح أبي محمد عبد الله بن حمد[5].

بيت آل البياضي :

أجاز المُجَاري لوالد أبي الحسن البياضي رواية برنامجه. وهو أبو القاسم قاسم بن علي بن محمد ابن أحمد الذي حلاَّه بـ "الشيخ الفقيه الخطيب المعظم الماجد الأكمل الأفضل".

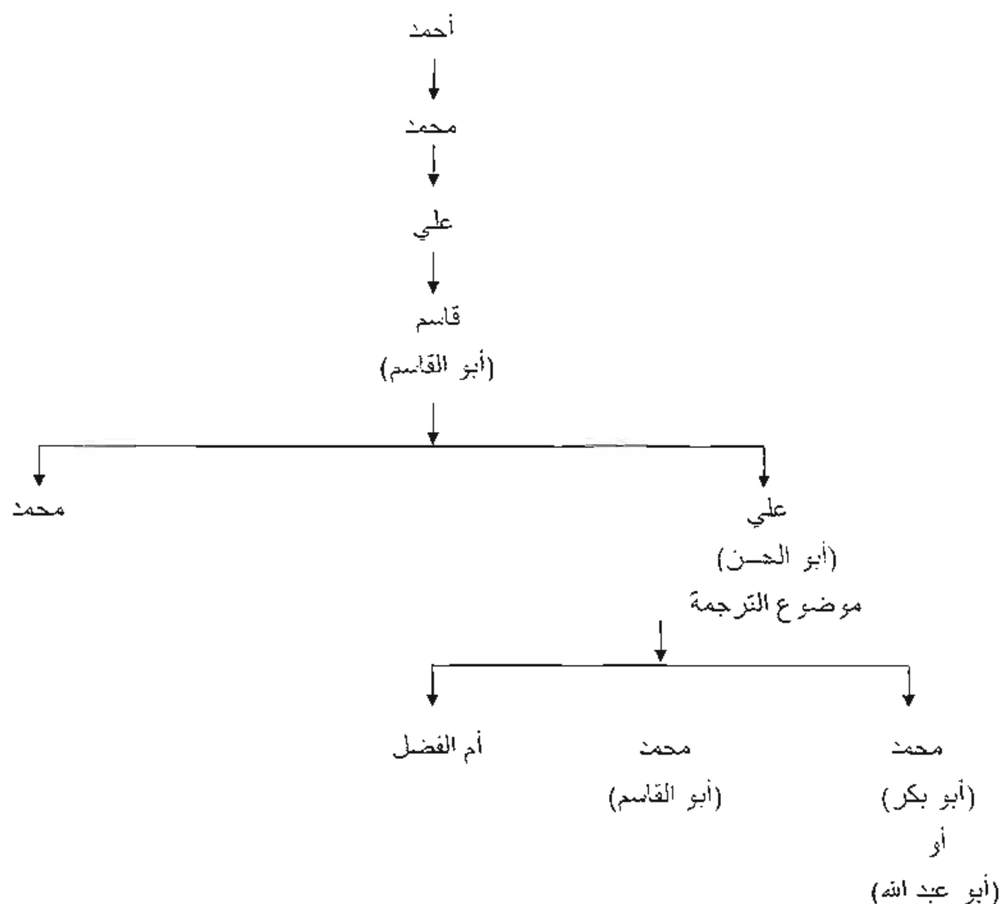
كما أجاز المُجَاري رواية برنامجه لأخيه محمد ابن أبي القاسم بن علي بن محمد البياضي.

وكانت إجازتهما مع ورّاقنا هذا في رجب سنة ٨٥٨ هـ. كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

ولورّاقنا أبي الحسن البياضي ثلاثة أولاد. هم: أبو بكر محمد. وأبو القاسم محمد. وأم الفضل.

وقد أجازهم أبو عبد الله المواق جميعا برنامج شيخه المِنْتَوْري. وحدَّثهم بأول حديث سمعه من شيخه عند أول مجلس جلسه بين يديه، وهو: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء). وتاريخ هذه الإجازة هو عام ٨٧٦ هـ، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

وفيما يلي تشجير لبيت آل البياضي:



شيوخه وإجازاته:

١. أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المُجَارِي (توفي سنة ٨٦٢هـ)[٦]:

حَلاَّه أبو الحسن علي البياضي بـ "الشيخ الفقيه، الإمام القدوة، الأستاذ المتفنن، المقرئ الصادر عنه في تلاوة كتاب الله العزيز من الإتقان والحفظ، وتحقيق المخارج، وتجويد اللفظ، ما صَيَّرَهُ عَلَم أعلام القُرَّاء، وأحقَّ أهل زمانه بالتصدي والتصدر للإقراء، الحاج الرحال المسند الجليل"[٧].

وقد طلب البياضي من شيخه أن يجيزه ما يحمله من الأسانيد والمرويات، فأسعفه في ذلك، يقول: "فإني سألت الشيخ الفقيه ... أبا عبد الله محمد بن محمد بن علي المُجَاري رضي الله عنه وأرضاه، وسلك بي وبه بر هدايته ورضاه، أن يجيزني ما يحمله رواية من الكتب عن شيوخه الأئمة الأعلام، مصابيح ليل المشكلات، ومفاتيح أغلاق المقفلات، الذي لقيهم وأخذ عنهم من أهل الأندلس والمشرق رضي الله عنهم ورحمهم، فأسعفني في ذلك وأجابني إليه، رغبة في الأجر وحرصاً عليه"[٨].

[إجازة المجاري برنامجه لأبي الحسن البياضي ووالده وأخيه]

"الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله،

سأل مني الطالب الأنبل الحافظ الفهم النبيه المجتهد: أبو الحسن علي بن الشيخ الفقيه الخطيب المعظم الماجد الأكمل الأفضل أبي القاسم بن علي بن محمد بن أحمد الشهير بالبياضي تولّى الله حفْظَهُ، وأجزل من ثواب العلم حَظَّهُ، أن يحمل عَنِّي برنامجي هذا بعدَ أن قرأه بلفظه قراءة مقابلة وتصحيح، فأجبتُه لذلك إسعافاً لقصده، ومراعاة لخلوص وُدِّه، وأجزْتُ له أن يرويه عني وأن يرويه من شاء، إجازةً تامة شاملة له ولوالده، ولأخيه محمد، أقرَّ الله فيها عَيْنَ أبيهما، ولكل ما يصح عنده أنه داخل في روايتي على الإطلاق والعموم، وبالشرط المعلوم، قال هذا وكتبه بخطه عبيد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المُجَارِي لطف الله به وغفر له، وأصلح قوله وعمله، وفي أواخر رجب الفرد المبارك من عام ثمانية وخمسين وثمانمائة، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى"[٩].

٢. **أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البَسْطِي الشهير بالقَلَصَادي (توفي سنة ٨٩١ هـ)[١٠]:**

أجازه سائر تواليفه في صفر سنة ٨٨٥ هـ، وكان البياضي قد عارض معه كتابه شرح فرائض ابن الشاط سنة ٨٨٠ هـ.

٣. **أبو عمرو محمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبيد الله بن محمد بن منظور القَيْسي (توفي سنة ٨٨٨ أو ٨٨٩ هـ)[١١]:**

أجازه تأليفه المُسَمَّى "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" في العاشر من صفر عام ٨٧٧ هـ.

[إجازة أبي عمرو ابن منظور" وصية الناصح الأود" لأبي الحسن البياضي]

"الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على رسول الله تعالى.

يقول كاتبه أبو عمرو محمد بن محمد بن محمد ابن محمد بن عبيد الله بن محمد بن منظور القَيْسي - وفقه الله تعالى ولطف به بمنّه -: قرأ عليَّ الفقيه الأرضى، الأصلح الأتقى، المجتهد الأسنى ، الأبر الأسمى، الخطيب الأزكى، السري الماجد الفاضل أبو الحسن علي ابن الشيخ الفقيه الخطيب الأصلح الأكمل أبي القاسم البياضي - أعزه الله - وكان صلح قوله وعمله، جميع هذه الوصية التي ألَّفتها وسمَّيتها: "وصية الناصح الأود في التحفُّظ من المرض الوافد إذا وفد" قراءة تصحيح لها، وختمها وصححها، وأجزت له أن يرويها عَنِّي، وقد كتبت له قبل هذا إجازة عامَّة مطلقة تامة، والله ينفعه باجتهاده، ويبلغه في العلم والعمل به منتهى قصده ومراده، ويجعله من خير عباده، وكتب المجيز بذلك خطه مسدلا منه بتاريخ اليوم العاشر من صفر عام سبعة وسبعين وثمانمائة، عرَّف الله خيره وبركته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا"[١٢]. أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العَبْدَرِي الشهير بالمَوَّاق (توفي سنة ٨٩٧ هـ)[١٣]:

أجازه رواية كتابي شيخه المنتوري، وهما: شرح الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، وبرنامج روايته، وتاريخ إجازته لهما هو أواخر ذي الحجة الحرام عام ٨٧٦ هـ.

ولما صنَّف المواق كتابه: "سَنَن المُهْتَدين في مقامات الدين" أرسله إلى أبي الحسن علي ابن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري في أوائل صفر عام سبعة وثمانين وثمانمائة مع ولده أبي عبد الله محمد بن علي بن

قاسم بن علي البياضي الأنصاري رضي الله عنهم بمنّه. فقرّ له بأنه كلام حسن. فيه نكت ومعان أصولية وفقهية. وأنّ مؤلفه من أهل العلم والفهم والتخلق بطريق السلف[١٤].

منتسخاته :

وصفه ابن القاضي بأنه: "صاحب الخط الحسن"[١٥]. وكان البياضي جَمَّاعة للدواوين العتيقة. مغاليا بالدفاتر النفيسة. مواصلا للنسخ. مطبوعا فيه. مستحبا له. يعانيه على جميع حالاته. وكتب علماً عظيماً أحْسَنَ نَقْلَهُ مع حسن الخط نهاية في الإتقان والضبط. وقد نسخ بخطه كتباً حفيلة جليلة. منها :

١. **برنامج أبي عبد الله محمد بن عبد الملك ابن علي القيسي المنتوري المتوفى سنة ٨٣٤هـ[١٦]:**

(مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨. ضمن مجموع من ص ١ إلى ٢٣٣).

يقول البياضي: "نُجِزَ بحمد الله وعونه. وتأييده وتيسيره وصونه. تقييد هذا البرنامج المبارك. الغريب في نوعه ومنزعه. العجيب في مساقه ومهيعه. جرّد مؤلفه - نفعه الله - بتأليفه هذا. مآثر لأهل هذا الشأن في هذا القطر طمست. وأحيا بتصنيفه آثارا للإسناد درست. قصداً للانتفاع به. وتجديدا للرحمة على كل من سلف. وتوفيقا لقول الصادق عليه الصلاة والسلام. يحمل هذا العلم عدُولُه من كل خلف. بذل في ذلك غاية عزمه وجده. نفعه الله بنيته وقصده. على يدي مقيّده لنفسه. الدّاعي إلى الله تعالى في التجاوز عنه يوم انفراده في رمسه. ثم لمن شاء الله من بعده. عبيد الله تعالى الفقير إليه. المتوكل في أموره كلها عليه. علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري. وفقه الله وسدده. وأعانه وأرشده. وغفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. إنه هو الغفور الرحيم. وذلك بمدينة بَلّش حرسها الله تعالى في الثلث الأول من ليلة الاثنين السادس والعشرين لشهر جمادى الأولى من عام ثلاث وسبعين وثماني مائة. بموافقة الثاني عشر لدجنبر الأعجمي. وكان ابتداؤه بعد صلاة عصر يوم الأربعاء الخامس عشر لربيع الثاني الفارط. بموافقة الثاني من نونبر الأعجمي"[١٧].

وفي أول ورقة منه إجازة مكتوبة بخط أبي عبد الله الموّاق. ملخصها يقول: إنه قرأ شيئا من برنامج شيخه المنتوري عليه وأنه ناوله جميعه. وهو بدوره يناول البرنامج ناسخه أبا الحسن البياضي. كما حدّثه بأول حديث سمعه من شيخه المنتوري عند أول مجلس جلسه بين يديه. وهو: (الراحمون يرحمهم الله). وتتضمن الإجازة أيضا تلقيم المواق للبياضي وولديه أبي بكر محمد وأبي القاسم محمد وذلك بسنده عن شيخه المنتوري. وفي هذه الإجازة كذلك مناولة للطفلة أم الفضل أخت المذكورين. وتاريخ هذه الإجازة هو عام ٨٧٦هـ.

٢. **برنامج أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي ابن عبد الواحد المجاري المتوفى سنة ٨٦٢هـ:**

(مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨. ضمن مجموع من ص ٢٣٧ إلى ٢٧٦)[١٨].

٣. **رحلة أبي الحسن علي بن محمد بن محمد ابن علي القرشي البسْطي الشهير بالقلصادي المتوفى سنة ٨٩١ هـ. والمسمّاة بـ: "تمهيد الطالب ومُنْتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب":**

(مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨، ضمن مجموع من ص ٢٨٢ إلى ٣٢١)[19].

"انتهى التقييد المبارك بحمد الله تعالى وعونه. على يدي مقيده لنفسه عبيد الله علي ابن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري. غفر الله ذنوبه، وستر في الدارين عيوبه. بتاريخ يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول الشريف من عام سبعة وسبعين وثماني مائة. بموافقة الثاني والعشرين من غشت الأعجمي. وكان مبدأ نسخه في الشهر الفارط صفر بمدرسة غرناطة أيدها الله"[20].

٤. تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد لأبي جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خَاتِمَة الأنصاري المتوفى سنة ٧٧٠ هـ[21]:

(مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٢٥٥ ك، ضمن مجموع من ص ١ إلى ٥٨، مبتور من الآخر)[22].

٥. كتاب قوى الأدوية المسهلة وطبائعها ومزاجاتها ومصالحها تأليف أبي زكريا يحيى ابن ماسويه الخوزي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ[23]:

(مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٢٥٥ ك، ضمن مجموع من ص ٦٠ إلى ٦٧).

٦. كتاب مختصر في الطب (غير مذكور مؤلفه):

يشتمل على مقالتين، الأولى: فيها ذكر جميع العلل من القرن إلى القدم، والثانية: في تفسير الأدوية للعلل الموصوفة في المقالة الأولى. وهو كامل جامع لعلم وعمل.

(مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٢٥٥ ك، ضمن مجموع من ص ٧٠ إلى ١٣٤).

٧. كتاب الأنواء لأبي إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ ابن سهل الزَّجَّاج النحوي المتوفى سنة ٣١١هـ:

(مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٢٥٥ ك، ضمن مجموع من ص ١٣٥ إلى ١٦٤)[24].

"كمل كتاب الأنواء، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيِّدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه، وذلك على يدي مقيِّده لنفسه ثم لمن شاء الله من بعده عبيد الله علي بن قاسم بن علي ابن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري لطف الله به لطفا يليق بفضله بمنّه وطوله، وذلك بعد صلاة العصر من يوم السبت الثامن عشر لشهر رجب الفرد من عام أحد وستين وثماني مائة، عرف الله خيره وبركته، بموافقة الحادي عشر من يونيه الأعجمي، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما"[25].

٨. وصيَة الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وَفَد لأبي عمرو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبيد الله بن محمد بن منظور القيسي المتوفى سنة ٨٨٨ أو ٨٨٩ هـ:

(مخطوطة بخزانة الفقيه محمد بن عبد الهادي المنوني - رحمة الله عليه - بالرباط، ضمن مجموع من ص ١ إلى ٢٣)[26].

"كملت الوصية المباركة، والحمد لله تعالى كما يجب لجلاله، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله، على يدي مُقَيِّدها لنفسه، بخط يده الفانية، المقر لله سبحانه بالوحدانية، عبيد الله الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري غفر

الله ذنوبه. وستر في الدارين عيوبه. وذلك بمدينة بَلِّش حرسها الله تعالى بعد الصلاة من يوم الجمعة التاسع لصفر من عام سبعة وسبعين وثماني مائة. عرف الله خيره. وبموافقة السابع عشر من يوليه الأعجمي. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما"[27].

٩. تقييد النصيحة لأبي عبد الله محمد بن علي ابن عبد الله اللخمي الشقوري (كان حيًا سنة ٧٧٦ هـ)[28]:

(مخطوط بخزانة الفقيه محمد بن عبد الهادي المنوني - رحمة الله عليه - بالرباط. ضمن مجموع من ص ٢٦ إلى ٣٣)[29].

"تمت بحمد الله وعونه. على يدي مقيدها لنفسه عبيد الله علي بن قاسم بن علي بن محمد ابن أحمد البياضي الأنصاري. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك بمدينة بَلِّش حرسها الله تعالى. وقت الزوال من يوم السبت العاشر لصفر من عام سبعة وسبعين وثماني مائة. عرف الله خيره وبركته بموافقة الثامن عشر من يوليه. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما"[30].

١٠. المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية لأبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي المتوفى سنة ٨١٦ هـ[31]:

(مخطوطة بخزانة الفقيه محمد بن عبد الهادي المنوني - رحمة الله عليه - بالرباط. ضمن مجموع من ص ٣٦ إلى ٤٩)[32].

"تمت المقالة بحمد الله وحسن عونه. على يدي مُقَيِّدها لنفسه بخط يده الفانية. عبيد الله علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري. لطف الله به لطفا يليق بفضله بمَنِّه وطوله. وذلك يوم الثلاثاء الموفي عشرين لشهر ربيع الأول المبارك من عام أحد وستين وثماني مائة. بموافقة الخامس عشر من شهر فبراير الأعجمي. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما"[33].

١١. لب الأزهار في شرح الأنوار لأبي الحسن علي ابن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقَلَصادي المتوفى سنة ٨٩١ هـ:

وكان ابتداء هذا التأليف بمدينة غرناطة في رمضان. وكماله بغرَّة جمادى الأولى عام ٨٧٦ هـ.

شرح فيه كتاب "الأنوار السَّنِيَّة في الألفاظ السُّنِّيَّة من الأحاديث النبوية" لأبي القاسم محمد ابن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الواحد بن يوسف بن سعيد بن جُزَيّ الكلبي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤١ هـ.

(مخطوط بخزانة المؤرخ عبد السلام بن سودة المريّ ببوقنادل)

وهو بخط أبي الحسن البياضي. في أول ورقة منه إجازة بخط القلصادي للبياضي شملت جميع تواليفه. وهي مؤرخة في صفر سنة ٨٨٥ هـ.

١٢. شرح الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك بن علي القيسي المِنْتَوْري المتوفى سنة ٨٣٤ هـ:

(مخطوط بخزانة جامع القرويين بفاس رقم ٢٣١).

وهو بخط أبي الحسن البياضي. في أول ورقة منه إجازة مكتوبة بخط أبي عبد الله المواق ملخصها: إنه يأذن لصاحبه الفقيه الخطيب الأتقى أبي الحسن البياضي أن يروي عنه شرح رجز ابن بَرِّي للمنتوري. كما يأذن في هذا لوَلَدَيْه

المذكورين وهما أبو القاسم محمد وأبو بكر محمد. وتاريخ الإجازة هو أواخر شهر ذي الحجة الحرام عام ٨٧٦ هـ.

١٣. **شرح فرائض ابن الشاط لأبي الحسن علي ابن محمد بن محمد بن علي القرشي البسُطي الشهير بالقلصادي المتوفى سنة ٨٩١ هـ:**

(مخطوط بخزانة جامع القرويين بفاس رقم ١١٩٨).

فرغ المؤلف من تعليقه منسلخ رمضان المعظم من عام تسعة وستين وثمانمائة، وذلك بمدينة غرناطة كلأها الله بحفظه.

وعقبه بخط ناسخه: "كَمُلَ الشرح المبارك بحمد الله تعالى وحسن عونه، على يدي مُقَيِّده لنفسه، بخط يده الفانية، المقر لله سبحانه بالوحدانية، عبيد الله سبحانه الراجي عفوه وغفرانه علي بن قاسم بن علي ابن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري غفر الله له ولوالديه، ولجميع المسلمين، وذلك بمدينة بَلّش حرسها الله تعالى، بعد الزوال من يوم الاثنين التاسع لجمادى الأولى من عام ثمانين وثمانمائة، عرف الله خيره، بموافقة الحادي عشر من شتنبر الأعجمي من تاريخ المسيح عليه السلام. ونقلته من خط مؤلفه سيدي وبركتي ومفيدي، الشيخ الفقيه، الأستاذ الصدر، الأوحد الحاج، المبارك أبي الحسن علي ابن محمد بن محمد بن علي القرشي الشهير بالقلصادي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة منزله ومأواه، بمنّه وكرمه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله وحده".

وبالهامش عند نهاية الشرح المذكور: "بلغت المقابلة بأصله مع مؤلفه جهد الاستطاعة، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله".

١٤. **كتاب الوثائق المختصرة لأبي إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري الغرناطي المتوفى سنة ٦٢٧ هـ[34]:**

(مخطوط في خزانة خاصة)[35].

"كمل الكتاب المبارك، بحمد الله تعالى وحسن عونه، على يدي مقيده لنفسه، بخط يده الفانية، المقر لله سبحانه بالوحدانية، عبيد الله سبحانه الراجي عفوه وغفرانه، علي بن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي الأنصاري غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك بمدينة بلَّش حرسها الله تعالى غدوة يوم السبت الخامس لصفر من عام ثمانين وثماني مائة، عرف الله خيره، وبموافقة العاشر من يونيه الأعجمي، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما".

عنايته بفهرسة مصنَفات المؤلفين :

عُنيَ البياضي بفهرسة مُصنَفات المؤلفين، وهي ليست برامج بالمعنى المعروف، وإنما هي عبارة عن فهارس تخصُّ أسماء الكتب فقط، وتكون بخط المؤلف أو تلميذه.

وهذا النوع من الفهارس قليل في تراثنا إذا ما قورن بفهارس أخرى، وقد وصلتنا نماذج مما صنعه غيره، في مقدمتها:

١. **فهرس مؤلفات ابن سينا:** مخطوط في مكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ٨٨٤ ضمن مجموع.

٢. **فهرس مؤلفات الفارابي:** مخطوط في مكتبة

دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ٨٨٤ ضمن مجموع.

٣. فهرس مؤلفات أبي الوليد ابن رشد الحفيد: مخطوط في مكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ٨٨٤ ضمن مجموع. وهو بخط تلميذه عبد الكبير الغافقي الإشبيلي. وقد اعتمد عليه ابن عبد الملك المراكشي ونشره في الذيل والتكملة س ٦ ص ٢٢-٢٤ في ترجمة ابن رشد.

٤. **فهرس مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب** (ت ٧٧٦ هـ): وقد أورده ابن الخطيب، خلال ترجمته لنفسه، في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة ٤/٤٥٩-٤٦٢، ولكن هذا الفهرس لا يتضمن كل كتبه، لأنه انتهى من كتابته فيما يبدو سنة ٧٧١ هـ.

٥. **فهرس مصنفات أبي الحسن البقاعي**: مخطوط في مكتبة جامعة ليدن رقم ٢٤٨٣ or، وهو بخط ابن اللَّبُودي المتوفى سنة ٨٩٦ هـ.

٦. **فهرس مُصنفات السيوطي**: وقد أورده السيوطي في كتابه حسن المحاضرة ١/٥٧ وما أودعه فيه قريب من ثلاثمائة من مصنّفاته. يقول: "وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب، سوى ما غسَلْتُهُ ورَجَعْتُ عنه".

منه مخطوطة واحدة في خزانة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني في رصيده الثاني الذي لم يفتح بعد للعموم، وكان قد اقتناها في بعض رحلاته إلى مصر، يقول عنه: "وقد ظَفِرْتُ في مصرَ بكرّاسة من تآليف السيوطي عدّدَ فيها تآليفه إلى سنة ٩٠٤هـ قبل موته بسبع سنين، أوصل فيها عدد مؤلفاته إلى ٥٣٨"[٦٥].

وثانية في مكتبة تشستربيتي في دبلن بإيرلندا رقم ٣٤٢٠ ضمن مجموع، اشتمل على سرد لأربعمائة وستين عنوانا وهي منسوخة عام ٩٠٣ هـ عن خط المؤلف.

وقد حققه د. يحيى محمود ساعاتي عن النسخة الأخيرة، ونشره بمجلة (عالم الكتب) الرياض مج ١٢، ع ٢ (شوال ١٤١١ هـ/ مايو ١٩٩١ م) ص ٢٣٢-٢٤٨.

أما الفهارس التي صنعها البياضي من هذا النوع، فلم يصلنا منها إلا اثنان:

أولا: تآليف المنتوري

تأليف عبيد الله محمد بن عبد الملك بن علي القيسي المِنْتَوْري لطف الله به ما يذكر[٦٦]:

١. كتاب الرائق في نصوص الوثائق.
٢. كتاب التعريف بالحافظ أبي عمرو الدَّاني[٦٧].
٣. كتاب شرح رجز أبي الحسن بن بَرِّي[٦٨].
٤. كتاب رواية أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الرحيم الأصفهاني عن أصحابه عن ورش.
٥. كتاب الإدغام الكبير لأبي عمرو بن العلاء.
٦. كتاب اختيار الشيخ أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني من القراءات السبع.
٧. كتاب الجمع بين طريقي الحافظ أبي عمرو الدَّاني والإمام أبي عبد الله بن شريح، في قراءة يعقوب من روايتي رَوْح ورُوَيْس عنه.
٨. كتاب قراءة حميد بن قيس الأعرج.
٩. كتاب قراءة سليمان بن مهران الأعمش.
١٠. كتاب قراءة سلام بن سليمان الطَّويل.
١١. كتاب ري الظَّمآن في عدد آي القرآن[٦٩].

١٢. كتاب اختصار العُزَيْزي وترتيبه على السور.

١٣. كتاب الأحاديث العوالي.

١٤. كتاب المسلسلات.

١٥. كتاب الفوائد النّومية[٤١].

١٦. كتاب الغرائب.

١٧. كتاب تحفة الجليس وبغية الأنيس.

١٨. كتاب الحكايات الوعظية.

١٩. كتاب الحكايات المختلفات.

٢٠. كتاب المقطوعات الشعرية في الوصايا والمواعظ[٤٢].

٢١. كتاب برنامج روايته[٤٣].

ثانيا: تآليف القلصادي

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

بخط الشيخ الإمام، الحبر الهمام، السيد الأبر، المبارك الأنور، أبي عبد الله سيدي محمد المهدي الفاسي، كان الله له، ما نصه[٤٤]:

الحمد لله من خط الشيخ الفقيه أبي الحسن علي ابن قاسم بن علي بن محمد بن أحمد الأنصاري البياضي الأندلسي نزيل مدينة مكناسة وخطيبها ودفينها رضي الله عنه، بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله، ما نصُّه:

تسمية تآليف سيدي وبركتي ومفيدي الشيخ الفقيه العالم العلم الأستاذ الحاج النّاسك المتبرك المقدس المرحوم أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي الشهير بالقلصادي رحمه الله ورضي عنه[٤٥]:

شرح الأنوار[٤٦]، شرح ابن بَرِّي، شرح البُرْدة، شرح أسماء النبي عليه السلام، شرح أرجوزة المراكشي، نهاية النظار، الرحلة[٤٧]، سياسة الأندلس، شرح الرسالة، شرح التلقين، شرح خليل، أشرف المسالك، شرح أشرف المسالك، هداية الأنام في شرح قواعد الإسلام، شرح القرطبية، شرح الجرومية شرح الجمل، شرح الملحة، مدخل الطالبين، تنبيه الإنسان إلى علم الميزان، شرح الخزرجية، شرح الخونجي، شرح ابن الشاط[٤٨]، شرح التلمسانية[٤٩]، شرح فرائض صالح بن شريف، شرح الشرّان، شرح فرائض التلقين، شرح فرائض ابن الحاجب، شرح فرائض خليل[٥٠]، كليات الفرائض، مع شرحها، غنية النحاة، مع شرحها، تحفة الفرائض، مع مختصرها المُسَمَّى بالضروري، التبصرة، كشف الجلباب[٥١]، كشف الأسرار[٥٢]، قانون الحساب[٥٣]، مع شرحه[٥٤]، شرح ابن الياسمين[٥٥]، شرح ذوات الأسماء[٥٦]، انتهى.

ونقلت هذا من خطه رحمه الله ورضي عنه.

وكتب عبيد الله علي بن قاسم بن علي بن محمد ابن أحمد البياضي الأندلسي لطف الله به نزيل مدينة مكناسة حرسها الله تعالى، انتهى.

تمَّ ما وجدت بخط سيدي المهدي المذكور رضي الله تعالى عنه.

وبخطه أيضا توفي يعني أبا الحسن المذكور سنة ٩١٢هـ، كذا وجدته مقيّدا على ظهر أول ورقة من كشف الأسرار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

نماذج من خطه :

وتجريد اللحمة على كل من سلف وتوثيقا لقول
الصادق عليه الصلاة والسلام يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله
بذل الجهد في غاية عزمه وجهده
نفعه الله به بنيته وقصده على يدي مقيده
لنفسه الراجي إلى الله تعالى في التجاوز عنه يوم الفرادة
في رمسه ثم لمن شاء الله من بعده عبيد الله تعالى الفقير
إليه المتوكل في أموره كلها عليه علي بن قاسم بن علي بن
محمد بن أحمد البياضي الأنصاري وفقه الله وسدده
وأعانه وأرشده وغفر الله له ولوالديه ولجميع
المسلمين إنه هو الغفور الرحيم وختم تقييده بلطف
من ربنا الله تعالى في الثلث الأول من ليلة الاثنين
السابع والعشرين لشهر جمادى الأولى من عام ثلاثة
وسبعين وثمانمائة موافقة الثاني عشر لدجنبر
العجمي وكان ابتداؤه بعد صلاة عصر يوم
الأربعاء الخامس عشر لربيع الثاني الفارط موافقة
الثاني من نونبر العجمي نفع الله المؤلف والكاتب
والقارئ والراعي لهم بمنه ويمنه وكرمه وطوله
إنه سميع مجيب
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

233

الصفحة ٢٣٣ من برنامج المنتوري

(مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨)

23

وامام المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين البررة المنتخبين

واصحابه اجمعين صلاة تامة وسلاما كريما الى يوم الدين

وسلام على عباده الذين اصطفى

كملت الوصية المباركة والحمد لله تعالى كما يجب

لجلاله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

على يدي مقيدها لنفسه [illegible] المولى سبحانه

بالواحدانية عبيد الله الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف

علي بن [illegible] بن علي بن محمد بن احمد [illegible] الانصاري غفر الله

ذنوبه وستر في الدارين عيوبه [illegible] بمدينة سلا

حرسها الله تعالى بعد صلاة [illegible] يوم الجمعة التاسع عشر

من [illegible] سبعة وسبعين [illegible] عرف الله خيره

وموافقة السابع عشر من يوليه [illegible]

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الصفحة ٢٣ من وصية الناصح الأود لابن منظور

(مخطوط بخزانة الفقيه محمد المنوني)

الصفحة ٣٢ من المقالة الحكمية لابن هيدور

(مخطوط بخزانة الفقيه محمد المنوني)

ـــل أبو إسحق كراتينا رحمه الله على

أنشرحه ـــر ركنا بنا هذا والحمد لله رب العلمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما

كمل الكتاب المبارك بحمد الله تعلى وحسن عونه

على يدي مقيده لنفسه بخط يده الفانية المفتقر لله

سبحانه بالوحدانية عبيد الله سبحانه الراجي

عفوه وغفرانه علي بن قاسم بن علي بن محمد بن احمد البياني

الانصاري غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

وذلك بمدينة بلش حرسها الله تعالى عشية يوم السبت

الخامس عشر من عام ثمانين وثمانية مائة عرف الله

خيره بموافقه العاشر من يونيه الاعجمي

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الصفحة الأخيرة من الوثائق المختصرة للغرناطي

(مخطوط في خزانة خاصة)

الصفحة ٢٢٦ من برنامج المجاري

(مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨)

الحواشي

(١) شرح دلائل الخيرات للجزولي تأليف أبي حامد محمد العربي الناسي. مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ك ١٥٣٢ ص ١٧٧.

(٢) انظر. درة الحجال ٣/٢١٢ رقم ١٢١٩ ولُقَط الفرائد ٨٢٢/٢ (ضمن كتاب موسوعة أعلام المغرب).

(٣) بَلّش: بالإسبانية Vélez Malaga من نظر ريُّه أو رَيَّة. وتقع بين غرناطة ومالقة. وهي إلى الشمال الشرقي من مالقة وإلى الجنوب الغربي من غرناطة.

انظر مقال: قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة في كتاب الصلة لابن بشكوال لرودلف سنجر - مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (م ١٥ مدريد ١٩٧٠ ص١٥٩).

(٤) يعرف الآن بباب البراذعيين. وقد أكمل بناؤه في سنة ١١٠٧ هـ. وهو باب واقع في غرب المدينة. معروف بهذا الاسم إلى اليوم. انظر: إتحاف أعلام الناس ١٥٩/١.

(٥) من بيت بني حمد أحد بيوتات فاس الشهيرة. آية الله في الزهد والورع والعبادة واتباع السنة. له مناقب كثيرة. وكرامات ظاهرة شهيرة. ارتحل من فاس للمشرق ولقي خيار المشائخ. فأشار عليه بعضهم باستيطان مكناسة. وتوفي بها سنة ٨٣٣ هـ. وضريحه مزارة شهيرة مقصودة للتبرك. مجربة لإجابة الدعاء خارج باب البراذعيين. أحد أبواب الحضرة المكناسية.

انظر ترجمته في: إتحاف أعلام الناس ٤/٤٩٨-٥٠١.

(٦) ترجمته في . ثبت البلوي ص ١٥٧، ١٦٤، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠٤، ٢١٦، ٤٢٥ وجنة الرضا ١٤٢/١ والضوء اللامع ١٨/٤ ومقدمة برنامجه ص ٢٢-٤٢.

(٧) برنامج المجاري (مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨) ص ٢٣٥.

(٨) المصدر السابق ص ٢٣٥.

(٩) المصدر نفسه ص ٢٣٦.

(١٠) ترجمته في : نيل الابتهاج ص ٣٣٩ - ٣٤١ رقم ٤٤٠.

(١١) ترجمته في : ثبت البلوي ص ٢١٥-٢١٦ ونيل الابتهاج ص ٥٥٨ رقم ٦٨٤.

(١٢) ص ١.

(١٣) ترجمته في نيل الابتهاج ص ٥٦١-٥٦٣ رقم ٦٩١.

(١٤) انظر مقال تراجم مغربية أندلسية تنشر لأول مرة - جمعها وصنعها عبد العزيز الساوري - مجلة (عالم المخطوطات والنوادر) مكتبة الملك عبد العزيز العامة - الرياض - م ٤ - ع ١ - المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ / مايو - أكتوبر ١٩٩٩ م - ص ٩٣.

(١٥) موسوعة أعلام المغرب ٨٢٢/٢ (نقلا عن لقط الفرائد لابن القاضي).

(١٦) انظر : من أعلام أواسط العصر الغرناطي: المنتوري - للأستاذ د. محمد بن شريفة ص ١٥-٤١ ضمن: "بحوث الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية: التاريخ. والعلم والمجتمع" - الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ومعهد التعاون مع العالم العربي مدريد ١٩٩٢.

(١٧) برنامج المنتوري ص ٢٣٢-٢٣٣.

(١٨) حققه الأستاذ محمد أبو الأجفان اعتمادا على هذه النسخة. وصدرت عن دار الغرب الإسلامي ببيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢.

(١٩) حققها الأستاذ محمد أبو الأجفان اعتمادا على هذه النسخة. وصدرت عن الشركة التونسية للنشر والتوزيع بتونس الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨. والطبعة الثانية سنة ١٩٨٥.

(٢٠) ص ٢٢١.

(٢١) ترجمته في : الإحاطة ٢٣٩/١-٢٥٩.

(٢٢) منه نسخ خطية أخرى في مكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ١٧٨٥ ضمن مجموع من ورقة (٤٩-١٠٥). ومعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٤ طب. وتقع في ٤٢ ورقة.

(٢٣) ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٤١٢ بعنوان : "كتاب إصلاح الأدوية المسهلة".

(٢٤) حققناه اعتمادا على نسختين خطيتين. وهو قيد النشر.

(٢٥) ص ١٦٤.

(٢٦) منها نسخة أخرى في مؤسسة الملك عبد العزيز آل

سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، رقم ٣٥٥.

ونشرتها المستعربة الفرنسية Suzane GIGANDET اعتمادا عن نسخة المنوني دون تحقيق في مقالها: "Trois MAQALAT sur la Peste" في مجلة (Hespéris-Tamuda. Vol XL. (٢٠٠٥. pp ٧٦-٩٢)). وفي التعريف بها، انظر: مقال المستعربة الإسبانية Cristina A. Millan المنشور في:

(Anaquel de Estudios Arabes III (1992)), (pp. 183-188)

بعنوان: "Tres opusculos inéditos sobre la peste en un manuscrito magrebi".

(٢٧) ص ٣٣.

(٢٨) هو محمد بن علي بن عبد الله اللخمي، يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بالشُّقوري، منسوبا إلى مدينة شَقُورة Segura، ومنها أهله، ولد في عام ٧٢٧ هـ. قرأ على جده للأب، وعلى أبي زكريا بن هُذَيل ولازمه وانتفع به، والحكيم الوزير خالد بن خالد من شيوخ غرناطة، وسلك بالشيخ الصوفي أبي مُهذّب عيسى الزيات ثم بأخيه أبي جعفر الزيات، والتزم طريقته، وظهرت عليه بركته، كان طبيب دار الإمارة، وألّف كتبا نبيلة منها كتاب: "تحفة المتوسّل وراحة المتأمّل". وهو في صنعة الطب ألفه برسم قاضي غرناطة أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني السبتي الشهير بالشريف الغرناطي (ت ٧٦٠ هـ) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم ٢٣٢٧. وكتاب في "الأدوية". ومقالة في الطب أو مجرّبات الشقوري منها نسخ خطية في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ١٠٣٥ د، ١٦٨٠ د، والخزانة الحسنية بالرباط رقم ٦٣٢٣. وكتاب تحقيق النبأ عن أمر الوباء، وكتاب أسماه: "الجهاد الأكبر"، وآخر سماه: "قمع اليهودي عن تعدي الحدود". كان حيًا سنة ٧٧٦ هـ.

انظر: ترجمته في: الإحاطة ٣/١٧٧-١٧٩.

(٢٩) منها نسخ أخرى في مكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ١٧٨٥ ضمن مجموع من ورقة (١٠٦ ظ - ١١١و)، والمكتبة الوطنية بمدريد ضمن مجموع رقم ٥٠٦٧/٨. ونشرتها المستعربة الفرنسية Susane Gigandet اعتمادا على نسخة المنوني دون تحقيق في مقالها: "Trois MAQALAT Sur la Peste" في مجلة (Hesperis-Tamuda Vol. XL (2005, pp 60-66).

وفي التعريف بها، انظر: مقال المستعربة الإسبانية Cristina A. Millan المنشور في "Anaquel de Estudios Arabes III (1992), pp. 183-188". بعنوان:

"Tres opusculos inéditos sobre la peste en un manuscrito Magreb?".

(٣٠) ص ٣٣.

(٣١) هو علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي، يكنى أبا الحسن، إمام الفرائض والحساب، له شرح على تلخيص ابن البنا في الحساب، وتقييد على "رفع الحجاب" له أيضا، وكان كثير التقييد، وله خط رائق، ومشاركة في فنون شتى، توفي بمجاعة كانت بفاس سنة ٨١٦ هـ.

انظر ترجمته في: سلوة الأنفاس ٣/٢٩٧ رقم ١٤٣٩.

(٣٢) منها نسخ أخرى في مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء رقم ٣٦١، والخزانة الحسنية بالرباط رقم ٩٦٠٥، ودار الكتب المصرية رقم ١٨٣ طب بعنوان: "رسالة في الأمراض الوبائية الكائنة عن فساد الأغذية".

ونشرتها المستعربة الفرنسية Susane Gigandet اعتمادا على نسخة المنوني دون تحقيق في مقالها:

في مجلة "Trois MAQALAT sur la Peste" "Hespéris - Tamuda. Vol. XL. (2005. pp 67-75).

وفي التعريف بها، أنظر: مقال المستعربة الإسبانية Cristina A. Millan المنشور في "Anaquel de Estudios Arabes III (1992), pp. 183-188" بعنوان

"Tres opusculos inéditos sobre la peste en un manuscrito Magreb?".

(٣٣) ص ٤٩.

(٣٤) هو إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري المشتهر بالغرناطي، يكنى أبا إسحاق، ولي القضاء بجهات شتّى، آخرها ميورقة، تقدّم بها من قبل أميرها إسحاق بن محمد بن غانية اللمتوني وتصدّر بها للإقراء والإسماع: فأخذ الناس عنه، وكان رجلا فاضلا، عابدا، مجتهدا، زاهدا، ولم ينتقل عن ميورقة إلى أن تغلب عليها

الروم. فاستشهد بها. وذلك يوم الاثنين الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٢٧ هـ.

ترجمته في : المرقبة العليا ص ١١٦-١١٧.

(٣٥) نشره صديقي الوراق السيد مصطفى ناجي - رحمة الله عليه - بمركز إحياء التراث المغربي بالرباط سنة ١٩٨٨.

(٣٦) فهرس الفهارس ٢/١٠٣٠.

(٣٧) برنامج المنتوري. مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨. ٦ ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣٨) أشار إليه المنتوري في برنامجه ص ١٥٠ بمناسبة سرد سنده في تأليف الداني. قال: "وضع تأليف مفيدة. وهي تنيف على مائة وعشرين تأليفا. وقد استوفيت تسميتها في تأليفي في التعريف به".

(٣٩) حققه الأستاذ الصديقي سيدي فوزي في جزأين بعنوان: "شرح الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع". وصدر عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٤٠) مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ١٥٣٢ د. ومؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء رقم ٣٣٦ -٦.

(٤١) مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ضمن مجموع رقم ٢٧٠٠ ك.

(٤٢) فرغ من تأليفه يوم الاثنين السادس عشر لجمادى الأولى من عام ٨٢٤ هـ. منه نسختان في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط. الأولى : رقم ١٨٥٣ د. ضمن مجموع من ص (١٠٦-١٢٥). والثانية: رقم ٢٧٠٠ ك من (١٧-٣٨).

(٤٣) توجد منها أربع نسخ خطية : واحدة في الخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٧٨ بخط علي البياضي تم انتساخها بمدينة بلش عام ٨٧٢ هـ. وثانية في الخزانة الملكية بمراكش رقم ١٢٦٦٧ بخط علي بن محمد الكفاد الأندلسي الغرناطي. وتاريخ نسخها عام ١٠٠١ هـ. وقد انتسخت بخزانة محمد بن عبد العزيز بن الولي سيدي بوعمرو القسطلي. وثالثة في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٢٢٥١ ك. وتشمل فقط أسانيد كتب القراءات والتفسير . وقد كتب في أولها بخط أبي القاسم ابن محمد بن إبراهيم الفاسي. أنه يرويها عن أبي العباس أحمد بن محمد الشهير بالدَّقون عن شيخه أبي عبد الله المَوَّاق عن شيخه المنتوري. ورابعة في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم ٣٠٩٠ ك. وهي عبارة عن كراريس من أول البرنامج تصعب قراءتها.

(٤٤) كشف الأسرار عن علم حروف الغبار للقلصادي. ورقة ١ و(مخطوط في خزانة خاصة).

(٤٥) في الحاشية طرة نصها: "توفي بباجة من أحواز تونس منتصف ذي الحجة عام ٨٩١ هـ. وفي آخر ببجاية من أحواز تونس. فانظر ما يصح من ذلك. صح من خطه".

(٤٦) طبع بعنوان: "كتاب لب الأزهار اليمنية على الأنوار السنية في الألفاظ السنية". بهامش كتاب الأنوار السنية في الألفاظ السنية لأبي القاسم بن جُزَي الكلبي الغرناطي - دار السعادة القاهرة ١٩٢٩.

(٤٧) تسمى : "تمهيد الطالب ومُنْتَهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب". حققها الأستاذ محمد أبو الأجفان. وصدرت عن الشركة التونسية للنشر والتوزيع بتونس الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨. والطبعة الثانية سنة ١٩٨٥.

(٤٨) يسمى : "شرح فرائض ابن الشاط". مخطوط بخزانة جامع القرويين بفاس رقم ١١٩٨.

(٤٩) نسبة إلى منظومة أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني (ت. ٦٩٩ هـ) في علم الفرائض. فرغ المؤلف من شرحها في تونس المحروسة بحذاء قبر سيدي محرز بن خلف. غرّة ذي القعدة عام ٨٤٨هـ. مخطوطة في مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء رقم ٥٧٩-٤.

(٥٠) يسمى : "إرشاد المتعلم وتنبيه المعلم لفرائض الشيخ خليل". فرغ المؤلف من تعليقه في العشر الأول من رمضان المعظم عام ٨٨٠ هـ. منه نسخ خطية كثيرة في الخزانة الحسنية بالرباط تحمل الأرقام الآتية: ٥٢ - ٤٠٣ - ٢٦٣ - ٢٩٣.

(٥١) يسمى : "كشف الجلباب عن علم الحساب". مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٤٦٣. ومكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ٢٨٥٣.

(٥٢) يسمى : "كشف الأسرار عن علم حروف الغبار" حققه الأستاذ محمد السويسي. وصدر عن الدار العربية للكتاب بطرابلس. ليبيا سنة ١٩٨٨.

(٥٣) يسمى : "قانون الحساب وغنية ذوي الألباب". مخطوط بمكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا رقم ٨٥٣٤.

(٥٤) يسمى : "انكشاف الجلباب عن فنون الحساب". مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني رقم ٤١٨.

(٥٥) تسمى : "شرح الأرجوزة الياسمينية". طبعت بفاس سنة ١٨٩٢.

(٥٦) تسمى : "رسالة ذوات الأسماء". فرغ المؤلف من تعليقها بمكة المشرفة في أواخر شوال سنة ٨٤١ هـ. حققها الأستاذ د. محمد السويسي. وصدرت ضمن كتابه: "نماذج من التراث العلمي العربي". عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

المصادر والمراجع:

١ - إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس تأليف مولاي عبد الرحمن ابن زيدان - تقديم د. عبد الهادي التازي - الجزء (١. ٤) - مطابع إديال الدار البيضاء - الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ - الجزء (١. ٣) - حققه محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

٣ - ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي المتوفى عام ٩٣٨ هـ - دراسة وتحقيق د. عبد الله العمراني - دار الغرب الاسلامي بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤ - جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي المتوفى سنة ٨٥٧ هـ - الجزء (١) - تحقيق د. صلاح جرار - دار البشير عمان ١٩٨٩م.

٥ - درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ - الجزء (٣) - تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور - المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

٦ - سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس تأليف أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ - الجزء (٣) - تحقيق مجموعة من آل الكتاني - دار الثقافة الدار البيضاء - الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ - الجزء (٤) - مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٣ هـ.

٨ - الفهرست لابن النديم - المطبعة الرحمانية مصر - سنة ١٣٤٨ هـ.

٩ - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات تأليف عبد الحي ابن عبد الكبير الكتاني - باعتناء د. إحسان عباس - الجزء (٢) - دار الغرب الإسلامي بيروت (بلا تاريخ).

١٠ - المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبي الحسن علي بن عبد الله بن الحسن النُّبَاهي المالقي - المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (بلا تاريخ).

١١ - موسوعة أعلام المغرب تنسيق وتحقيق محمد حجي - الجزء (٢) - دار الغرب الإسلامي بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

١٢ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ - إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة - منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس الطبعة الأولى ١٩٨٩ م.

خزائن المخطوطات بأقاليم توات (الجزائر)
الواقع والآفاق

د. أحمد جعفري

أدرار - الجزائر

تعدّ منطقة توات التاريخية (ولاية أدرار حديثاً) بأقاليمها الثلاث (توات، قورارة وتيديكلت) منطقة ضاربة في أعماق التاريخ، ويرجع تاريخ عمارتها إلى ما قبل الإسلام بقرون بعيدة، ولا أدل على ذلك من كثرة الحديث عنها في كتب المؤرخين والرحالة العرب والأعاجم، كابن حوقل والكرخي واليعقوبي و البكري والإدريسي وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان وعبد الرحمن السعدي وأبي سالم العياشي والحاج بن الدين الأغواطي والشيخ أبو راس الناصري وسعيد قدورة الجزائري، بالإضافة إلى الرحالة الألماني جير هارد رولف والمؤرخ الأسباني مار مول والكاتب الأمريكي جون هنيك والمؤرخان الفرنسيان: مارثان وبرنارد سافرو و غيرهم .

ولقد اختلف المؤرخون في أصل التسمية (توات)، وتاريخ اختطاطها، بل وحتى في رسم حدودها. فهناك من اعتبر آن "السبب في تسمية هذا الإقليم بتوات على ما يُحكى أنه لما استفتح عقبة(*/۰۱) بن نافع الفهري بلاد المغرب، ووصل ساحله. ثم عاد لواد نون ودرعة وسجلماسة (*/۰۲)، وصل خيله توات، ودخلها بتاريخ ٦٢هـ. فسألهم عن هذه البلاد يعني توات، وعما يسمع ويشيع عنها من الضعف، هل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب، ينزله بها أو يجلّيه بها. فأجابوه بأنها تواتي. فانطلق اللسان بذلك أنها تواتي. فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف". (*/۰۳) وهو رأي انفرد به العالم محمد بن عومر (ت.ق١٢هـ)،في حين نراه يورد إلى هذا رأياً آخر أكثر تداولاً. وهو الرأي الذي أسهب في تفسيره وشرحه الشيخ سيد البكري

(ت.ق٤١هـ) حيث يقول: " في سنة ٥١٨ هـ حيث غلب المهدي (٠٤/*) الشيعي سلطان الموحدين على المغرب. بعث قائدَيه علي بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن لأهل الصحراء وأمرهما بقبض الأتوات. فعُرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات. لأن السلطان قبله منه في المغرم"(٠٥/*). ونرى البكري (ت.ق١٤ هـ) يعلق على هذه الرواية ويقول: " وهذه الرواية أصحَ ولهذا اللفظ مسند في العربية. قال في المصباح(٠٦/*): "التوت هو الفاكهه والجمع أتوات". فعرف أهل هذه البلاد بأهل الأتوات. فحذف المضاف. وأُقيم المضاف إليه مقامه... فصار توات بعد حذف التعريف والمضاف... وصار هذا الاسم على هذا القطر الصحراوي من تبلكوزه إلى عين صالح(٠٧/*)". وهذا التفسير اعتمده كثير من المؤرخين(٠٨/*) واعتُبر الرآي الأرجح في المسألة على ما يذكر الرواة. في حين راح البعض(٠٩/*) الأخر ينحى بالكلمة نحواً بعيداً عن كل هـــــذا وذاك تبعا لمدلولها. ويبقــى الاختلاف الأساسي في أصل اشتقاق الكلمة نفسها هل هو من الفعل واتى يواتي. أو هو اسم للمغارم. أي الأتوات. أو هو غير هذا وذاك. وإنما هو اسم أعجمي يحمل دلالات خاصة تبعاً للغتـه الأم. البربرية (١٠/*).أو التكروريــة (١١/*) أو التارقية (١٢/*) أو العربية .

عُرفت منطقة توات على مر التاريخ بأنها أرض أمان واطمئنان. "غالب أهلها ضعفاء متضعفون ولقلة ضعف أهلها. وهضم قوة النفوس. كثر فيها الصالحون والزهاد وأرباب القلوب"(١٣/*). وهي كلها عوامل شكلت الشروط الأساسية والمواتية لقدوم العلماء والزهاد من كافة الأقطار العربية والإسلامية واستقرارهم بالمنطقة. هذا دون أن ننسى موقعها الاستراتيجي الذي تقف فيه شامخة متوسطة كبريات العواصم الثقافية آنذاك. إضافة إلى نشاطها الاقتصادي الداخلي المميز الذي جعل الحجيج في المغرب وغيره قديما يؤخرون صرف الذهب وسعر القوت من الزرع والتمر إليها بعدما غلا في بلاد المغرب .

كل هذا وغيره "جعل الجماعات التواتية عبر تاريخها الطويل من أنشط الجماعات التي سكنت الصحراء... أوصلوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق الجنوب السوداني عن طريق القوافل الذاهبة والآيبة. ومع هذه القوافل اطلع التواتيون عن كثب على التيارات الثقافية والفكرية التي كانت شائعة عند عرب المشرق والمغرب. وفي الوقت نفسه قام فقهاء وعلماء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف. "(١٤/*) كما ذكر صاحب القاضي الفع محمود كعت (١٥/*) أن كل جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي حافلة بالطلبة والعلماء من منطقة توات. ويضيف السعدي(١٦/*) أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيون من بينهم نسبة تقارب النصف. ولهؤلاء جميعا مئات المخطوطات المتواجدة حاليا في خزائن ومكتبات مصر وموريتانيا ومالي والنيجر وغانا ونيجيريا. وهذه بعض الإحصاءات الأولية لعدد. وأماكن تواجد مخطوطات المنطقة هناك (١٧/*) :

※ مكتبة أحمد بابا بتنبكتو (مالي): ١٢٧ مخطوطاً.

※ مكتبة ماما حيدرة (مالي): ٨٤ مخطوطاً.

※ مكتبات غانا: ٣١ مخطوطاً.

※ مكتبتَا شنقيط وودان (موريتانيا): ٨ مخطوطات.

※ مكتبة دار الكتب والوثائق القومية (مصر) ٨ مخطوطات.

※ مكتبتَا كادونا وأبادان (نيجريا): ٦ مخطوطات.

شكلت منطقة توات على مر العصور خيط تواصل وعطاء بين مختلف الشعوب القاطنة خصوصاً في شمال إفريقيا وجنوبها. ومن ثم انعكس الأمر إيجابا على واقع المنطقة. فعرف إنسانها كيف يستغل الظرف ويستثمر هذه العناصر. ليشارك بها القطبين. الشمالي: شمال الجزائر والمغرب وتونس ومصر وليبيا، والجنوبي: بعواصمه التاريخية الكبرى كتمبكتو وكانو وشنقيط وأروان وغير ذلك.

ومع مرور الأيام ازداد التواصل وتوسع. وتكثفت معه أشكال التفاعل الحضاري ومن ثم انكبت النفوس على الطروس. وراحت الأقلام تترجم الأحاسيس والمشاعر وتعبر في دهشة وإعجاب عن واقع هذا التفاعل. ومن ثم كان لنا هذا العمر الزاخر بالمؤلفين والمؤلفات. وفي شتى المعارف والعلوم من فقه وتفسير ولغة وتاريخ وجغرافيا وطب وفلك وغير ذلك، واستودع كل ذلك في دور وخزائن خاصة منتشرة في كل ربوع الإقليم وقد تجاوز عددها في آخر الإحصاءات الخمسين(٥٠) خزانة ومكتبة خاصة. وهذه أهمها (١٨/٣) في أقاليم المنطقة الثلاثة. وهي مرتبة بحسب تاريخ تأسيسها وأماكن تواجدها وكذا المشرفين عليها حاليا:

الرقم	اسم الخزانة	مكان التواجد	اسم البلدية	اسم المؤسس	تاريخ التأسيس	اسم المشرف الحالي
٠١	خزانة ع /عقباوي	قصر الزاوية	بلدية أقبلي	سيدي بونعامة	٦٥٢ هـ	عائلة عقباوي
٠٢	خزانة أركشاش	قصر أركشاش	بلدية أقبلي	محمد التهامي	ق. ٠٧ هـ	؟
٠٣	خزانة الشيخ محمد بن مالك	قصر ساهل القديم	بلدية أقبلي	محمد بن مالك	ق. ٠٨ هـ	ابن مالك عبد الكريم
٠٤	خزانة لمطارفة	قصر لمطارفة	بلدية لمطارفة	الحاج محمد بن أحمد الراشيدي	ق. ٠٩ هـ	عائلة بن ع الكبير
٠٥	خزانة سيد الحاج بلقاسم	قصر زاوية سيد الحاج بلقاسم	بلدية تيميمون	سيدي الحاج بلقاسم	ق. ١٠ هـ	أحفاد الشيخ سيد الحاج بلقاسم

٠٦	خزانة الشيخ المغيلي	قصر زاوية الشيخ	بلدية زاوية كنته	الشيخ المغيلي	ق. ١٠ هـ	أحفاد الشيخ المغيلي
٠٧	خزانة تبلكوزه	قصر تبلكوزه	بلدية تينركوك	سيد الحاج أبو أمحمد	ق. ١٠ هـ	بولغيتي باحمود
٠٨	خزانة زاوية الدباغ	قصر زاوية الدباغ	بلدية تينركوك	سيدي محمد الدباغ	ق. ١٠ هـ	الدباغي أحمد بن محمد
٠٩	خزانة فاتيس	قصر فاتيس	بلدية تينركوك	سيدي محمد بن عبد الله	ق. ١٠ هـ	باسيدي أحمد بن العربي
١٠	خزانة بادريان	قصر بادريان	بلدية تيميمون	سيد الحاج الصوفي	ق. ١١ هـ	الصوفي محمد السالم
١١	خزانة سيدي عومر	قصر زاوية سيدي عومر	بلدية أوقروت	الشيخ سيدي عومر بن أحمد	ق. ١١ هـ	الحاج أقرابو
١٢	خزانة الشيخ الرقاني	قصر زاوية الرقاني	بلدية رقان	مولاي عبد الله الرقاني	ق. ١١ هـ	السي محمد الرقاني
١٣	خزانة أنزقمير	قصر أنزقمير	بلدية أنزقمير	؟	ق. ١١ هـ	عبد الرحمن بن عبد الكريم
١٤	خزانة زاوية سيدي حيدة	قصر زاوية سيدي حيدة	بلدية بودة	سيدي حيدة	ق١١هـ	أبا سيدي جعفري
١٥	خزانة زاوية كنته	قصر زاوية كنته	بلدية زاوية كنته	الكنتاويون	ق. ١١ هـ	كنتاوي الحاج أمحمد
١٦	خزانة تنيلان	قصر تنيلان	بلدية أدرار	سيدي أحمد بن يوسف	ق. ١١ هـ	ابن حسان أحمد
١٧	خزانة زاقلو	قصر زاقلو	بلدية زاوية كنته	؟	ق. ١٣ هـ	محمد العالمي
١٨	خزانة الشيخ سيدي أحمد ديدي	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	سيدي أحمد ديدي	ق. ١٤ هـ	البكري الحاج أحمد
١٩	خزانة كوسام	قصر كوسام	بلدية أولاد أحمد	محمد بالعالم	ق ١٤هـ	شاري الطيب
٢٠	خزانة تيلولين	قصر تيلولين	بلدية أنزقمير	الحاج محمد بن سيدي جعفر	ق١٤هـ	الحاج عبد الرحمن جعفري
٢١	خزانة سالي	قصر سالي	بلدية سالي	مولاي أحمد الطاهري	ق. ١٤ هـ	مولاي عبد الله طاهري

٢٢	خزانة باعبد الله	قصر باعبد الله	بلدية أدرار	ابن الوليد	ق. ١٤ هـ	ابن الوليد وليد
٢٣	خزانة الحاج عبد القادر المغيلي	الحي الغربي أدرار	بلدية أدرار	الحاج عبد القادر المغيلي	ق ١٤ هـ	محمد السالم بن عبد الكريم
٢٤	خزانة الشيخ محمد باي بلعالم	قصر الركينة	بلدية أولف	محمد باي بلعالم	ق. ١٤هـ	الشيخ باي بلعالم
٢٥	خزانة أولاد إبراهيم	قصر أولاد إبراهيم	بلدية أولاد أحمد	؟	ق. ١٤ هـ	مولاي قريشي
٢٦	خزانة باحو	قصر باحو	بلدية سالي	؟	ق١٤هـ	بلحبيب عبد الرحمن
٢٧	خزانة سيدي محمد الصدوق	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	سيدي محمد الصدوق	ق. ١٤ هـ	؟
٢٨	خزانة فاعون	قصر الحاج قلمان	بلدية أولاد سعيد	محمد الطاهر	؟	أباحيا الطيب
٢٩	خزانة الشيخ إبراهيم	قصر أولاد سعيد	بلدية أولاد سعيد	؟	؟	إبراهيم بن عبد القادر
٣٠	خزانة أولاد سعيد	قصر أولاد سعيد	بلدية أولاد سعيد	؟	؟	الجوزي عبد الرحمن
٣١	خزانة الشيخ بختي	قصر زاوية حينون	بلدية أولف	؟	؟	الشيخ أبختي امبارك
٣٢	خزانة الشرفاء	قصر زاوية كنته	بلدية زاوية كنته	الشرفاء	؟	عائلة إسماعيلي
٣٣	خزانة بني مهلال	قصر بني مهلال	بلدية تيميمون	؟	؟	بزكار بلقاسم
٣٤	خزانة بن مهلال	قصر بني مهلال	بلدية تيميمون	؟	؟	أبا الصالح
٣٥	خزانة وجلان	قصر وجلان	بلدية تسابيت	؟	؟	؟
٣٦	خزانة برينكان	قصر برينكان	بلدية تسابيت	؟	؟	باعربي عبد القادر
٣٧	خزانة ملوكة	قصر ملوكة	بلدية أولاد أحمد	البلباليون	؟	بلبالي عبد الرحمن

٣٨	خزانة كوسام	قصر كوسام	بلدية أولاد أحمد	؟	؟	شاري محمد بن محمد
٣٩	خزانة بني تامر	قصر بني تامر	بلدية أولاد أحمد	؟	؟	مبدو بي آمحمد
٤٠	خزانة زاوية سيدي البكري	قصر زاوية سيدي البكري	بلدية أولاد أحمد	؟	؟	بكراوي محمد بن سالم
٤١	خزانة البلباليين	قصر أولاد ونقال	بلدية أدرار	عائلة البلباليين	؟	بلبالي الطاهر
٤٢	خزانة أدغا	قصر أدغا	بلدية أدرار	؟	؟	سليماني علي
٤٣	خزانة أ. علي بن موسى	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	؟	؟	محجوبي عبد العزيز
٤٤	خزانة سيدي سالم	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	؟	؟	البكري الجازولي
٤٥	خزانة أولاد سيدي وعلي	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	؟	؟	بكراوي الحاج أحمد
٤٦	خزانة تمنطيط	قصر تمنطيط	بلدية تمنطيط	؟	؟	صديقي بومدين
٤٧	خزانة عباني	قصر عباني	بلدية فنوغيل	؟	؟	سالم سالم
٤٨	خزانة تيلولين	قصر تيلولين	بلدية أنزقمير	محمد بن سيدي جعفر	؟	عبد الرحمن جعفري
٤٩	خزانة الشيخ بختي	قصر زاوية حينون	بلدية أولف	؟	؟	الشيخ أبختي امبارك
٥٠	خزانة آدغا	قصر آدغا	بلدية أدرار	؟	؟	سليماني علي

والجدير بالذكر أن هذه الخزائن جميعها تختلف فيما بينها أهميةً وتواجداً للمخطوط وإن كانت أقل واحدة منها تحوي بين سقوفها حاليا ما يزيد عن مائتي مخطوط تقريبا. بينما وصل العدد في البعض الآخر منها الألفي مخطوط. كما تختلف عن بعضها البعض أيضا في قيمتها التاريخية وأهمية محتوياتها كخزانات ملوكة وتمنطيط والمطارفة وهو ما جعل هذه الثلاثية قبلة لزيارة المفكرين والباحثين العرب والأعاجم كالمؤرخ والرحالة أبي سالم العياشي والمفكر الجزائري مالك بن نبي، والمؤرخ الألماني جيرهارد رولف وغيرهم كثير.

ولما "كانت العربية محور كل هذه الدراسات. ومحركها الأساسي في فهم الكثير من المسائل

الدينية والدنيوية. فقد أخذت علوم العربية قسطها الأوفر من العناية والدراسة. وتخصص فيها جملة من العلماء ألفوا في ذلك كتباً نحويةً وصرفيةً وبلاغيةً وعروضيةً وما إلى ذلك ويعتبر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي العصر الذهبي في تاريخ المنطقة بالنظر إلى العدد الهائل من العلماء الذين نبغوا فيه" (*٢٠/) من جهة، وإلى وفرة مخزونه المخطوط الذي وصل في أقل التقديرات إلى أكثر من خمسة وعشرين ألف مخطوط من جهة أخرى. كما أن "الإقليم لم يخضع للدولة العثمانية كما خضعت لها معظم البلدان العربية وسَلِمت اللغة العربية من مزاحمة اللغة التركية" (*٢١/) .

كل هذا ما كان ليوجد أو ينتج لولا وقوف جملة من نخبة الفكر ورجال الإصلاح في المنطقة ومنذ قرون بعيدة. رجال حملوا لواء الفكر والأدب وراحوا يتصفحون لنا ذاكرتهم ومعارفهم ليعصروا لنا تجاربهم، رجال هانت في أعينهم المشقات حين قاسوها بالغايات. رجال ظلوا ولسنوات طويلة تحت وطأة الإهمال والنسيان على الرغم من غزارة إنتاجهم وأهميته لما يحمله من بوادر الاجتهاد والتجديد. وقد ضاع منه ما ضاع وما أكثره .ووصل إلينا القليل القليل والحمد لله على كل حال .

وفي كلّ فإن هذا الجزء القليل من المخطوطات التي فلتت من قبضة الإهمال والنسيان ما كان لها أن تصارع الزمن لتصمد طويلا أمام خصوصيات المنطقة في كثرة رمالها وزوابعها خريفا. وفرط حرارتها اللافحة صيفا. و قساوة برودتها شتاء. وهي عوامل لم تكن وحدها عوامل ضياع وتلف للمخطوط على مر التاريخ في غياب أبسط وسائل الحفظ الحديثة. بل زادها الإنسان نفسه بصمته السلبية بقصد أو بغير قصد كما فعل المحتل الفرنسي في نهبه وتهريبه لآلاف المخطوطات معه خارج الوطن وبمباركة بعض سماسرة التراث من أبناء جلدتنا أحيانا بالاضافة إلى ما يفعله بعض الخاصة وكثير من العامة وإلى الآن و الذين لا يزالون يعايشون احتضارها في صمت وسمت .

ووسط هذه الأجواء (الكارثية) التي تعقبت أكبر ثروة تاريخية للمخطوط في الجزائر قاطبة. انطلقت صفارات الإنذار وصرخات الاستغاثة المختلفة لنجدة ما أمكن من ذلك. فكان أن شُكلت مع بداية الثمانينات أُولى خيوط العناية بهذا الإرث في شكل جمعية خاصة للعناية بالبحث والدراسات التاريخية في الولاية، ومعها عرفت المنطقة تدريجيا حركة وعي واهتمام أنبأت في مجملها عن حجم ثقل المسؤولية الملقاة على عاتق الجميع. وما حملات التوعية المختلفة لأرباب الخزائن من جهة. ومدهم ببعض المساعدات - على قلتها - من جهة أخرى إلا خير شاهد في هذا المقام. هذا دون أن ننسى تلك التجمعات والملتقيات المحلية والوطنية وحتى الدولية، والمبادرات الهادفة إلى تكوين فرق متخصصة ومؤهلة للتعامل مع المخطوط ووضع فهارس(*٢٢) عامة لهذه الخزائن. والتي قادها في الغالب أساتذة جامعيون مختصون، ومراكز بحث وطنية ودولية، وتكفل بتبعاتها المادية والمعنوية بعض المحسنين من القطاع الخاص الذين أخذوا على عاتقهم تكاليف العملية عن آخرها على أمل خلق جو طبيعي من

الثقة بين أرباب الخزائن والمالكين للمخطوط، وبين الباحثين والمهتمين في هذا المجال، الذي يعتبر الضامن الأساسي لكل استثمار علمي وعملي جاد في هذا الميدان مستقبلا بعيدا عن لغة السين وسوف وبقية الضمائر البلهاء.

وخوفا من تلف وضياع المزيد من المخطوطات داخل هذه الخزائن عمد بعض القيمين على شؤون المخطوط حديثا إلى إعادة نسخ وترتيب بعض المخطوطات من جديد.كما عمد البعض الآخر إلى شرحها وتحقيقها مثلما الأمر مع خزانات تمنطيط و المطارفة وكوسام وأولف وبودة وأدرار وغيرهم. وهي محاولة صادقة وطريقة جادة وظفها المالكون لهذا الإرث وبمجهودهم الشخصي بهدف الحفاظ على ما أمكن من هذا الزخم التاريخي من جهة. و تقريبه إلى أعين وأقلام الباحثين والمفكرين من جهة أخرى. والعملية بما تقتضيه من صبر وإتقان وجدت في أنامل هؤلاء أمانة ودقة علمية باهرة حفاظا على المخطوط الأصل كما وجد. وليضيفوا بذلك إلى عمل من سبقوهم بصمتهم الذهبية الخاصة في نهاية المخطوط وذلك بذكر اسم الناسخ وتاريخ ومكان نسخه. وهي مبادرة جريئة ومميزة اقتطع المشتغلون عليها وقتها ووسائلها من عمر شبابهم وصحة جسدهم. وقوت عيالهم ليوفروها لقمة سائغة وغذاء ناضجا لكل عقل بشري .

هي مبادرة إذن وأية مبادرة !! لكنها قليلة بين عشرات الخزائن وآلاف المخطوطات. ومع هذا تظل بعيدة عن أي استثمار حقيقي. ولولا حرص هؤلاء وإدراكهم بحجم المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقهم وتقديرهم لجهد بعض الخيرين. لوجد الجميع في تصرفات بعض الخواص وكثير من العوام في تعاملهم مع التراث عامة والمخطوط خاصة أيسر السبل للفرار من هذا الواقع .

الهوامش

(*/٠١) : هو عقبة بن نافع الفهري ولد في السنة الأولى قبل الهجرة، ولاه يزيد بن معاوية على إفريقيا سنة ٦٢هـ وتوفي بمدينة بسكرة بالجزائر. (معجم مشاهير المغاربة. بوعمران الشيخ وآخرون. جامعة الجزائر ١٩٩٥م. ص٣٦٥-٣٦٦).

(*/٠٢) : واد نون ودرعة وسجلماسة مدن تقع في المغرب الأقصى وتعتبر سجلماسة من أكبر العواصم التاريخية وأقدمها ارتباطاً بمنطقة توات. تأسست سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م. (الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية . ص ٦٢ .عبد العزيز بن عبد الله .المغرب ١٩٧٦م .).

(*/٠٣) : مخطوط نقل الرواة عن من أبدع قصور توات: محمد بن عمر بن محمد بن المبروك الجعفري . ص٠٤. (مخطوط) .

(*/٠٤) . هو محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي بدأت مبايعته على الخلافة سنة ٥١٥ هـ وتوفي سنة ٥٢٤ هـ (الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى:أحمد بن خالد الناصري . الدار البيضاء المغرب ١٩٩٧م).

(*/٠٥) . مخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: محمد بن عبد الكريم البكري . ص ٠٦ (مخطوط).

(*/٠٦) : المصباح المنير . أحمد بن محمد الفيومي . ج ١. ص ١٠٨ . ط ٤ . المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢١ .

(*/٠٧) : مخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام . محمد بن عبد الكريم البكري . ص٠٦.(مخطوط)

(*/٠٨) : مثل المؤرخ محمد بن عمر في مخطوطه نقل الرواة. ومولاي أحمد الإدريسي في مخطوطه نسيم النفحات في

ذكر جوانب من أخبار توات والشيخ محمد باي بلعالم في محاضرته حول المنطقة.

(*٠٩/) : ذكر السعدي أن أصل الكلمة تكرورية " لأن الإنسان الأول الذي تخلف هنالك توجع في رجله. وتوطن هناك فسمي الموضع باسم تلك العلة." تاريخ السودان. عبد الرحمن السعدي . تحقيق هوداس. ص٠٧. مطبعة بردين باريس. ١٩٦٤م . أما العالم مولاي أحمد الإدريسي في مخطوطه نسيم النفحات واضافة إلى رأيه السابق يرى بأنها سميت توات لأنها تواتي للعبادة . ينظر ص ١٢.

(*١٠/) : لغة القبائل الأصلية التي سكنت المنطقة .

(*١١/) : التكرورية لغة مدن تمبكتو وأدغاغ وزناقية وبيط وما بينهم من الحواضر .فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي .ص ٢٦. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حاجي .دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

(*١٢/) : التارقية لغة الطوارق من سكان الصحراء .

(*١٣/): درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام . محمد ابن عبد الكريم البكري . ص٠٨.

(*١٤/) : إقليم توات خلال القرنين ١٨ - ١٩ م .ص ١١٣. فرج محمود فرج .ديوان المطبوعات الجامعية .الجزائر ١٩٧٧م .

(*١٥/) : ينظر : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس .ص.١٥ .تحقيق هوداس و دلافوس.مطبعة بردين .باريس١٩٦٤ .

(*١٦/) : ينظر : تاريخ السودان .تحقيق هوداس .مطبعة بردين .١٨٩٨م .

(*١٧/) : أسعى جاهدا إلى إعداد إحصائية ودراسة عامة و دقيقة لمجمل مخطوطات المنطقة المتواجدة في الخزائن والمكتبات الإفريقية وغيرها و هذا بالإطلاع على بعض الفهارس الخاصة والاستعانة ببعض الزملاء في نيامي بالنيجر وفي مدينة تمبكتو بمالي

(*١٨/) : اعتمدنا في إحصائها وضبطها أولا على ما وقفنا عليه شخصياً من خلال جولاتنا الميدانية لمختلف مناطق الولاية (توات. قورارة. تيدكلت) خلال عشر سنوات على التوالي (١٩٩٥/٢٠٠٥)، وثانياً على ما اطلعنا عليه من خلال لقاءاتنا المختلفة مع بعض المهتمين في هذا المجال. أو ما جاء مسجلا في بعض سجلات جمعية الأبحاث والدراسات بأدرار. و للمزيد ينظر : رسالتنا المقدمة لنيل شهادة الماجستير . (شرح روضة النسرين في مسائل التمرين لمحمد بن أُب المزمري .تحقيق ودراسة .(ص ٢١٥ إلى ٢٢٠) .إشراف الدكتور مختار بوعناني . قسم اللغة العربية وآدابها .جامعة وهران ٢٠٠٢م.

(*١٩/) : الدراسة قام بها الأستاذان : بوجمعة دليمي ومبارك جعفري في إطار مذكرة التخرج لنيل شهادة التكوين المتخصص في المخطوطات .جامعة الجزائر ٢٠٠٥م.

(*٢٠/) : محمد بن أب المزمري (١١٦٠هـ) حياته وآثاره أحمد أبا الصافي جعفري .ص ٣١/٣٢ .دار الكتاب العربي الجزائر .ط/٠١ . ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .

(*٢١/) : إقليم توات خلال القرنين ١٨ - ١٩ م . فرج محمود فرج .

(*٢٢) مثل فهرس مخطوطات ولاية أدرار .للدكتورين بشار قويدر ومختار حساني . وهو من أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ . ١٩٩٩م .مطبعة عمار قرفي .باتنة الجزائر .

المصادر والمراجع:

٠١ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصري. الدار البيضاء المغرب ١٩٩٧م.

٠٢ إقليم توات خلال القرنين ١٨ - ١٩م. فرج محمود فرج. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر ١٩٧٧م.

٠٣ بحث حول خزانة الشيخ الحاج عبد القادر بن سالم المغيلي. في إطار مذكرة التخرج لنيل شهادة التكوين المتخصص في المخطوطات. جامعة الجزائر. ٢٠٠٥. الأستاذان: بوجمعة دليمي ومبارك جعفري.

٠٤ تاريخ السودان. عبد الرحمن السعدي . تحقيق هوداس. مطبعة بردين باريس. ١٩٦٤م .

٠٥ تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. تحقيق هوداس و دلافوس. مطبعة بردين. باريس١٩٦٤.

٠٦ التعريف ببعض الجوانب الحضارية لإقليم توات . محاضرة للشيخ محمد باي أدرار. الجزائر .

٠٧ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حاجي -دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

٠٨ فهرس مخطوطات ولاية أدرار .للدكتورين بشار قويدر ومختار حساني . وهو من أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ . ١٩٩٩م. مطبعة عمار قرفي .باتنة الجزائر .

٠٩ شرح روضة النسرين في مسائل التمرين لمحمد بن أب المزمري. تحقيق ودراسة. أحمد جعفري. رسالة ماجستير. إشراف الدكتور مختار بوعناني. قسم اللغة العربية وآدابها. جامعة وهران ٢٠٠٢م.

١٠ محمد بن أب المزمري (١١٦٠هـ) حياته وآثاره .أحمد أبا الصافي جعفري .ط/٠١ . ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م دار الكتاب العربي الجزائر.

١١ مخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: محمد بن عبد الكريم البكري.

١٢ مخطوطه نسيم النفحات في ذكر جواب من أخبار توات

١٣ مخطوط نقل الرواة عن من أبدع قصور توات: محمد بن عمر بن محمد بن المبروك الجعفري.

١٤ المصباح المنير. أحمد بن محمد الفيومي. ط ٤. المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢١ .

١٥ معجم مشاهير المغاربة . بوعمران الشيخ وآخرون. جامعة الجزائر ١٩٩٥م .

١٦ الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية عبد العزيز بن عبد الله .المغرب ١٩٧٦م .



نماذج من التراث الدفين بالدر الثمين في أسماء المصنفين لابن أنجب الساعي

د. محمد سعيد حنشي
الرباط – المغرب.

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره، وسببا للمزيد من فضله، ودليلا على آلائه وعظمته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد؛

فلا شك أن الفتن والحروب، والمحن والكروب التي مرت بها أمتنا حرمتنا من الاستفادة من قسم كبير من تراثنا. إلا أن الجهل بقيمة هذا التراث، وكيفية حفظه وصيانته، مازال يفوت علينا الاستفادة من كثير من ذخائره، فبعض خزاناتنا ،خصوصا الخاصة منها، ما زالت تسير بعقلية متخلفة، فهي تكنز رصيدها المخطوط في مكان غير مناسب وغير أمين، وتضن به على العلماء والباحثين، فيكون مصير كثير من نفائس مخطوطاتها ووثائقها الإهمال والنسيان، أو التلف والضياع.

ومن بين هذا التراث المكنوز هناك نفائس نادرة كثيرا ما سمعنا باسمها، دون أن نظفر برسمها.

والنموذج الذي اخترناه موضوعا لهذا البحث خير ما يمثل هذا الضرب من الكتب، فكتاب **الدر الثمين في أسماء المصنفين** لابن أنجب الساعي، الذي اشتهر بعنوان **أخبار المصنفين**، يعد من أهم مؤلفات هذا العالم الكبير، وكان يظن أنه من المصنفات المفقودة، حتى يسر الله الوقوف على جزئه الأول في إحدى الخزانات الخاصة بالمغرب، وهو من المصادر العربية القليلة التي استقصت أخبار المصنفين وما صنفوه في التراث العربي إذ يضم مجموعة من تراجم المصنفين، وأسماء مصنفاتهم، وما استطرف من أشعارهم وأخبارهم.

والجانب الطريف في هذا الكتاب، والذي

سيكون بؤرة هذا البحث. هو ما يتعلق ببعض أخبار ابن أنجب نفسه. وبعض أسماء مصنفاته التي لا زالت مفقودة. كما سنذكر نماذج أخرى من كتب نقل منها

بعض أخبار مترجميه، أو قرأها، أو تملكها، أو وقف عليها في خزائن الكتب في عصره لكنها لم تصل إلينا.

٢. حياة ابن أنجب الساعي[*]

هو تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عبد الله ابن عمار بن عبيد الله بن عبد الرحيم[١] الساعي[٢] البغدادي المؤرخ، المعروف بالخازن[٣]، لأنه كان خازن كتب المدرسة النظامية، والمدرسة المستنصرية ببغداد، وهما من أعظم خزائن الكتب في عصره. ورغم شهرة هذا العالم الجليل، فقد وقع في اسمه خلط كبير عند بعض من ترجم له.

فقد ترجم في **الجواهر المضية** باسم ابن الساعاتي، نسبة إلى عمل الساعات[٤]، وذُكِر اسمه أيضا محرفا في كل من تاريخ ابن الفرات، وكتاب **المخلاة** لبهاء الدين العاملي، وكتاب **التذكرة التيمورية**، فسمي في الأول ابن السباعي، والصواب حذف الباء، وسمي في الثاني ابن الساهي، وهو تحريف واضح، وسمي في الثالث أبو المساعي، وهو أيضا تحريف، وصوابه ابن الساعي[٥]. إلا أن المشهور والمتفق على صحته بين تلاميذه ومعظم مترجميه هو ابن أنجب الساعي.

أولا: مولده:

ولد علي بن أنجب في شهر شعبان سنة (٥٩٣هـ-١١٩٧م) بمدينة بغداد على عهد الخليفة أبي العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي، في أسرة متواضعة، إذ كان أبواه من عامة الناس، فلم يرد في المصادر ما يدل على أن أباه كان من علماء عصره، أو من أعيان مصره الذين لهم حظوة عند سلطان أو أمير أو وزير.

ثانيا: ذكر بعض شيوخه:

كان ابن أنجب منذ حداثة سنه محبا للعلم والعلماء، شغوفا بحضور مجالسهم، وكان يتردد على حلقات العلم بمساجد بغداد ورباطاتها، ففيها حفظ القرآن الكريم، وسمع الحديث الشريف، ودرس علوم العربية، والتاريخ والأخبار، والسير والمغازي والآثار، والفقه والآداب والأشعار، وغيرها من العلوم على يد مجموعة من المشايخ نكتفي بذكر بعض من صرح بمشيختهم في كتاب الدر الثمين:

١. **محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود ابن حسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي المعروف بابن النجار** (ت. ٦٤٣هـ) أخذ عنه ابن أنجب تاريخه الذي ذيل به تاريخ بغداد، ودليل ذلك قوله في ترجمته في الدر الثمين: "وله من التصانيف كتاب التاريخ المجدد المذيل به على تاريخ الخطيب في ستة عشر مجلدا بخطه...وقد قرأته عليه ووقف كتبه ووصى إلي بالنظر فيها"[٦].

٢. **أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى ابن علي بن حجاج الدبيثي الواسطي الشافعي** (ت٦٣٧هـ): قرأ عليه ابن أنجب تاريخه، وقال في ترجمته في الدر الثمين: "شيخنا أبو عبد الله

الحافظ الواسطي المولد البغدادي الدار والوفاة. استفدت منه، وأخذت عنه... صنف تاريخا ذيل به تاريخ أبي سعد عبد الكريم ابن السمعاني. واستدرك عليه في عدة شيوخ وَهِمَ فيهم قرأته عليه..."[7].

٣. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي (ت.٦٢٦هـ): أقر ابن أنجب بمشيخته صراحة في الدر الثمين في ترجمة أبي القاسم الجبائي حين قال معلقا على سنة وفاة هذا الأخير: "ذكر ذلك شيخنا ياقوت الحموي"[8]، وبالإضافة إلى ذلك أنه نقل منه في هذا الكتاب مجموعة مهمة من الأخبار كقوله مثلا في ترجمة العماد الأصبهاني: "ومن شعره ما أخبرني به الأديب ياقوت الحموي عنه"[9]. كما نقل منه في تاريخه الجامع المختصر خبرا يقول فيه: "أنبأني ياقوت الحموي قال: أنشدني ولد فخر الدين الرازي قطعا من شعره..."[10].

٤. محمد بن أبي الفرج بن بركة أبو المعالي المعروف بالفخر الموصلي (ت.٦٢١هـ): أخذ ابن أنجب، وقال في ترجمته: "كان من مجودي القرآن. قرأت عليه القرآن المجيد بالقراءات واستفدت منه، وكان طيب الأخلاق كيسا متواضعا متوددا لطيف العشرة..."[11]. وذكر له مجموعة من الكتب في علوم القرآن.

٥. الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر ابن علي بن إسماعيل، أبو الفضائل الصغاني القرشي العدوي العمري الحنفي (ت. ٦٥٠هـ): ترجمه ابن أنجب في هذا الجزء من كتابه الدر الثمين ترجمة وافية، وأقر بمشيخته فقال: "قرأت عليه المقامات الحريرية حفظا وغيرها. وكان خيرا، حسن الطريقة، جميل الأمر، ظاهر النسك، وقورا...وكان يحض على قراءة كتاب معالم السنن للخطابي ويقول من حفظه ملك ألف دينار. وأنا حفظته وملكتها... وصنف شيخنا الصغاني... كتاب أسماء الأسد قرأته عليه..."[12].

٦. زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن الحارث الأصغر أبو الْيُمْن الْكِنْدي (ت.٦١٣هـ) [13]: قال فيه ابن أنجب في هذا الكتاب: "شيخنا تاج الدين أبو اليمن الكندي العلامة الإمام في معرفة علوم العربية نحوا ولغة، الحافظ الجامع لأسباب الفضائل، محط الركبان، وحسنة الزمان...وكان حيا في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وكتب إلي بالإجازة بعد هذا التاريخ رحمه الله"[14].

٧. ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي بن سُكَيْنَة البغدادي الصوفي الشافعي (ت.٦٠٧هـ): ذكر عرضا في هذا الكتاب، ضمن شيوخ ابن أنجب، في ترجمة إسماعيل بن الحسين ابن محمد المروزي العلوي: "قرأ على أبي الفتح ناصر ابن أبي المكارم المطرزي الخوارزمي...وعلى شيخنا عبد الوهاب بن سكينة"[15]. كما ذكر ابن أنجب ابن سكينة، ضمن شيوخه، في مواضع أخرى من كتابه أخبار الزهاد. وذكر في نساء الخلفاء[16] أنه روى عنه بالإجازة.

ثالثا: بعض تلاميذه:

تتلمذ على يد علي بن أنجب الساعي مجموعة من العلماء الأعلام، نذكر منهم:

١. كمال الدين أبو الفضائل عبد الرزاق

ابن أحمد بن محمد بن أبي المعالي الشيباني المروزي الشهير بابن الفوطي[١٧] (ت. ٧٢٣هـ): وقد صرح بتلمذته عليه في مواضع كثيرة من كتابه **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**. فقد قال مثلا في ترجمة فخر الدين أبي بكر عبيد الله ابن علي بن نصر المعروف بابن المارستانية[١٨]: "ذكره شيخنا تاج الدين علي بن أنجب في تاريخه..."[١٩]. وقال في ترجمة عماد الدين أبي العلاء رجاء ابن محمد بن هبة الله الأصبهاني: "ذكره شيخنا تاج الدين في كتاب لطائف المعاني..."[٢٠].

٢. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن أبي النجم الحدادي: ذكره عمر بن علي القزويني أكثر من مرة في مشيخته تلميذا لابن أنجب. فقد ذكر من ضمن مروياته كتاب **إحياء علوم الدين** الذي سمعه جميعه: "على الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد بن أبي النجم الحدادي رحمه الله تعالى بسماعه على الشيخ العالم تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب ابن عثمان الخازن المؤرخ..."[٢١]، وكذا كتاب **الأحاديث الثمانية الغالية**، الذي قرأه على الشيخ محمد بن سعيد الحدادي بسماعه على مؤلفه[٢٢].

٣. أبو العباس أحمد بن غزال بن مظفر المقرئ (ت.٧٠٧هـ)[٢٣]: ذكره عمر بن علي القزويني في مشيخته تلميذا لابن أنجب أكثر من مرة، يقول مثلا حينما ذكر كتاب **الأربعين المسلسلات المستخرجة من الصحاح من رواية المحمدين**: تخريج أبي المحاسن عبد الرزاق ابن نصر الطَّبَسي: "أرويه عن الشيخ أحمد بن غزال ابن مظفر المقرئ والمدرس يحيى بن عبد الله بن عبد الملك وغيرهما إجازة عن علي ابن أنجب ابن عثمان الشافعي."[٢٤]. وروى أحمد ابن غزال عن ابن أنجب أيضا كتاب المصابيح[٢٥].

٤. أبو محمد يوسف بن عبد الصمد بن محمد البزاز الأزجي المقرئ: روى عن ابن أنجب الساعي بعض مؤلفات الزمخشري **كالكشاف والمفصل** في النحو، **والفائق في غريب الحديث**، وغير ذلك مما يوافق أهل السنة والجماعة وأئمة السلف خاصة دون ما يخالفهم من الاعتزال وغيره من البدع[٢٦].

٥. محمود بن علي بن محمد بن مقبل تقي الدين أبو الثناء الدقوقي البغدادي الحنبلي[٢٧] (ت.٧٣٣هـ). قال الحافظ ابن حجر: "أسمعه أبوه على علي ابن أنجب المؤرخ"[٢٨]. وقال ابن العماد الحنبلي: "سمع الكثير بإفادة والده من عبد الصمد بن أبي الجيش، وعلي بن وضاح، وابن الساعي"[٢٩].

رابعا: وظائفه:

ذكر أغلب من ترجمه، أنه رُتِّبَ خازن كتب بخزانة المدرسة المستنصرية[٣٠]. وذكر ابن رافع السلامي أنه كان خازن الكتب بالمدرسة النظامية[٣١]. وهذه الوظيفة السامية لم تكن تسند إلا لكبار العلماء.

ولا شك أن الرجل قد استفاد من عمله هذا أيما استفادة، فقد كثرت تآليفه، وتنوعت تصانيفه، وذاع ذكره، وأضحى مقربا من أعيان الدولة يخالطهم ويحضر مجالسهم، وهذا ما يسر له الاطلاع على خزائنهم الخاصة، وبعض الرسائل

الرسمية المحفوظة في دواوينهم، مما جعل كتبه معززة بشواهد قلما توافرت عند غيره من المؤرخين.

خامسا: مكانته في عصره:

لابن أنجب الساعي ذكر طيب عند جل من ترجمه، فقد وصف بمجموعة من الصفات والألقاب التي تدل على غزارة علمه، وتمام فضله، وكرم أخلاقه، فقد أثنى عليه الظهير الكازروني بالديانة[٣٢]، ووصفه في تاريخه بالشيخ الثقة في موضعين[٣٣].

وقال عنه صاحب الحوادث: إنه "كان أديبا فاضلا"[٣٤]، وبنفس الصفة وصفه اليونيني في ذيل مرآة الزمان[٣٥].

ووصفه الإمام الذهبي في تذكرة **الحفاظ**: بـ"الإمام المؤرخ البارع"[٣٦]، وفي تاريخ الإسلام: بـ"الأديب الفاضل الأخباري"[٣٧]، نفس الصفات وصفه بها الصفدي في الوافي بالوفيات[٣٨].

أما الإسنوي، في **طبقات الشافعية**، فقد حلاه بمجموعة من الألقاب الحسنة حين قال: "كان فقيها، قارئا بالسبع، محدثا، مؤرخا، شاعرا لطيفا كريما"[٣٩].

ووصف ابن العماد الحنبلي علمه وفضله بقوله: "كان إماما حافظا مبرزا على أقرانه"[٤٠].

وذكر ابن رافع السلامي بعض صفاته الخِلقية والخُلقية في ترجمته فقال: "كان مقبول الصورة، منور الوجه لطيفا، دمث الأخلاق، كريم الطباع، كثير الاطلاع...محترما مكرما"[٤١].

ورجل بمثل هذه السيرة الحسنة، والأخلاق المرضية، والعلم الغزير، حقيق بأن يحظى بالتقدير والاحترام من لدن الخاص والعام، وأن يكون معززا مكرما عند الخلفاء والأمراء والوزراء، حظيا مكينا عند الولاة والقضاة، ولم تزده هذه المكانة المرموقة إلا تواضعا وحبا في صحبة العباد والزهاد، فقد لبس خرقة التصوف سنة ٦٠٨هـ، أي منذ أن كان عمره خمس عشرة سنة[٤٢].

إلا أن ابن أنجب لم يسلم، كغيره من العلماء، من النقد والتجريح، فقد قال فيه الإمام الذهبي: "وما هو من أحلاس الحديث، بل عداده في الأخباريين"[٤٣]، والرأي نفسه نقله بعض من ترجمه، كالسيوطي في **طبقات الحفاظ**[٤٤].

أما الحافظ ابن كثير فقد ليَّنهُ في **البداية والنهاية** حين قال: "لم يكن بالحافظ والضابط المتقن"[٤٥].

لكن هذا التجريح والغمز لا ينقص بأي حال من الأحوال من قدر الرجل، ولا ينبغي أن يحجب علمه وفضله ومكانته كعالم من أشهر علماء القرن السابع الهجري الذين أغنوا الخزانة العربية بمؤلفات نفيسة على الرغم من أن أغلبها ما زال في حكم المفقود.

سادسا: وفاته:

عاش ابن أنجب الساعي حياة طويلة على الرغم مما مر به من أحداث ملمة، وفتن مدلهمة، عقب سقوط مدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ، وعاش نيفا وثمانين سنة، ثلاثا وستين سنة منها في ظل حكم بني العباس، وثماني عشرة سنة في ظل الحكم المغولي، وقد اشتكى في شعره من عجزه وهرمه حين قال: [الرمل]

تـرعـش الأعـضـــاء مـنـي فـأنـا
فـي صُـعـودي وهـبُـوطـي فـي حـذرْ
وإذا اسـتـنـجـدتُ عـزمـي قـال لـي
عـنـدمـا أدعُـــوهُ: كـلا لا وزرْ[46]

وتوفي ابن أنجب في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك سنة ٦٧٤هـ[47]، ودفن بمقبرة الشونيزي بالجانب الغربي من مدينة بغداد، ووقف كتبه على خزانة المدرسة النظامية[48].

٢. كتاب الدر الثمين في أسماء المصنفين.

يعتبر كتاب الدر الثمين لعلي بن أنجب الساعي من المصادر المهمة في تراثنا العربي، وقد كان إلى عهد قريب من المخطوطات المطوية التي احترقت على فقدانها أكباد الغيورين، وتاقت إلى اكتشافها همم الباحثين، واشرأبت إلى ظهورها أعناق المهتمين[49]، والنسخة الخطية الفريدة منه، كما ألمعنا إلى ذلك سابقا، كانت محفوظة بخزانة خاصة بالمغرب، وقد كانت سابقا في ملك الشيخ محمد عبد الحي الكتاني وعليها ختم خزانته، وقد اشتراها من تونس عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، وهي مكتوبة بخط مشرقي (نسخ) بمداد أسود على كاغيد عربي سميك مصنوع من ألياف القطن، مع استخدام اللون الأحمر لكتابة أسماء المصنفين المُتَرْجَمِين، ولم يرد فيها ذكر لاسم ناسخها ولا لتاريخ نسخها، إلا أن خطها ونوع ورقها يوحيان بقدمها.

وتقع هذه النسخة في ١١٢ ورقة، مقياس ٢٤ × ١٦سم، مسطرة ٢١ س، وهي خالية من التعقيبة، بها أثر كبير للرطوبة، وبعض الخروم، وهذا ما ساهم في التصاق بعض صفحاتها، وانطماس رسم كثير من كلماتها، بها بعض الطرر إلا أن أغلبها مطموس بفعل الرطوبة أيضا.

عليها تملك ورد فيه ما يلي: " هذا كتاب الدر الثمين في أسماء المصنفين للإمام المحدث المؤرخ البارع تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب البغدادي، المعروف بابن الساعاتي، خازن الكتب للمستنصر العباسي ببغداد، المتوفى سنة ٦٧٤هـ، وهو كتاب عظيم في ست مجلدات[50]، نادر الوجود لا أعلم أنه يوجد الآن في مكتبة لا في الشرق ولا في الغرب، ظفرت بهذا المجلد منه في تونس عام ١٣٤٠هـ، كتبه مالكه محمد عبد الحي الكتاني الحسني حمد مولاه مسعاه آمين"[51]، وقد طالعها الشيخ عبد الحي ونقل منها مجموعة من المعلومات القيمة خصوصا في كتابه تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب.

وقد تم تسفير هذه النسخة تسفيرا حديثا، ضاع معه نوع الترقيم المستعمل، ويُرجَّح أن يكون ترقيما بالكراسات، واضطربت خلاله الأوراق، إذ نجد قسما من ترجمة بعض المصنفين في الأوراق الأولى، والقسم الآخر في آخر الكتاب.

وتبتدئ هذه النسخة بما بقي من مقدمة المؤلف:

"عليهم كتابي الموسوم بلطائف المعاني في ذكر شعراء زماني، ومن عدا هؤلاء فقد ذكروا في كتاب التاريخ الجامع المختصر... وسميته كتاب الدر الثمين في أسماء المصنفين، ومن الله التوفيق وبه أستعين"[52].

- وآخرها:

" عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي أبو القاسم البلخي المتكلم ... رأيت له كتابا في تفسير القرآن المجيد... وكتاب تحف الوزراء. وحضر عند بعض العلماء فدعاه إلى شرب النبيذ فأنشد هذه الأبيات"[٥٣].

والكتاب مبتور البداية والوسط والنهاية. فقد ضاع منها قسم كبير من مقدمة المؤلف، ولم يبق منها إلا أربعة أسطر. وضاعت أجزاء من بعض تراجم الكتاب، كترجمة محمد بن أحمد من محمد المغربي أبو الحسن[٥٤]. وترجمة إبراهيم ابن إسماعيل بن أحمد الطرابلسي، المعروف بابن الأجدابي[٥٥]، كما ضاع قسم من نهاية ترجمة عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي أبي القاسم البلخي[٥٥].

ويوجد في هذه النسخة أيضا أكثر من عشرين ترجمة مكررة كترجمة محمد ابن جرير الطبري. وترجمة محمد بن مسعود العياشي. وترجمة محمد ابن موسى بن عثمان الحازمي، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن قريش الحكيمي وغيرهم من الأعلام. وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه من هذا الكتاب.

وعلى الرغم من اختلاف المصنفين حول عنوان كتاب **الدر الثمين في أسماء المصنفين**، حيث سماه بعضهم أسماء المصنفين، والبعض الآخر سماه **أخبار المصنفين**. إلا أنه لا أحد منهم شكّك في نسبته لابن أنجب الساعي.

فقد نقل منه محمد ابن علي المعروف بابن الطِّقْطِقَى الحسني (ت.٧٠٩هـ) بعض أخبار مترجميه في كتابه **الأصيلي في أنساب الطالبيين**. وذكره بعنوانه الكامل. فقال:" قال ابن أنجب في كتابه **الدر الثمين في أسماء المصنفين** حضرت داره بالكوفة فأحسن ضيافتي وناولني ديوان شعره بخطه"[٥٦].

ونقل منه أيضا الإمام الذهبي في **سير أعلام النبلاء** قسما من ترجمة سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي الحنبلي ثم الشافعي وسماه **أسماء المصنفين** فقال: "قال علي ابن أنجب في أسماء المصنفين: اشتغل بالشام على المجير البغدادي..."[٥٧]. وعزاه إليه كل من حاجي خليفة في **كشف الظنون** وسماه **أخبار المصنفين**. وقال إنه في ست مجلدات[٥٨]، ونسبه إليه بالعنوان نفسه كل من إسماعيل باشا البغدادي في **هدية العارفين**[٥٩]. والزركلي في الأعلام[٦٠].

ويحتوي هذا الكتاب على أكثر من أربعمائة ترجمة من تراجم المصنفين. وأنسابهم، ومناقبهم. وأسماء مؤلفاتهم. ونتفا من أشعارهم، وطرائف من أخبارهم. منها واحد وعشرون ترجمة مهمة لرجال القرن السابع الهجري. وقد صدره ابن أنجب بمقدمة ضاع قسم كبير منها، وبدأ تراجم كتابه بالمحمدين، فتراجم من سمي إبراهيم، فالذي يليه، حسب ترتيب حروف المعجم. لكنه لم يتقيد بترتيب المؤلفين داخل الحرف الواحد، وقد افتتحه بترجمة وافية للإمام الشافعي لأنه كما قال: "هو أول من صنف في الفقه ودونه"[٦١]، وذَكَرَ نبذةً من مناقبه، وما وجده من كتبه. وخَتَمَ هذه الترجمة بذكر وفاته ومدفنه.

حدد ابن أنجب منهجه في تراجم المصنفين بقوله: "وليس هذا الكتاب بصدد أخبار المصنفين، بل المقصود التعريض لذكر نبذة من أخبارهم وذكر تصانيفهم"[٦٢]. إلا أنه لم يلتزم بهذا المنهج التزاما تاما ففي الكتاب تراجم طويلة يذكر فيها الأركان الأساس في الترجمة كالاسم، والكنية، وبعض الشيوخ والتلاميذ والمؤلفات، وتاريخ الوفاة. ثم يضيف إلى ذلك بعض الاستطرادات التاريخية المهمة التي وقعت في عصر المترجم، وبعض أخباره وأشعاره ومدفنه إلى غير ذلك من الاستطرادات. وأحيانا أخرى يكتفي بترجمة قصيرة لآخرين في سطر أو سطرين. يذكر فيها الاسم والنسب وتاريخ الوفاة وبعض المؤلفات، لذلك تفاوتت تراجم هذا الكتاب من حيث الأهمية والطول والقصر.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم مترجَمي ابن أنجب: الشافعي المذهب: كانوا شافعية، ومع ذلك فإنه لم يغفل ترجمة أصحاب المذاهب الأخرى كالحنفية والمالكية والحنبلية، غير أنهم قلة بالنسبة للشافعية حسب ما وقفنا عليه من تراجم هذا الكتاب، وعلى الرغم من أن أغلب الأعلام المترجمين في الدر الثمين سبق التعريف بهم في مصادر أخرى، كالفهرست لابن إسحاق النديم، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وغيرهما، إلا أن هذا الكتاب يضم مجموعة من تراجم شيوخ ابن أنجب ومعاصريه. وهو في هذه التراجم عمدة لغيره من الأدباء والمؤرخين، لأنه استقى بعض الأخبار المتعلقة بشيوخه ومعاصريه منهم مباشرة دون عزو أو إسناد. يقول مثلا في ترجمة شيخه محمد ابن سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج الدبيثي: "ذكر لي أن مولده في يوم الاثنين سادس عشر رجب من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة."[٦٣].

وقال أيضا في ترجمة شيخه محمد بن أبي الفرج أبي المعالي المعروف بالفخر الموصلي: "سألته عن مولده، فقال في ذي الحجة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وتوفي ليلة السبت لست خلون من شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وستمائة، ودفن في مقبرة السهلية، بقرب جامع السلطان"[٦٤].

ومنه أيضا قوله في ترجمة محمد بن عبد الله ابن محمد أبو العز البصري: "ذكر لي أن مولده في الثامن من المحرم من سنة ست وستمائة في شهر آب الرومي...قدم بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة"[٦٥].

ويستطردُ ابن أنجب، أحيانا، في بعض تراجمه، فيذكر بعض الأحداث التاريخية البارزة التي وقعت في سنوات معينة، يقول مثلا في ترجمة محمد ابن طلحة ابن محمد أبو سالم النصيبي العدوي القرشي حين ذكر عرضا سنة ٦٥٦هـ: "وهي السنة التي أخذت فيها بغداد، وانقرضت الدولة العباسية، واستولت الدولة الجنكزخانية. ...وكثر فيها القتل والسفك والاستئصال"[٦٦].

ومن ذلك أيضا قوله في وصف بعض أحداث سنة ثمان وستين وخمسمائة: "وهي السنة التي غرقت فيها بغداد في خلافة المستضيء"[٦٧]، وذكر تاريخ افتتاح المدرسة المستنصرية في رجب سنة إحدى وثلاثين وستمائة في موضعين من كتابه، وذكر مجموعة من شيوخها، كما ذكر

افتتاح المدرسة التي بنتها أم الإمام الناصر لدين الله ببغداد في غرة المحرم سنة ٥٩٠هـ[٦٨].

هذا بالإضافة إلى تعداد مجموعة من مدارس بغداد وربطاتها وبعض من دَرَّسَ بها. ومثل هذه الأحداث التاريخية لا تخفى أهميتها. وإن ذكرت عرضا في تراجم المصنفين.

اعتمد ابن أنجب في تأليف هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من مصادر التراث. بعضها وصل إلينا. وبعضها الآخر ما زال مطويا. نذكر منها:

١. **تاريخ أصبهان لحمزة الأصفهاني**[٦٩] نقل منه بعض أخبار الأصبهانين كأحمد ابن يوسف الأصبهاني، وسمكة القمي[٧٠].

٢. **تاريخ بغداد للخطيب البغدادي**. ونقل منه مجموعة من الأخبار خصوصا ما تعلق بشيوخ مترجميه.

٣. **تاريخ خوارزم لمحمود بن محمد الخوارزمي**[٧١]. نقل منه بعض الأخبار الخاصة بزين المشايخ أبي الفضل النحوي الخوارزمي[٧٢].

٤. **تاريخ صدقة ابن الحداد**[٧٣]. نقل منه بعض أخبار محمد بن محمد البروي. وأبي الحسن ابن الخل[٧٤].

٥. **تاريخ ابن المارستانية**[٧٥]: **ديوان الإسلام الأعظم أو ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام،** كما ذكر سبط ابن الجوزي. نقل منه بعض أخبار سديد الدولة ابن الأنباري[٧٦].

٦. **تاريخ همذان لأبي العباس شيرويه**[٧٧]. نقل منه بعض أخبار بديع الزمان الهمذاني[٧٨].

٧. **الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة لابن القطاع**[٧٩]. نقل بعض أخبار محمد بن الحسن الطوبي[٨٠].

٨. **ذيل أبي الفضل ابن شافع الجيلي**[٨١] **على تاريخ بغداد**، نقل منه بعض أخبار محمد بن إبراهيم الجرباذقاني[٨٢].

٩. **زينة الدهر في ذكر محاسن أهل العصر**[٨٣]. لأبي المعالي الخطيري. نقل منه قسما من ترجمة الضحاك بن سالم الألوسي[٨٤].

١٠. **سياق تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسي**[٨٥]. نقل منه بعض أخبار محمد ابن إسحاق الزوزني البحاثي. والحسن بن عبد الله العثماني النيسابوري، وشاهفور ابن طاهر الإسفرايني[٦٦].

١١. **طبقات الشافعية لإسماعيل بن هبة بن باطيش الموصلي**[٨٧]. نقل منه ابن أنجب بعض أخبار محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

١٢. **كتاب الفهرست لابن إسحاق النديم**: وقد صرح ابن أنجب بالنقل منه أكثر من خمسين مرة. ونقل منه في مواضع أخرى لم يذكرها خصوصا ما تعلق بعناوين المصنفات. كما نقل منه أخبارا لم ترد في النسخ المطبوعة من هذا الكتاب.

١٣. **كتاب الفهرست لأبي جعفر الطوسي**. نقل منه مجموعة من أخبار مصنفي الإمامية.

١٤. **كتاب الموالي للجعابي**[٨٩]. نقل منه بعض أخبار قطرب[٩٠].

١٥. **كتاب النحويين لمحمد بن عبد الملك التاريخي**[٩١]. نقل منه بعض أخبار أبي العباس ثعلب[٩٢].

١٦. **معجم الأدباء لياقوت الحموي**: وقد نقل منه ابن أنجب مجموعة من التراجم بنصها دون الإحالة إلى ذلك، وقد بينا ذلك أثناء توثيق النصوص. إلا أن الأمر المهم في الدر الثمين هو أن ابن أنجب كان يحيل إلى أخبار وأشعار لا توجد في النسخة المطبوعة من معجم الأدباء. من ذلك قوله في ترجمة أحمد بن محمد البرقي: "وله شعر كثير قد ذكر له ياقوت قطعا منه"[43]. ولا وجود لهذا الشعر في ترجمة البرقي في هذا الكتاب. وترجم محمد بن أبي القاسم الجَبَائي وقال: إنه "مات بجبأ في سنة خمس وسبعين وخمسمائة. ذكر ذلك شيخنا ياقوت الحموي"[44]. وهذه الترجمة لا وجود لها أيضا في النسخة المطبوعة من معجم الأدباء. وهذا يؤكد أن النسخة المطبوعة من معجم الأدباء غير تامة.

١٧. **المقتبس لابن المرزباني**. نقل منه بعض أخبار نفطويه.

١٨. **وشاح دمية القصر ولقاح روضة العصر لأبي الحسن البيهقي**[45]. نقل منـــه بعض أخبار أسعد بن مسعود بن علي، والحسين بن أحمد الزوزني[46].

٤. نماذج من الكتب المفقودة التي ذكرت في الدر الثمين في أسماء المصنفين:

أولا: كتب ابن أنجب الساعي المفقودة:

يعتبر علي بن أنجب الساعي من العلماء العرب الذي تميزوا بغزارة التأليف، وعناوين مؤلفاته التي وصلتنا تؤكد أنه ألف في علوم مختلفة، مثل الحديث، والتاريخ، والتفسير، والفقه، والأدب، وغيره. وقضى رحمه الله جزءا كبيرا من حياته في طلب العلم وتدوينه. شاهد ذلك ما قاله زكي الدين عبد الله بن حبيب الكاتب: [السريع]

مـــازال تـــاجُ الـدِّيـن طُـول الـمـدى
مـن عُـمْـره يُـعْـنـق فـي الـسَّـيْـر
فـي طـلـب الـعـلْـم وتـدويــنـه
وفـعْـلــه نـفْـعٌ بـــلا ضـيْـر
عـــلا عـلــيٌّ بـتـصــانـيـفـه
وهــــذه خــاتـمــة الـخـيْـر"[47]

قال الظهير الكازروني في وصف مؤلفاته: إنها "كثيرة جدا لعلها وقر بعير... "[48].

وقال الإمام الذهبي في نفس المضمار: وقد "حُصرت مؤلفاته فبلغت ثلاثا وثلاثين ومائة مجلد، وهي بين المجلد الواحد والخمسة والعشرين مجلدا"[49]. لكن معظم مؤلفات الرجل لم تصل إلينا. لكن العثور على كتاب **الدر الثمين في أسماء المصنفين** كشف لنا جوانب مهمة من حياة ابن أنجب، سيما ما تعلق ببعض شيوخه، وما رواه عنهم من علوم وآداب، وما وقف عليه من غريب آثارهم، ونفيس مصنفاتهم. كما وجدنا في هذا الكتاب أيضا ثلاثة عشر مصنفا من أنفس مصنفاته. قسم منها لم نقف له على أثر فيما بين أيدينا من مصادر، وقسم آخر ذكر في بعض من مصادر التاريخ والأدب التي جاءت بعده، وهي كالآتي:

١ - **أخبار ابن سينا**: ذكره ابن أنجب في ترجمة أبي علي الحسين ابن سينا دون أن يذكر اسم الكتاب كاملا فقال: "وأخبار ابن سينا غريبة عجيبة قد ذكرتها في كتاب مفرد..."[50].

٢ - **الاقتفاء لطبقات الفقهاء:** أحال إليه ابن أنجب أحد عشر مرة في تراجم كتاب الدر الثمين في أسماء المصنفين أولها في نهاية ترجمة الشافعي حين قال: "وقد ذكرت طرفا من مناقبه في أول كتاب **الاقتفاء لطبقات الفقهاء**..."[١٠١]. وهذا الكتاب ذيل على كتاب **طبقات الفقهاء** لإبراهيم بن علي بن يوسف أبي إسحاق الفيروزآبادي الشيرازي ودليل ذلك قوله في ترجمة هذا الأخير: "إمام أصحاب الشافعي في زمانه. وإليه انتهت رئاستهم علما ودينا وورعا...ومن تصانيفه كتاب **التنبيه** في الفقه...وكتاب **طبقات الفقهاء** وعليه ذيلت كتاب الاقتفاء"[١٠٢].

ذكره أيضا تلميذه ابن الفوطي في مواضع كثيرة من كتابه **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، ونقل منه مجموعة من الأخبار. ونقل منه الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء. وذكره الإسنوي في **طبقات الشافعية**[١٠٣]. والداودي في **طبقات المفسرين**[١٠٤]. وقالا: إنه يضم ثمانية مجلدات.

٣ - **بغية الألباء من معجم الأدباء:** ذكره ابن أنجب في ترجمة الرضى الموسوي فقال: "وقد ذكرت طرفا من أخباره في كتاب **جهد الاستطاعة في شرح نهج البلاغة** وفي كتاب **بغية الألباء من معجم الأدباء**"[١٠٥]. ولعله اختصار لكتاب شيخه ياقوت الحموي معجم الأدباء. وقد ذكر في بعض المصادر بعنوان **معجم الأدباء**[١٠٦]. وفي أخرى بعنوان أخبار الأدباء[١٠٧]. وهو في خمسة أجزاء.

٤ - **التبري من عقيدة المعري:** ذكره ابن أنجب في نهاية ترجمة المعري فقال: "وله أخبار غريبة مستحسنة. وأشعار مليحة تدل على زهده وحكمته. وأشعار تدل على سوء عقيدته. وقد جمعت مختار أخباره وأشعاره في كتاب مفرد سميته **كتاب التبري من عقيدة المعري**"[١٠٨].

٥ - **ترويح القلوب في شرح حال المحب والمحبوب:** ذكره ابن أنجب في الدر الثمين في ترجمة محمد بن داود الأصبهاني حين قال: "كان فقيها... أديبا شاعرا أخباريا أحد الظرفاء. وقصته مع محمد بن جامع الصيدلاني مشهورة وقد ذكرتها في كتاب **ترويح القلوب في شرح حال المحب والمحبوب**"[١٠٩]. وقد جمع فيه. كما يظهر. قصصا مليحة لمن اشتهر حبهم وذاع. بسبب مليح شعرهم. ومستطرف أخبارهم.

٦ - **جهد الاستطاعة في شرح نهج البلاغة:** ذكره ابن أنجب في نهاية ترجمة محمد ابن الحسن ابن محمد أبو الحسن الملقب بالرضى الموسوي. فقال: "وقد ذكرت طرفا من أخباره في كتاب **جهد الاستطاعة في شرح نهج البلاغة**. وفي كتاب بغية الألباء من معجم الأدباء[١١٠]." وذكره ابن رافع السلامي بعنوان شرح **نهج البلاغة**[١١١]. وهو من شروح نهج البلاغة التي لم تصلنا.

٧ - **الجواهر السنية في المدائح العلائية:** ذكر ابن أنجب هذا الكتاب أيضا في الدر الثمين في ترجمة داود بن عبد الوهاب بن نجاد أبي البركات النحوي، فقال: "وكان له شعر جيد. وقد ذكرت ما أنشدني في مدح الصاحب الأعظم علاء الدين في كتاب **الجواهر السنية في المدائح العلائية**"[١١٢]. ولم نقف لهذا الكتاب على أثر في مصادر ترجمته.

٨ - **حصول المراد من أخبار ابن عباد**: ذكره ابن أنجب الساعي في نهاية ترجمة الصاحب ابن عباد. فقال: "وقد ذكرت أخباره مستوفاة في كتاب سميته: **حصول المراد من أخبار ابن عباد**"[١١٣]. وهو أيضا من مؤلفاته المطوية التي لم نقف عليها في مصادر ترجمته.

٩ - **الشهود والحكام في مدينة السلام**: وهو أيضا من نفيس كتبه التي ورد ذكرها في الدر الثمين في نهاية ترجمة محمد بن المظفر بن بكران الحموي فقال: "وله أخبار مستحسنة في الزهد والورع والنزاهة والتواضع. وقد ذكرت أخباره في المجلد الرابع من طبقات الشافعية. وفي كتاب **الشهود والحكام في مدينة السلام**"[١١٤]. وذكره أيضا حاجي خليفة في **كشف الظنون** تحت عنوان تاريخ الشهود والحكام ببغداد فقال: "وهو كبير في ثلاث مجلدات"[١١٥]. وذكر في **هدية العارفين** بنفس العنوان[١١٦].

١٠ - **طبقات الشافعية**: أحال إليه ابن أنجب في النص السالف ذكره[١١٧]. ونقل منه ابن الفوطي أكثر من مرة في **تلخيص مجمع الآداب**. وعزاه إليه حاجي خليفة في **كشف الظنون** وقال: إنه سبع مجلدات[١١٨].

١١ - **غزل الظراف ومغازلة الأشراف**: من آثاره النفيسة التي ذكرت عرضا في الدر الثمين. في ترجمة محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني الكاتب المعروف بابن أخي العزيز. فقال: "وله ديوان شعر وقفت عليه. واخترت من غزله في كتابي الموسوم **بغزل الظراف ومغازلة الأشراف**..."[١١٩]. وذكر أيضا في **تاريخه**[١٢٠] وتاريخ الحافظ الذهبي الذي قال إنه يقع في مجلدين. وأجازه عليه المستنصر بالله بمائة دينار"[١٢١]. وذُكِرَ في **كشف الظنون** بعنوان غزل الطرف[١٢٢].

١٢ - **لطائف المعاني في ذكر شعراء زماني**: ترجم فيه ابن أنجب بعض شعراء زمانه. وذكر الكتاب بعنوانه كاملا فيما بقي من مقدمة كتابه **الدر الثمين**: "...عليهم كتابي الموسوم **بلطائف المعاني في ذكر شعراء زماني**"[١٢٣]. ونقل منه ابن القوطي قسما من ترجمة عميد الدين أبي المظفر منصور بن أحمد بن عباس البني الجعفري الدجيلي. فقال: "ذكره شيخنا تاج الدين أبو طالب في تاريخه في كتاب **لطائف المعاني في شعراء زماني**"[١٢٤]. وذكر أيضا في **طبقات الشافعية** للإسنوي. فقال: إنه يقع في عشر مجلدات[١٢٥]. ونسبه إليه السخاوي في **الإعلان بالتوبيخ**[١٢٦]. وحاجي خليفة في **كشف الظنون** وسماه شعراء الزمان[١٢٧]. وسماه الزركلي تاريخ الشعراء[١٢٨].

١٣ - **المناقب العلية لمدرسي النظامية**: أحال إليه ابن أنجب ثلاث مرات في تراجم كتاب **الدر الثمين**. الأولى في ترجمة أبي بكر الشاشي حين قال: "انتهت إليه رئاسة الشافعية في بغداد. وولي المدرسة النظامية. وقد ذكرت أخباره في **المناقب العلية لمدرسي النظامية**. وفي كتاب **الاقتفاء لطبقات الفقهاء**"[١٢٩]. والثانية في ترجمة أبي العز البصري. والثالثة في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزآبادي. وأحال إليه أيضا في كتاب **أخبار الزهاد** في ترجمة الفيروزآبادي. فقال: "وقد ذكرت أخباره في الورع

وغير ذلك...في كتابي الموسوم بالمناقب العلية لمدرسي النظامية"[130]. وعزاه إليه ابن رافع السلامي في المنتخب المختار"[131].

١٤ - نزهة الأخيار في شرح محاسن الأخبار: ذكره ابن أنجب في ترجمة شيخه الحسن بن محمد الصغاني، فقال: "وقد صنف الصغاني في الأدب عدة كتب منها تكملة **العزيزي**... وكتاب **مشارق الأنوار** في الحديث، جمع فيه صحيح البخاري ومسلم، وكتاب النجم، وكتاب الشهاب وعدة كتب... ولما وقفت على هذا الكتاب، جمعت كتابا سميته كتاب **نزهة الأخيار في شرح محاسن الأخبار**، ورتبته على حروف المعجم"[132].

ثانيا: نماذج من كتب مفقودة لعلماء آخرين ذكرت في الدر الثمين:

ذكر ابن أنجب في الدر الثمين في أسماء المصنفين لائحة طويلة من المصنفات المفقودة لمترجميه، تشمل علوم ومعارف مختلفة، شأنه في ذلك شأن كتاب الفهرست لأبي إسحاق النديم، وكتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، لكننا، تفاديا للإطالة، سنقتصر على ذكر بعض المصنفات التي كان يملكها في خزانته الخاصة، أو رآها بأم عينه في خزانات بغداد العامة.

فمن المخطوطات التي كانت في خزانته الخاصة وذكرها في هذا الكتاب: كُتُب شيخه الحافظ هبة الله محمد بن محمود بن الحسن بن النجار، يقول في قسم من ترجمته: "وله من التصانيف ... كتاب مشيخته يشتمل على عشرة آلاف شيخ لم يبيضه، وكتاب الذيل على الإكمال... ووقف كتبه ووصى إلي بالنظر فيها"[133].

ويقول أيضا في ترجمة محمد بن عمران المرزباني: وقع إليه من أصول كتاب الأجواد "بخطه نيفا وعشرين ألف ورقة"[134].

هذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره من المخطوطات المطوية التي نقل منها بعض الأخبار الخاصة بمترجميه في هذا الكتاب ولا داعي لتكرارها هنا.

ومن نوادر الكتب التي وقف عليها في خزانات بغداد العامة كتاب **كتاب الهمزة والردف لأبي العلاء المعري**: "بناه على إحدى عشرة حالة، الهمزة في حال إفرادها وإضافتها. وهذا الكتاب رأيته في مائة مجلد وهو في الخزانة العتيقة **بالنظامية**"[135].

وكتاب **أخبار القراء والرواة** لمحمد بن عمران المرزباني الذي قال عنه: إنه يقع في "نحو ثلاثة آلاف ورقة، وهو في خزانة **المدرسة النظامية** في عشرين مجلدة"[136].

كما رأى أيضا **تفسيرا للقرآن الكريم** لعبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي أبو القاسم البلخي "على رسم لم يسبق إليه في اثني عشر مجلدا"[137].

هذه بعض النماذج من ذخائر تراثنا الدفين **بالدر الثمين في أسماء المصنفين** لعلي بن أنجب الساعي التي آثرنا التنصيص عليها في هذا البحث لعل الله يدني فرج ما بقي منها رهين كهوف وصناديق ورفوف خزاناتنا، ليتم بها النفع، وتعم بها الفائدة، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

الحواشي

※ ترجمته في: كتاب الحوادث: ٢٢٤، وذيل مرآة الزمان: ١٤٧/٣، وطبقات علماء الحديث، ترجمة ١١٤٢، وتاريخ الذهبي: ٢٧٨/١٥، وتذكرة الحفاظ : ١٤٦٩/٤، والوافي بالوفيات: ١٥٩/٢٠، وطبقات الإسنوي: ٢٤٧/١، والبداية والنهاية: ٢٧٠/١٣، والمنتخب المختار من تاريخ علماء بغداد للسلامي: ١٣٧، والجواهر المضية في طبقات الحنفية: ٣٥٤/١، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٤٦١/١، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ٥٤/٨، والدليل الشافي على المنهل الصافي: ٤٥١/١، وطبقات المفسرين للداودي: ٣٩٤/١، وطبقات الحفاظ للسيوطي: ٥٠٩، وشذرات الذهب: ٣٤٣/٥، وكشف الظنون: ٥٧٣/١، والرسالة المستطرفة: ١٤١، وهدية العارفين: ٧١٢/١، وتاريخ آداب اللغة العربية: ١٩٩/٣، وأعيان الشيعة: ١٧٦/٨، وطبقات أعلام الشيعة: ١٠١/٣، ومقدمة كتاب الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ومقدمة كتاب نساء الخلفاء: ٥-٣٢، وتاريخ علماء المستنصرية: ٢٧٩، ومقدمة تاريخ الخلفاء العباسيين: ٣-٦، والأعلام: ٢٦٥/٤، ومعجم المؤلفين: ٤١/٧.

١. هناك اختلاف في المصادر في اسم أجداده فقد جاء في تذكرة الحفاظ أن اسمه: علي بن الحسين بن عثمان ابن عبد الله البغدادي، وسماه صاحب الجواهر المضية: علي بن أنجب بن عبيد الله بن الحارث. أما الداودي فقد سماه في طبقات المفسرين: علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، وسمي في هدية العارفين: علي بن الحسين بن عثمان بن عبد الله البغدادي.

٢. الساعي: عداء يعدو في مصالح غيره من الناس كالتجار والولاة والسلاطين وينتقل بين البلدان.

٣. الخازن اصطلاح أطلق على جماعة منهم من كان خازن كتب ومنهم من كان خازن أموال. أنساب السمعاني: ٢٥٥/٢، وخازن الكتب هو الذي يقوم بحفظها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها، وليس له أن يعيرها إلا برهن. وفيات ابن رافع السلامي: ٣٠٢/٢.

٤. الجواهر المضية: ٣٥٤/١، ذكر فيه القرشي أنها نسبة إلى خال له اسمه أحمد بن علي بن تغلب كان أبوه ساعاتيا على باب المستنصرية.

٥. نقلا عن: ابن الساعي البغدادي، د. عبد الحكيم الأنيس، صدى الدار السنة الأولى العدد السابع.

٦. الدر الثمين: ٨٠-٨١.

٧. المصدر نفسه: ١٤٥.

٨. المصدر نفسه: ٥٧.

٩. المصدر نفسه: ٦٣.

١٠. الجامع المختصر: ٣٠٧.

١١. الدر الثمين: ١١٤.

١٢. المصدر نفسه: ٣٦٤.

١٣. ترجمته في: معجم الأدباء: ١٣٣٠، وإنباه الرواة: ١٠/٢، ووفيات الأعيان: ٣٣٩/٣.

١٤. الدر الثمين: ٢٩٢-٢٩٣.

١٥. المصدر نفسه: ٢٢٦.

١٦. نساء الخلفاء: ٤٤.

١٧. ترجمته في: تذكرة الحفاظ: ١٤٩٣، وفوات الوفيات: ٣١٩/٢، والبداية والنهاية: ١٠٦/١٤ ولسان الميزان: ١٠/٤.

١٨. أبو بكر عبيد الله بن علي بن نصر الطبيب المتوفى سنة ٥٩٩هـ. ألزم نفسه بتأليف ديوان الإسلام الأعظم في تاريخ بغداد ورسم له أن يأتي في مائة مجلد، بلغ الستين منه فقط. أخذ عنه ابن الدبيثي وابن النجار

١٩. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٤ القسم الثالث ٢٢٦.

٢٠. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٤ القسم الثاني ٥٥/٤.

٢١. مشيخة القزويني: ٣١٦.

٢٢. المصدر نفسه: ٣٥١.

٢٣. ترجمته في: غاية النهاية في طبقات القراء: ٩٤/١، والدرر الكامنة: ١٢٨/١.

٢٤. مشيخة القزويني: ٤٦٥.

٢٥. المصدر نفسه: ٣٢٠.

٢٦. المصدر نفسه: ٥٣٤.

٢٧. ترجمته في: الدرر الكامنة: ٣٠٢/٤، وشذرات الذهب: ١٠٦/٦، وهدية العارفين: ٤٠٨/٢.

٢٨. الدرر الكامنة: ٤/٢٠٢.

٢٩. شذرات الذهب: ٦/١٠٦.

٣٠. ذيل مرآة الزمان: ٣/١٤٧. وتاريخ الإسلام: ١٥/٢٧٨، وتذكرة الحفاظ: ٤/١٤٦٩، والوافي بالوفيات: ٢٠/١٥٩، وطبقات الحفاظ للسيوطي: ٥٠٩، وطبقات المفسرين للداودي: ٢٠/١٦٠.

٣١. المنتخب المختار: ١٣٧.

٣٢. تاريخ الإسلام: ١٥/٢٨٠.

٣٣. مختصر التاريخ: ٢٥٥-٢٥٩.

٣٤. الحوادث: ٤٢٢.

٣٥. ذيل مرآة الزمان. ٣/١٤٧.

٣٦. طبقات الحفاظ: ١٤٦٩.

٣٧. تاريخ الإسلام: ١٥/٢٧٨.

٣٨. الوافي بالوفيات: ٢٠/١٥٩.

٣٩. طبقات الإسنوي: ١/٣٤٧.

٤٠. شذرات الذهب: ٢٤٣.

٤١. المنتخب المختار: ١٢٨.

٤٢. أخبار الزهاد خ: ١٠٢.

٤٣. تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٦٩.

٤٤. طبقات الحفاظ: ٥٠٩.

٤٥. البداية والنهاية في التاريخ: ١٢/٢٧٠.

٤٦. طبقات الشافعية للإسنوي: ١/٣٤٧.

٤٧. ذكر ذلك كل من ترجمه باستثناء صاحب الجواهر المضية الذي قال إنه توفي سنة ٦٦٤هـ.

٤٨. طبقات الشافعية للإسنوي: ١/٣٤٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ١/٤٦٢، وطبقات المفسرين: ١/٣٩٥.

٤٩. نشر الكتاب ضمن مطبوعات الخزانة الحسنية بضبط وتعليق د.أحمد شوقي بنبين ومحمد سعيد حنشي سنة ٢٠٠٧م. وسيعاد نشره بدار الغرب الإسلامي قريبا.

٥٠. نقل ذلك عن حاجي خليفة. كشف الظنون: ٢٠.

٥١. الدر الثمين في أسماء المصنفين: ١.

٥٢. المصدر نفسه: ١.

٥٣. المصدر نفسه: ٣٢٧.

٥٤. الدر الثمين: ٣٤.

٥٦. المصدر نفسه : ٣٢٧.

٥٧. الأصيلي في أنساب الطالبيين: ٢٩٧.

٥٨. سير أعلام النبلاء: ٢٢/٢٦٤.

٥٩. كشف الظنون: ٣٠.

٦٠. هدية العارفين: ١/٧١٢.

٦١. الأعلام: ٤/٢٦٥.

٦٢. الدر الثمين: ١.

٦٣. المصدر نفسه: ٢٧٤.

٦٤. الدر الثمين: ١٤٦.

٦٥. الدر الثمين: ١١٤.

٦٦. المصدر نفسه. ٧٨.

٦٧. المصدر نفسه : ٧٨.

٦٨. المصدر نفسه: ٢٩٩.

٦٩. المصدر نفسه: ١١٢.

٧٠. حمزة بن الحسن الأصفهاني. مؤرخ أديب له عدة مصنفات، توفي سنة ٣٦٠هـ. ترجمته في: الفهرست: ٢٢٤، وأنساب السمعاني: ١/١٨٣، ومعجم الأدباء: ١٢٢٠، وانباه الرواة: ١/٣٣٥.

٧١. الدر الثمين: ٢٠٣، ٣٠٦.

٧٢. محمود بن محمد الخوارزمي المتوفى في عام ٥٦٨هـ فقيه شافعي مؤرخ له: تاريخ خوارزم. ترجمته في: طبقات الإسنوي: ٢/٣٥٢ والأعلام: ٧/١٨١.

٧٣. الدر الثمين: ٥٧.

٧٤. صدقة بن الحسين الحداد الفقيه المؤرخ المتوفى سنة ٥٧٣هـ. ترجمته في: المنتظم: ١٠/٢٧٦، ومعجم الأدباء: ١٤٤٧، تاريخ ابن الدبيثي: ٣/٤٠١، وسير أعلام النبلاء: ٢١/٦٦، والوافي بالوفيات: ١٦/٢٩٢.

٧٥. الدر الثمين: ٨٠، ١١٨.

٧٦. أبو بكر عبيد الله بن علي بن نصر التيمي الشهير بابن المارستانية أديب فقيه مؤرخ توفي سنة ٥٩٩ هـ. ترجمته في: تاريخ الذهبي: ١٢/١١٧٢، وسير أعلام النبلاء: ٢١/٣٩٧ ولسان الميزان: ٤/١٠٨.

٧٧. الدر الثمين: ١٥٦.

٧٨. شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخُسْرو المحدث العالم الحافظ المؤرخ توفي سنة ٥٠٩هـ. ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٢٩٤. وطبقات الشافعية للسبكي: ١١١/٧ والنجوم الزاهرة: ٢١١/٥.

٧٩. الدر الثمين أعلام النبلاء: ١٩/ ٢٩٤. وطبقات الشافعية للسبكي: ١١١/٧ والنجوم الزاهرة: ٢١١/٥.

٨٠. أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع عالم باللغة والأدب. توفي بالقاهرة سنة ٥١٥هـ. ترجمته في: إنباه الرواة: ٢٣٦/٢. ووفيات الأعيان: ٣٢٢/٣ وسير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٣٣.

٨١. الدر الثمين. ١٣٢.

٨٢. أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي الإمام الحافظ. محدث بغداد. توفي سنة ٥٦٥هـ. ترجمته في: المنتظم: ١٠/ ٢٣٠. وسير أعلام النبلاء: ٥٧٣/٢٠ والوافي بالوفيات: ٣٢١/٦؛

٨٣. الدر الثمين: ١٦٣.

٨٤. زينة الدهر في عصرة أهل العصر للوزاق الخطيري. المتوفى سنة ٥٦٨هـ. وهو ذيل على دمية القصر للباخرزي.

٨٥. الدر الثمين. ٣١٩.

٨٦. عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر أبو الحسين الفارسي النيسابوري له كتاب السياق ذيل به كتاب تاريخ نيسابور لابن البيع. توفي سنة ٥٢٩هـ. ترجمته في: تاريخ الذهبي: ٧٠٩/٩. وسير أعلام النبلاء: ١٩/١٨ وشذرات الذهب: ٢٧٧/٢.

٨٧. الدر الثمين: ١١٧. ٢٧٥. ٣١٣.

٨٨. من شيوخ ابن أنجب الساعي فقيه أصولي لغوي مؤرخ له طبقات الشافعية توفي سنة ٦٥٥هـ. ترجمته في: تاريخ الذهبي: ٧٢٣/١٤. وسير أعلام النبلاء: ٣١٩/٢٣. والوافي بالوفيات: ٩/ ٢٣٤. وطبقات الشافعية للسبكي: ١٣١/٨.

٨٩. الدر الثمين: ١١٢.

٩٠. أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سلم التميمي البغدادي الجعابي قاض من كبار حفاظ الحديث توفي سنة ٣٥٥هـ. ترجمته في: تاريخ بغداد: ٢٦/٣. وأنساب السمعاني: ٩١/٢. والمنتظم: ٣٦/٧. وسير أعلام النبلاء: ٨٨/١٦. والوافي بالوفيات: ٤/ ٢٤٠.

٩١. الدر الثمين: ٦٤.

٩٢. أبو بكر محمد بن عبد الملك التاريخي السراج من أهل بغداد كان أديبا فاضلا حسن الأخبار مليح الروايات. لقب بالتاريخي لأنه كان يعنى بالتواريخ وجمعها. ترجمته في: أنساب السمعاني: ٤٦٥/١.

٩٣. الدر الثمين: ٢١٦.

٩٤. المصدر نفسه: ٢٠٣.

٩٥. المصدر نفسه : ٥٧.

٩٦. أبو الحسن علي بن زيد بن أبي القاسم البيهقي. تفقه وتأدب واشتغل بعلوم الحكمة والحساب والفلك توفي سنة ٥٦٥هـ له عدة مؤلفات ترجمته في: معجم الأدباء: ١٧٥٩. وسير أعلام النبلاء: ٥٨٥/٢٠. والأعلام: ٤/ ٢٩٠.

٩٧. الدر الثمين: ٢٢٣. ٢٤٩.

٩٨. البداية والنهاية: ٢١٧/١٣.

٩٩. تاريخ الذهبي: ٢٧٩/١٥ والوافي بالوفيات: ١٥٩/٢٠.

١٠٠. التاريخ العربي والمؤرخون. شاكر مصطفى: ٢٠٦/٤.

١٠١. الدر الثمين: ٢٧٤.

١٠٢. المصدر نفسه: ٦.

١٠٣. المصدر نفسه: ١٧٣.

١٠٤. طبقات الشافعية للإسنوي: ٣٤٧/١.

١٠٥. طبقات المفسرين للداودي: ٣٩٤/١.

١٠٦. المصدر نفسه. ١٣٤.

١٠٧. ينظر طبقات الشافعية للإسنوي: ٣٤٧/١. وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٣٩٤.

١٠٨. التاريخ العربي والمؤرخون لشاكر مصطفى: ٢٠٦/٤. وقد ذكر بول سبات أنه عثر على نسخة منه في إحدى مكتبات حلب الخاصة. ملحق فهرست بول سبات:٣٨.

١٠٩. الدر الثمين: ١٩٠.

١١٠. المصدر نفسه: ٣٤-٣٥.

١١١. المصدر نفسه: ١٣٤.

١١٢. المنتخب المختار: ١٣٨.

١١٣. الدر الثمين: ٢٨٩.

١١٤. المصدر نفسه : ٢٣١.

١١٥. المصدر نفسه : ٣٨.

١١٦. كشف الظنون: ٢٩٦.

١١٧. هدية العارفين: ٧١٣/١.

١١٨. الدر الثمين: ١١٧.

١١٩. كشف الظنون: ١١٠٠.

١٢٠. الدر الثمين: ٦١.

١٢١. الجامع المختصر: ٦٤/٩.

١٢٢. تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٧٩/١٥.

١٢٣. كشف الظنون: ١٢٠٩.

١٢٤. الدر الثمين: ١.

١٢٥. تلخيص مجمع الآداب: ٩٥٩/٤.

١٢٦. طبقات الشافعية للإسنوي: ٣٤٧/١.

١٢٧. الإعلان بالتوبيخ: ١٠٤.

١٢٨. كشف الظنون: ١٠٤٨

١٢٩. الأعلام للزركلي: ٢٦٥/٤.

١٣٠. الدر الثمين: ٧٦.

١٣١. أخبار الزهاد خ: ٢٠.

١٣٢. المنتخب المختار: ١٣٨

١٣٣. الدر الثمين: ٢٦٥.

١٣٤. المصدر نفسه: ٨٠-٨١.

١٣٥. المصدر نفسه: ٥٤.

١٣٦. المصدر نفسه: ١٨٨.

١٣٧. المصدر نفسه: ٥٢.

١٣٨. المصدر نفسه : ٣٢٧.

فهرس المصادر والمراجع

- أخبار الزهاد، لعلي بن أنجب الساعي، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم : ٧٥ تاريخ
- الأصيلي في أنساب الطالبيين. لصفي الدين محمد بن علي المعروف بابن الطقطقى. جمعه ورتبه وحققه مهدي الرجائي.مكتبة آية الله العظمى المرعشي بقم. ط.١، ١٤١٨هـ.
- الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين بيروت ط. ١١. ماي ١٩٩٥.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي. عني بنشره القدسي. مطبعة الترقي. عام ١٣٤٩ هـ.
- أعيان الشيعة، لمحسن الأمين. حققه وأخرجه حسن الأمين دار التعارف للمطبوعات بيروت. طبعة سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لعلي بن يوسف القفطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية بيروت ط.١. ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- الأنساب، لأبي سعد عبد الكريم السمعاني. وضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت. ط.١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لإسماعيل باشا البغدادي. منشورات مكتبة المثنى بغداد.
- البداية والنهاية. للحافظ ابن كثير الدمشقي. مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثانية : ١٩٧٧م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان. مطبعة الهلال. ط.٣، ١٩٢٦م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. للإمام شمس الدين الذهبي. حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. ط.١. ٢٠٠٣م.
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام. لأحمد بن علي الخطيب البغدادي. طبع للمرة الأولى بنفقة مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد. ومطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م.
- تاريخ الخلفاء العباسيين، لعلي بن أنجب الساعي قدم له وأعد فهارسه عبد الرحيم يوسف الجمل. مكتبة الآداب بالقاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- التاريخ العربي والمؤرخون. دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام. لشاكر مصطفى. دار العلم للملايين. بيروت. ط.٣. يوليوز ١٩٨٣م.
- تاريخ علماء بغداد. المسمى منتخب المختار. لمحمد بن رافع السلامي. صححه وعلق حواشيه عباس العزاوي. مطبعة الأهالي. بغداد. ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- تاريخ علماء المستنصرية. لناجي معروف. مطبعة العاني. بغداد. ط.١. ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.
- تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب. لعبد الحي الكتاني. ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش. ط.٢. ٢٠٠٥.
- تذكرة الحفاظ. لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د.ط.ت.
- التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالات العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية. لمحمد عبد الحي الكتاني. المطبعة الأهلية بالرباط. ط.١. ١٣٤٦هـ.
- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب. لابن الفوطي. حققه مصطفى جواد. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم. د.ط.ت.
- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير الجزء التاسع. لعلي بن أنجب الساعي. عني بنسخه ونشره وإصلاح تصحيفه مصطفى جواد. المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد. ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية. لمحمد بن محمد ابن نصر الله القرشي. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. حيدر أباد الدكن. ط.١. د.ت.
- الدر الثمين في أسماء المصنفين. لعلي بن أنجب الساعي. ضبطه وعلق عليه أحمد شوقي بنبين ومحمد سعيد حنشي. منشورات الخزانة الحسنية. ط.١. ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. لشهاب الدين أحمد ابن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني. ضبطه وصححه عبد الوارث محمد علي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط.١. ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- الدليل الشافي على المنهل الصافي. ليوسف بن تغري بردي. تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت. مطبوعات مركز دار البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. مكة المكرمة. صف هذا الكتاب بمكتبة الخانجي بالقاهرة. د. ط.ت.
- ذيل تاريخ مدينة السلام. لمحمد بن سعيد بن الدبيثي. حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. ط.١. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- ذيل مرآة الزمان. لموسى بن محمد اليونيني مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن. الهند ط.١. ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م.
- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة. لمحمد بن جعفر الكتاني. كتب مقدماتها ووضع فهارسها محمد المنتصر الكتاني. ط.٣. ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات. لمحمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني. ط.٢ على الحجر. ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.
- سير أعلام النبلاء. للإمام الذهبي. باعتناء مجموعة من الأساتذة. مؤسسة الرسالة. ط.١. ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لابن العماد الحنبلي. مكتبة القدسي. طبعة سنة ١٣٥٠هـ.
- طبقات أعلام الشيعة. لآغا بزرك الطهراني. طبعة النجف. ١٣٧٣هـ - ١٣٧٤هـ.
- طبقات الحفاظ. لجلال الدين السيوطي. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة وهبة. القاهرة. ط.٢. ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- طبقات الشافعية. لعبد الرحيم الإسنوي. تحقيق كمال يوسف الحوت. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- طبقات الشافعية الكبرى. لعبد الوهاب السبكي. تحقيق محمود محمد الطناحي. عبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه. ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- طبقات علماء الحديث. لابن عبد الهادي. تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق. مؤسسة الرسالة . بيروت. ١٩٩٦م.
- طبقات الفقهاء الشافعية. لابن قاضي شهبة. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة . د.ط.ت.
- طبقات المفسرين. لمحمد بن علي الداودي. تحقيق

علي محمد عمر. مكتبة وهبة. مصر. ط.١. ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- غاية النهاية في طبقات القراء. لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري. طبع بمصر. ١٣٥١هـ.
- الفهرست. لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم. ضبطه وعلق عليه د. يوسف علي طويل. وضع فهارسه أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط.٢. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- فوات الوفيات والذيل عليها. لمحمد بن شاكر الكتبي. تحقيق إحسان عباس. دار صادر. بيروت. د.ط.ت.
- كتاب الحوادث. المنسوب لابن الفوطي. حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف. عماد عبد السلام رؤوف دار الغرب الإسلامي. ط.١. ١٩٩٧م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة. مكتبة المثنى. بغداد. ١٩٥١م.
- لسان الميزان. للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت. لبنان. ط.٢. ١٩٧١م - ١٣٩٠هـ.
- مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس. لعلي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني حققه وعلق عليه مصطفى جواد. وضع فهارسه وأشرف على طبعه سالم الألوسي وزارة الإعلام. مطبعة الحكومة. بغداد. ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.
- مشيخة سراج الدين عمر بن علي القزويني. حققه وقدم له وعلق عليه د. عامر حسن صبري. دار البشائر الإسلامية. ط.١. ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب). لياقوت الحموي الرومي). تحقيق إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى: ١٩٩٣م.
- معجم المؤلفين. تراجم مصنفي الكتب العربية. لعمر رضا كحالة. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان. د.ط.ت.
- ملحق فهرست بول سبات (PAUL SBATH). مطبعة الشرق. القاهرة. ١٩٤٠م.
- المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب. لبول سبات (PAUL SBATH). منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٤٦م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي.ط.١. مطبعة دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد الدكن. ١٣٥٧ هـ.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. ليوسف بن تغري بردي الأتابكي. حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين. مطبعة دار الكتب المصرية. ١٩٩٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ليوسف بن تغري بردي. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة. ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م.
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء. لعلي ابن أنجب الساعي. حققه وعلق عليه مصطفى جواد. دار المعارف. بمصر. د.ط.ت.
- هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين). لإسماعيل باشا البغدادي. منشورات مكتبة المثنى. بغداد. ١٩٥١م.
- الوافي بالوفيات. لخليل بن أيبك الصفدي. نشر بإشراف مجموعة من الأساتذة. دار النشر. فرانز شتاينر ط.٢. ١٣٨١هـ. ١٩٦٢م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. حققه إحسان عباس. دار صادر. بيروت.د. ط.ت.
- الوفيات. لمحمد بن رافع السلامي. تحقيق عبد الجبار زكار. منشورات وزارة الثقافة السورية. ١٩٥٨.

المجلات والدوريات:

- صدى الدار. نشرة ثقافية شهرية تصدرها دار البحوث للدراسات الإسلامية بدبي. السنة الأولى. العدد السابع. صفر. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

حوادث الأجسام الغريبة Foreign bodies عند الأطباء العرب والمسلمين

د. محمود الحاج قاسم محمد

طبيب أطفال / الموصل - العراق

حوادث الأجسام الغريبة مألوفة لدى الأطفال منذ القديم وحتى الحاضر. وهي كثيرة ومتنوعة. تصيب الأطفال عادة، عندما يبلغ الطفل من العمر سنة أو سنتين. حيث يبدأ بترويض أصابعه وتمرينها، فيقبض على كل ما تقع عليه يده فيلقي به، وكثيرا ما يضعه أو يدفعه في أنفه أو أذنه وأحياناً في بلعومه أو الحنجرة وكثيراً ما يصدف أن يسقط هذا الجسم في القصبات الهوائية. والأجسام الغريبة متنوعة وتنوعها ناتج عن تنوع الأجسام التي تقع عليها يد الطفل من حبة فاصولياء أو حمص أو حبة رقي أو خرزة أو قطعة إسفنج أو حجر أو لعبة صغيرة أو جزء منها أو دبوس ... إلخ.

وقد نال هذا الموضوع الاهتمام من الأطباء العرب والمسلمين. ولم يقتصر اهتمامهم بما يتناوله الأطفال وانما تناولوا حوادث الأجسام الغريبة في الكبار والصغار. نذكر فيما يلي ما جاء عندهم حول هذا الموضوع ضمن الفقرات التالية :

أولا - الأجسام الغريبة في الأذن:

ما ننصح به اليوم في حالة دخول جسم غريب في الأذن هو التوجه إلى الأخصائي وإجراء الاستخراج بواسطة آلات دقيقة ومختلفة الأشكال حسب شكل الجسم ونوعه. ونادراً ما يكون الجسم مستعصياً مما يضطر الأخصائي إلى إجراء تداخل جراحي.

هذه الأفكار لم تكن غائبة عن الأطباء العرب والمسلمين، بل كانوا ممارسين لها ولكن بواسطة آلات متواضعة على سبيل المثال نذكر أقوال الزهراوي في ذلك حيث يقول في فصل ((ما يسقط في الأذن)): ((جميع ما يسقط في الأذن أحد أربعة أنواع إما حجر معدني أو شبه الحجر كالحديد والزجاج وإما حب نباتي كالحمص والنواة ونحو ذلك وإما شيء

سيال مثل الماء والخل ونحوه، وأما الحيوان، فمتى سقط في الأذن حصاة أو جنس الحصاة مما لا يربو في الأذن فاستقبل بالأذن الشمس فإن رأيت الحصاة فقطر فيها شيئاً من دهن بنفسج أو السيرج ثم حاول إخراجها بحركة الرأس أو التعطيس بالكندس وسد المنخرين عند مجيء العطاس بعد أن تضع حول الأذن طوقاً من خرق أو صوف وتمد الأذن إلى فوق. فكثيراً ما تخرج بهذا العلاج. فإن لم تخرج وإلا فحاول إخراجها بالجفت اللطيف، فإن خرجت بالجفت وإلا فحاول إخراجها بصنارة عمياء لطيفة قليلة الانثناء فإن لم تخرج بذلك وإلا فاصنع أنبوبة من نحاس وأدخل طرف الأنبوبة في ثقب الأذن نعمّا وسد ما حوالي الأنبوبة بالقير الملين بالدهن لئلا يكون للريح طريق غير الأنبوبة، ثم اجذبها بريحك جذباً قوياً وكثيراً ما تخرج بما وصفنا وإلا فخذ من علك الأنباط أو من العلك المدبر الذي يؤخذ به الطير شيئاً يسيراً فضعه في طرف المرود بعد أن تلف عليه قطنة محكمة ثم أدخله في ثقب الأذن برفق بعد أن تنشف الأذن من الرطوبة. فإن لم تخرج بجميع ما وصفنا فبادر إلى الشق قبل أن يحدث الورم الحار أو تشنج. وصفة الشق أن تفصد العليل في القيفال أولاً. وتخرج له من الدم على قدر قوته ثم تجلس العليل بين يديك وتقلب أذنه إلى فوق. وتشق شقاً صغيراً في أصل الأذن عند شحمته في الموضع المنخفض منها ويكون الشق هلالي الشكل حتى تصل إلى الحصاة ثم تنزعها بما أمكنك من الآلات ثم تخيط الشق من حينك بسرعة وتعالجه حتى يبرأ.

وأما إن كان الشيء الساقط في الأذن من أحد الحبوب التي تربو وتنتفخ فحاول إخراجه بما ذكرنا فإن لم يجبك إلى الخروج وإلا فخذ مبضعاً رقيقاً لطيفاً وحاول به قطع ذلك النوع من الحبوب الساقطة في الأذن وإنما تفعل ذلك إذا تيقنت أن تلك الحبة قد ترطبت ببخار الأذن حتى تصيرها قطعاً صغاراً كثيرة ثم تخرجها بالصنارة العمياء أو بجفت لطيف أو بالمص كما ذكرنا فإنه يسهل إخراجها))[1].

وهكذا نجد الزهراوي يحاول جاهداً إخراج الجسم الغريب بطرق وآلات مختلفة وفي حالة عجز الآلات عن إخراجها يلجأ إلى التداخل الجراحي.

وعن دخول الحيوانات في الأذن يقول الرازي ((وينفع من دخول الهوام في الأذن أن يحل الصبر في الماء ويملأ منه الأذن. أويقطر فيها عصارة الأفسنتين أو عصارة ورق الخوخ أو ماء النرجس...))[2].

وعن توالد الدود فيها، فيقول ابن سينا: ((قد يفطن لدخول الهامة في الآذن بشدة الوجع مع خدش وحركة بمقدار الحيوان وأما الدود فيحس معه بدغدغة. (المعالجات) مما يعم جميع ذلك تقطير القطران في الأذن فإنه يسكن في الحال حركة الحيوان فيها ويقتلها عن قريب وخصوصاً الصغير وكذلك تقطير عصارة قثاء الحمار وحدها أو مع السقمونيا))[3].

ثانيا - الأجسام الغريبة التي تدخل البلعوم:

يقول الزهراوي في فصل ((إخراج الشوك وما ينشب في الحلق)): كثيراً ما ينشب في الحلق عظم أو شوك سمك أو غير ذلك فينبغي أن تخرج منها ما كان ظاهراً يقع عليه البصر بعد أن تكبس اللسان بالآلة عند الشمس ليتبين لك ما في الحلق. وما لم يظهر لك وتوارى في الحلق فينبغي أن تقيئ العليل قبل أن ينهضم طعامه في معدته فربما خرج الشيء الناشب بالقيء أو يتبلع العليل قطعة لفت أو أصل خسة أو يتبلع لقمة من خبز يابس أو تأخذ قطعة من

الإسفنج البحري اللين فتربطها في خيط ثم يتبلعها فإذا وصلت إلى موضع الشوكة جذب الخيط بسرعة. تفعل ذلك مرات. فكثيراً ما تلتصق الشوكة أو العظم فيها وتخرج. فإن لم تخرج بما ذكرنا وإلاّ فاستعمل آلة من رصاص تكون أغلظ من المرود قليلاً وفي طرفها تعقيف يدخلها العليل في حلقه برفق وهو رافع رأسه إلى فوق ويتحفظ من مس حنجرته لئلا يحدث به سعال ويدفع به العظم أو الشوكة. أو يدخلها الطبيب بيده. وإدخال العليل لها أحسن لعلمه بموضع الشيء الناشب ويدفع إلى أسفل أو يجذب يده بالآلة إلى فوق كل ذلك على قدر ما يتهيأ له حتى يخرج))[٤].

ويقول ابن هبل في ذلك: ((ما كان قريباً يدركه الحس فيؤخذ بالآلة الناقشة للشوك فإن كان أبعد أمكن دفعه إلى أسفل بابتلاع اللقم الكبار وشرب الماء عليها فهو أوفق وإلاّ يدفع بقضيب خيزران أو بوتر يطوى فإن كان الواقف في الحلق لقمة عظيمة فاضرب على العنق مرات متوالية فالضرب مما يحطها. وأما العظام وغيرها مما له شظايا فلا يجوز أن يفعل فيه ذلك بل يؤخذ قطعة من لحم ويشد بخيط ويمضغ ويبلع قليلاً حتى يجاوز الموضع الذي فيه الناشب ثم يجذب الخيط فإنه يخرج أو يفعل كذلك بتينة علكة تشد وتمضغ يسيراً وتبلع والقذف بعد التملئ من الطعام يخرج الناشب في الحلق))[٥].

وعن إخراج العلق الناشب في الحلق يقول الزهراوي: ((إذا عالجت العلقة بما ذكرنا في التقسيم من العلاج بالأدوية ولم ينجع فانظر حينئذ في حلق العليل عند الشمس بعد أن تكبس لسانه بالآلة التي وصفت لك. فإن وقع بصرك على العلقة فاجذبها بصنارة صغيرة أو بجفت لطيف محكم فإن لم تتمكن بها وإلاّ فخذ أنبوبة مجوفة فأدخلها في حلق العليل إلى قرب العلقة ثم أدخل في جوف الأنبوبة حديدة محمية بالنار تفعل ذلك مرات ويصبر العليل عن الماء يومه كله. ثم يأخذ إجانة مملوء ماءً بارداً ويفتح فمه فيه ويتمضمض به ولا يبلع منه نقطة ويحرك الماء حيناً بعد حين بيده فإن العلقة تسقط على المقام إذا أحست بالماء. فإن لم تخرج بما وصفنا فتبخر الحلق بالبول وبالحلتيت بالآلة التي وصفت في بخور اللهاة تفعل ذلك مرات فإنها تسقط. ووجه العمل في البخور أن تأخذ قدراً فيها جمر حمي بالنار والقدر مغطية بغطاء في وسطه ثقبة فتركب في تلك الثقبة طرف الآلة ثم تلقي البخور ويضع العليل فمه في طرف الأنبوبة ويغلق فمه لئلا يخرج البخور حتى يعلم أن البخور قد وصل إلى حلقه فإن العلقة تسقط على المقام. فإن لم تسقط وإلاّ فيعاد البخور مرات ويصبر العليل للعطش ويأكل المالح والثوم ولا يشرب ماء فلابد أن تخرج بهذا التدبير))[٦].

ويقول ابن هبل: ((العلاج. أما القريبة التي يمكن أخذها فيجلس العليل بحذاء الشمس ويغمز لسانه بملعقة الميل ويدخل القالب الذي تنزع به البواسير ويقبض به على أصل عنقها بالتمكن لئلا ينقطع ثم يجذبها ويخرجها. أو تؤخذ بالكلبتين. وأما إذا كانت أبعد من ذلك فيجرع العليل الخل ويطعم الذباب الذي يوجد في الباقلاء أو يطعم الثوم ويغرغر بالخل والخردل مرات أو يتغرغر بماء البصل أو بالخل والحلتيت وللغرغرة بعصير ورق الغرب خاصية في إخراج العلق))[٧].

ثالثا - الشوك والسلي والزجاج :

يقول الرازي في دخول الشوك والسلي والزجاج: ((وأما الشوك والسلي والزجاج وغير ذلك مما ينشب في البدن. فإنه يحتاج أن يضمد بأشياء مرخية. فإن الموضع إذا استرخى اندفع ذلك الناشب إليه. وبعض

حوادث الأجسام الغريبة Foreign bodies عند الأطباء العرب والمسلمين

الناس يسمي هذه الأدوية الجاذبة. ومما يفعل ذلك الأشق إذا عجن بعسل وضمد به الموضع. أو بصل النرجس يدق مع عسل ويضمد به. أو أصول القصب تدق مع العسل. وتجمع كلها. فإن فعلها حينئذ يكون أقوى))[٨].

رابعا: إخراج السهام:

يقول الزهراوي في ذلك ((إن السهام إنما تخرج من الأعضاء التي نشبت فيها على نوعين إما بالجذب من الموضع الذي دخلت منه وإما من ضد الجهة الأخرى، والتي تخرج من حيث دخلت إما أن يكون السهم بارزاً في موضع لحمي فيجذب ويخرج فإن لم يجبك للخروج من وقته الذي وقع فيه فينبغي لك أن تتركه أياماً حتى يتعفن اللحم الذي حوله فيسهل جذبه وإخراجه. وكذلك إن نشب في عظم ولم يجبك للخروج فاتركه أيضاً أياماً وعاوده بالجذب والتحريك كل يوم فإنه يخرج، فإن لم يجبك للخروج بعد أيام فينبغي أن تثقب حول السهم في نفس العظم من كل جهة بمثقب لطيف حتى توسع للسهم ثم تجذبه وتخرجه، فإن كان السهم الناشب في عظم الرأس وقد أمعن في أحد بطون الدماغ وظهرت من العليل بعض تلك الأعراض التي ذكرت لك فأمسك عن جذب السهم واتركه حتى يستبرئ أمره بعد أيام فإنه إن كان السهم قد وصل إلى الصفاق فإن المنية لا تمطله. وإن كان السهم إنما هو ناشب في جرم العظم فقط ولم يتعد إلى الصفاق وبقي العليل أياماً ولم يحدث له من تلك الأعراض شيء فاحتل في جذب السهم وإخراجه. فإن كان ناشباً جداً ولم يجبك للجذب فاستعمل المثاقب حول السهم كما وصفت لك ثم عالج الموضع حتى يبرأ، وأما إن كان السهم قد توارى في موضع من الجسم وغاب عن الحس ففتشه بالمسبار فإن أحسست به فاجذبه ببعض الآلات التي تصلح لجذبه فإن لم تستطع عليه لضيق الجرح ولبعد السهم في الغور ولم يكن في الغور ولم يكن هناك عظم ولا عصب ولا عرق فشق عليه حتى توسع الجرح وتتمكن بالسهم حتى تخرجه. فإن كان له أذنان تمسك بهما فخلص اللحم الناشب فيهما من كل جهة بكل حيلة يمكنك ذلك واحتل إن لم تقدر على تخليص اللحم في كسر الأذنين وفتلهما حتى تتخلص.

وإذا حاولت إخراج السهم في أي موضع كان فاستعمل فتل يدك بالكلاليب إلى الجهات كلها حتى تخلصه وارفق غاية الرفق لئلا ينكسر فاتركه أياماً حتى تعفن تلك اللحوم التي حواليه ثم تعاوده فإنه يسهل حينئذ فإن اعترضك نزف دم فاستعمل ما ذكرنا من العلاج في بابه، وتحفظ جهدك من قطع عرق أو عصب أو وتر واستعمل الحيلة بكل وجه يمكنك تخليص السهم وليكن ذلك برفق وتأن وتثبت كما وصفت لك. وينبغي لك أن تستعمل عند جذبك السهم فهو أوفق فإن لم يمكنك ذلك فاستعمل ما يمكنك من الأشكال.

وأما السهم الذي يخرج من ضد الجهة الأخرى إما أن يكون قد برز منه شيء إلى خارج وإما أن تجد طرف السهم بالحس من أعلى الجلد قريباً وتراه فشق عليه وليكن الشق على قدر ما تسع فيه الكلاليب ثم اجذبه فإنه يسهل للخروج. فإن امتسك في عظم فافتل يدك على استدارة حتى يؤثر السهم في العظم ويوسع لنفسه ثم اجذبه وإلا فاتركه أياماً ثم عاوده حتى يخرج، فإن كان قد سقط العود وأردت استعمال الدفع فأدخل إليه الآلة المجوفة لتدخل تجويفها في ذنب السهم ثم تدفعه بها، فإن كان السهم مجوفاً فادفعه بآلة تدخل في ذلك التجويف فإن السهم يسهل بذلك خروجه.

فإن كان السهم مسموماً فينبغي أن تقور اللحم الذي قد صار فيه السم كله إن أمكنك ذلك ثم عالجه بما يصلح لذلك.

فإن كان السهم الواقع في الصدر أو في البطن أو في المثانة أو في الجنب وكان قريباً مما يجسه بالمسبار وأمكنك الشق عليه فشق وتحفظ من قطع عرق أو عصب وأخرجه ثم خط الجرح إن احتاج إلى الخياطة ثم عالجه حتى يبرأ .

تكون أطرافها شبه خرطوم الطائر قد صنعت كأنها المبرد إذا قبضت على السهم أو شيء لم تتركه. وقد تصنع منها أنواع كبار وصغار ومتوسطة كل ذلك على قدر عظم السهم وصغره وسعة الجرح وضيقه))[١٠٠].

ويذكر الزهراوي حالات نادرة كثيرة لمصابين بالسهام وكيف تعامل مع تلك الحالات وعالجها لايتسع المجال لذكرها جميعاً نذكر منها بعض الحالات على سبيل المثال حيث يقول ((وأنا أخبرك ببعض ما شاهدته من أمر هذه السهام لتستدل بذلك على علاجك. وذلك أن سهماً كان قد واقع لرجل في مأق عينه في أصل الأنف أخرجته له من الجهة الأخرى تحت شحمة الأذن وبرئ ولم يحدث في عينه مكروه. وأخرجت سهماً آخر ليهودي كان قد واقعه في شحمة عينه تحت الجفن الأسفل وكان السهم قد توارى ولم ألحق منه إلا طرفه الصغير الذي يلصق في الخشبة وكان سهماً كبيراً من سهام القسي المركبة مربع الحديد أملس لم يكن فيه أذنان فبرئ اليهودي ولم يحدث في عينه حادث سوء. وأخرجت سهماً آخر من حلق نصراني وكان السهم عربياً وهو الذي له أذنان فشققت عليه بين الوداجين وكان قد غار في حلقه فلطفت به حتى أخرجته فسلم النصراني وبرئ. وأخرجت سهماً لرجل كان قد واقعه في بطنه وقدّرنا أنه سيموت منه فلما بقي مدة ثلاثين يوماً أو نحوها ولم يتغير عليه شيء من أحواله شققت على السهم وتحيلت عليه وأخرجته وبرئ ولم يعرض له حادث سوء))[١٠١]

المصادر

١ - الزهراوي. أبو القاسم خلف بن العباس: التصريف لمن عجز عن التأليف - ص ١٩١ - ١٩٥ .

ALBUCASIS On Surgery and Instruments
A D EFINITIVE EDITION OF THE ARABIC TEXT
WITH ENGLISH TRANSLATION AND COMMENTARY
BY: M.S.SPINK AND G.L.LEWIS
LONDN . THE WELLCOME INSTITUTE OF THE HISTORY OF MEDICINE - 1973

٢ - الرازي. أبو بكر محمد بن زكريا: من لا يحضره الطبيب. تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. الطبعة الأولى ١٩٩١. ص ٧٤.

٣ - ابن سينا. أبو علي الحسين بن علي: القانون في الطب - طبعة بالأوفست مكتبة المثنى. بغداد. ص ١٥٩ .

٤ - الزهراوي: التصريف. ص ١١٣ - ١١٥.

٥ - البغدادي. مهذب الدين ابن هبل: المختارات في الطب - الطبعة الأولى ١٣٦٣ هـ. الجزء ٢. ص ١٩١.

٦ - الزهراوي: التصريف - المصدر السابق. ص ٢١٧ - ٢١٩ .

٧ - البغدادي: المختارات - المصدر السابق. ص ١٩١.

٨ - الرازي. أبو بكر محمد زكريا: المنصوري في الطب - شرح وتحقيق الدكتور حازم البكري. منشورات معهد المخطوطات العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الطبعة الأولى ١٩٨٧. الكويت. ص ٣٣٤.

٩ - الزهراوي: التصريف - المصدر السابق. ص ٦١٦-٦١٧.

١٠ - المصدر نفسه ص ٦١٣ .

شعر أبي جعفر الرّعيني الغرناطي
(ت ٧٧٩ هـ)

مع طائفة من نصوصه النثرية

جمعاً وتحقيقاً ودراسة

د. فراس عبد الرحمن أحمد النجار
جامعة الأنبار - العراق

اسمه. نسبه. كنيته. لقبه:

تتفقُ المظانُ على اسمه ونسبه وكنيته ولقبه. فهو شهاب الدين أحمد بن يوسف بن مالك بن إسماعيل بن أحمد أما كنيته. ولقبه فهو أبو جعفر الرّعيني الغرناطي الأندلسي الألبيري الحلبي المالكي البيري[١].

والرعيني نسبة إلى (رعين) قبيلة في اليمن. تنسب إلى (ذي رعين) من ملوك اليمن[٢].

والغرناطي نسبة إلى (غرناطة) مدينة الشاعر وهي من مدن الأندلس.

والألبيري نسبة إلى (البيرة) بقطع الهمزة. وهي منطقة كبيرة من بلاد الأندلس تضم قسطيلية وغرناطة وغيرها من المدن.

وبينها وبين غرناطة ستة أميال. وقد نزل عبد الرحمن الداخل بساحلها حين عبوره إلى الأندلس[٣]. والحلبي لأنه أقام بها مع صاحبه ابن جابر نحواً من ثلاثين سنة وكان لهما فيها مسجد في درب بني سوادة. ويعرف قبل فتنة تيمور بمسجد النحاة نسبة لهما[٤].

أما البيري فنسبة إلى (البيرة) وهي قرية من قرى حلب على شاطئ الفرات[٥].

مولده. وسيرته. ووفاته:

أغلب المظان التي رجعنا إليها في ترجمة الرعيني لم تذكر سنة ولادته سوى الصفدي الذي قال نقلا عن الرعيني (وسألته عن مولده فقال: سنة ثمان أو تسعٍ وسبعمائة)[٦] في مدينة غرناطة[٧]

أما سيرته: فأهم شيء نلمحه عند دراستنا ارتباطه الوثيق برفيق له يعرف بابن جابر الهواري الذي التقى به في موطن نشأته غرناطة. وتعاهدا على الصحبة والملازمة فلم يفترقا إلا في خاص أمورهما حتى عرفا بالأعمى والبصير لأن ابن جابر كان كفيفا. كما عرفا أيضا بالأعميين[٨].

---

(١) الوافي بالوفيات: ٨/٣٠٥. والذيل على العبر:٢/٢٧٢. وغاية النهاية: ١/١٥١والسلوك: ق٣/١/٣٢٥. والدرر الكامنة: ١/٢٤٠/٢٤١. والنجوم الزاهرة:١١/١٨٩. وبغية الوعاة: ١/٤٠٢. ومفتاح السعادة: ١/١٨١. ونفح الطيب:٢/٦٧٥. ٧/٣٧١. وكشف الظنون: ١/ ٢٣٤. ٢٦٢. ٦٨٨. وشذرات الذهب: ٨/٤٩٩. وإيضاح المكنون: ١/١١١. وهدية العارفين: ١/ ١١٤ والأعلام: ١/٢٧٤. ومعجم المؤلفين. ٢/٢١٣ ومما يشار إليه أن للرعيني أخبارا ذكرها المترجمون مع رفيقه ابن جابر الهواري.

(٢) ينظر الأنساب: ٣/٧٦. واللباب في تهذيب الأنساب: ٦/١٢٩

(٣) معجم البلدان: ١/ ٢٤٤. والروض المعطار:٢٨

(٤) الدرر الكامنة:١/ ٢٤٠ وينظر من أعلام النحاة في القرن الثامن الهجري أبو جعفر الرعيني الغرناطي المتوفى سنة (٧٧٩ هـ) حياته وآثاره وهو بحث منشور في مجلة الحكمة. ع ١٨. لسنة ٢٠٠٦ لعبد الله بن عمر الحاج إبراهيم: ٢٢٤

(٥) مراصد الإطلاع:١/ ٢٤٠

(٦) الوافي بالوفيات: ٨/٣٠٥

(٧) التحفة اللطيفة: ٣/٤٨٣

(٨) ينظر الأعلام: ١/ ٢٧٤

وقد أشارت جميع المظان التي ترجمت لهما على عمق هذه الصحبة، وأثرها على حياتهما.

فمن ذلك ما ذكره ابن فرحون قوله عنهما (وأخوة هذين الشيخين واتفاقيهما في الأخلاق والأقوال والأفعال لم أرَ مثلها ولم أسمع بذلك. لا يملك أحدهما دون أخيه شيئاً. ولا يختص عنه بشيء من أمور الدنيا. قلّ أو جلّ. ولا يلبس أحدهما غير ملبس الآخر. لكل واحد منهما مثل ما لصاحبه. إنّ فصلا ثيابا. فمن نوع واحد. ومن لون واحد. وكذا في العمائم والفوط. ويأكلان جميعا ويرقدان جميعا في بيت واحد. وأعرضا معا عن الزواج والتسري رغبة في دوام الصحبة. وخوفا من أسباب الفرقة. وكان صاحب الترجمة - يعني ابن جابر - ضريرا بسبب جدري أصابه في صغره. بعد دخوله المكتب في أواخر السنة الخامسة من عمره. فكان يعتمد على رفيقه في خروجهما إلى المسجد ورجوعهما. ومن أعجب الأشياء أنهما يمرضان جميعا ويصحان جميعا. كما شاهدته منهما في المحاورة الثانية، مرض أبو جعفر في يوم، وأبو عبد الله في اليوم الثاني. وتمادى بينهما المرض مدة طويلة[1]. فهما إذن قلبان في روح واحدة، يمرضان بمرضها. ويشفيان بشفائها.

أما رحلاته مع صاحبه من أجل اكتساب العلم والمعرفة فتنقل لنا المظان إنها ابتدأت ببلاد المغرب فالقاهرة إذ سمعا من أبي حيان الأندلسي وغيره. ثمّ دمشق التي سكناها عمرا طويلا كما أشرنا مما فسح لهما التنقل بها والاختلاط بعلمائها ومن ثَمّ التدريس في مساجدها[2]. كما تذكر المظان أنه حج مع صاحبه مرات عدة وأقام في المدينة المنورة شهورا فالتقى هناك بشيوخها وقُرئت عليه بعض كتب العربية والحديث[3]. وبعدها عاد إلى حلب ليعيش فيها إلى أن وافته المنية وذلك في منتصف شهر رمضان من سنة تسع وسبعين وسبعمائة للهجرة[4]. ليطوى بذلك علم من أعلام اللغة والأدب. وصورة من صور الصحبة التي قل نظيرها وقد رثاه رفيقه ابن جابر بقصيدة بلغت (٧٨) بيتا ومطلعها[5]:

لقد عَزَّ مفقودٌ وجلَّ مصابُ ... فللخد من خَمْرِ الدموع خضابُ

والذي لم يعش بعده طويلا إذ تبعه إلى دار الخلود عام ٧٨٠هـ[6].

بعض آراء العلماء فيه:

لقد سار أبو جعفر الرعيني في ركب العلماء الأجلاء. فتخلق بأخلاقهم وواكب سمو دماثتهم. فاستحق أنْ يكون بين العلماء إماما فاضلا. وبين أهل النظم والنثر شاعراً وأديباً. له القدرة على تفصيل المجمل ونقد الشعر. والنظم في البديع.

---

(١) التحفة اللطيفية: ٢/ ٤٨٣، وقد ذكره الباحث عبد الله بنصه في بحثه ٢٢٣.

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات: ٨/ ٣٠٥، ونظم العقدين: ٧. والدرر الكامنة: ١/ ٣٤٠

(٣) طراز الحلة: ٢٠٧

(٤) نظم العقدين: ٧، وقد ذكره الباحث عبد الله في بحثه: ٢٢٤

(٥) المصدران السابقان.

(٦) نظم العقدين:٧

وقد مدحه العلماء بأقلامهم التي لا تجانب سبيل الحقّ والصواب فقال عنه ابن الجزري: (إمام نحوي شيخنا)[1].

وقال المقريزي: (كان عالما بالنحو والتصريف والبديع والعروض. يجيد قراءة الحديث. ويشارك فيه مشاركة جيدة. وله يد طولى في الأدب واتقان لعلم اللغة)[2].

وقال عنه ابن حجر: (وكان أبو جعفر مقتدرا على النظم والنثر، عارفا بالنحو وفنون اللسان. دينا، حسن الخلق. حلو المحاضرة. كثير التواليف في العربية وغيرها)[3].. وقال أيضا نقلا عن ابن الخطيب في تاريخ غرناطة: أبو جعفر، دمث متخلق متواضع. أوحد في العربية حسن المعاملة[4].

وقال ابن تغري بردي: (الشيخ الإمام العلامة. كان إليه المنتهى في علم النحو والبديع والتصريف والعروض. وله مشاركة في علوم كثيرة)[5]. وغير هؤلاء من العلماء كثير إلا أنّي وجدت فيما ذكرت كفاية للتدليل على مكانة هذا العالم الجليل بين علماء عصره ومن رفد من علمه بعده[6].

شيوخه:

نَوّهْنا في سطور سابقة على أنّ حياته قد دُرست من قبل أحد الباحثين الأجلاء دراسة وافية بما لا تدع زيادة لمستزيد إلاّ أنّي إكمالا لدراسة مفاصل حياته العلمية والأدبية سأقف على أهم العلماء الذين درس على أيديهم أبو جعفر الرعيني من أهمهم:

١ - أبو الحسن القيجاطي (ت ٧٣٠ هـ)[7].

علي بن عمر بن إبراهيم الكناني القيجاطي، نسبة إلى قيجاطة، من أعمال جيان دعي إلى غرناطة سنة اثنتي عشرة وسبعمائة فقعد بالجامع الأعظم يلقي ما ألفه هو، وما أخذ عن شيوخه من فقه وأدب، وكانت وفاته سنة ٧٣٠ هـ.

وقد ذكر الصفدي وابن الجزري أنه كان من شيوخ الرعيني[8].

---

(١) غاية النهاية: ١/١٥١

(٢) درر العقود الفريدة: ٢/٢٧٤

(٣) الدرر الكامنة: ١/٢٤٠، وينظر، بغية الوعاة: ١/٤٠٢، ومفتاح السعادة: ١٨١٨١

(٤) الدرر الكامنة: ١/٣٤٠ - ٣٤١

(٥) النجوم الزاهرة: ١١/١٨٩

(٦) للاستزادة ينظر: بحث من أعلام النحاة في القرن الثامن الهجري: ٢٢٥ - ٢٢٧

(٧) ترجمته في: الإحاطة ٤/١٠٤، وبغية الوعاة: ٢/١٨٠

(٨) بحث من أعلام النحاة في القرن الثامن الهجري. ٢٢٨

٢ - ابن هانيء الأندلسي (ت ٧٣٣ هـ)[١].

هو محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي، أصله من أشبيلية، كان عالما بالنحو والقراءات له شرح على التسهيل، وإنشاد الضوال في لحن العامة، توفي سنة ٧٣٣ هـ.

وقد ذكره أبو جعفر الرعيني في طراز الحلة [٢].

٣ - المطري (ت٧٤١ هـ)[٣].

هو محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي الأنصاري السعدي وكنيته أبو عبد الله جمال المطري، نسبة إلى المطرية بمصر.

كان إماما عالما مشاركا في العلوم، وكان مؤذنا في المسجد النبوي، توفي سنة ٧٤١ هـ. وقد ذكره أبو جعفر في طراز الحلة[٤]، وهو من شيوخه في المدينة النبوية[٥]

٤ - أثير الدين أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ)[٦]

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، أثير الدين أبو حيان الأندلسي النفزي ولد في غرناطة، وسافر ليستقرَّ بالقاهرة، كان نحوي عصره وأحد أئمة التفسير، ومن أشهر كتبه (البحر المحيط في التفسير)، و(ارتشاف الضرب في النحو)، وغيرها توفي سنة (٧٤٥ هـ)، وقد ذكره أغلب من ترجم للرعيني، وهو من شيوخه في القاهرة[٧].

تلاميذه:

عند حديثنا عن سيرة أبي جعفر الرعيني العلمية أشرنا إلى أسفاره الكثيرة، والبقاع التي سكنها مع رفيقه ابن جابر الهواري، تلك التي كانت مواطن اللقاء بالعلماء الذين مكّنوه من الجمع بين العلم والأدب، ومن ثمّ التأليف وإقامة حلقات الدرس في المساجد والجوامع، وما مسجد النحاة الذي نسب لهما إلا دليل على ذلك.

---

(١) غاية النهاية: ١/١٥١.

(٢) طراز الحلة: ٢٩١ وكذا في (بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٢٩).

(٣) الدرر الكامنة: ٣/٤٠٢

(٤) طراز الحلة: ٣٠٩.

(٥) بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٣٠

(٦) ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٥/٢٦٧، والدرر الكامنة: ٥/٧٠

(٧) بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٣٢.

فمن الذين تتلمذوا على يديه وأجازهم:

١ - أبو الربيع المصري (ت ٧٧٨ هـ)[١].

هو سليمان بن داود بن يعقوب بن أبي سعيد. كان بارعا في صناعة الإنشاء والترسل. وقد قرأ على الرعيني شرحه لألفية ابن معط فأجازه بروايتها[٢].

٢ - ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ)[٣]

محمد بن محمد بن محمد أبو الخير المعروف بابن الجزري، عالم، مؤرخ، ومن شيوخ الإقراء. ذكر الرعيني في أثناء ترجمته له فقال: شيخنا[٤]، توفي سنة ٨٣٣ هـ[٥].

٣ - محمد بن عشائر (ت ٨٥٠ هـ)[٦].

هو محمد بن عبد الله بن أحمد- المعروف بابن عشائر الحلبي الشافعي أخذ النحو عن أبي جعفر الرعيني، وكانت وفاته سنة ٨٥١ هـ[٧]

فكانت هذه وقفة عجلى مع بعض شيوخ أبي جعفر الرعيني الذين استقى منهم علمه، وتلامذته الذين نهلوا مما آتاه الله من فتح في علم النحو، والفقه، وغيرهما[٨]

ومما يشار إليه أن الرعيني أجاز لكل من أدرك حياته بقوله[٩]

أذنت أن يرووا جميع ما به ... حدثني كل إمام سالك

يقول ذا متبعا لشرطه ... أحمد بن يوسف بن مالك

آثاره:

ألف الرعيني في أبواب مختلفة من أبواب اللغة، والبلاغة، والنحو فمنها ما طبع، ومنها مالم يزل مخطوطا ينتظر من يخرج حروفه إلى النور، وقد ذكرتها أغلب المظانّ التي ترجمت له، وهي:

---

(١) الدرر الكامنة، ٢/٢٠٦:

(٢) بحث من أعلام النحاة - لعبد الله بن عمر: ٢٣٥ - ٢٣٦

(٣) ترجمته في: غاية النهاية: ٣/٢٠٧، والضوء اللامع: ٩/٢٥٥

(٤) غاية النهاية: ١/١٥١

(٥) بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٢٨

(٦) ترجمته في الضوء اللامع: ١/٨١

(٧) بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر:٢٢٩

(٨) أود أن أشير إني آثرت اختيار طائفة من شيوخ الرعيني وتلامذته بشكل انتقائي مراعياً جانب الشهرة، تجنبا للتكرار الذي يقع به كثير من الباحثين ولاسيما أن حياته قد درست بشكل منفرد كما اشرنا سابقا، وبشكل تكميلي عند قيام الدكتورة رجاء السيد الجوهري بتحقيق كتابه (طراز الحلة وشفاء الغلة).

(٩) طراز الحلة: ٦٣٨، وبغية الوعاة: ١/٣٥

١ - اقتطاف الأزاهر والتقاط الجواهر. وهو في علم الصرف[١].

٢ - تحفة الأقران فيما قُرِيء بالتثليث من القرآن. وهو في علم القراءات[٢].

٣ - رد الشوارد إلى حكم القواعد. وهو من كتبه المفقودة[٣].

٤ - رسالة في السيرة والمولد[٤].

٥ - رفع الحجاب عن تنبيه الكتاب. وهو شرح على قصيدة رفيقه ابن جابر الهواري في الظاءات[٥].

٦ - شرح الدرة الألفية[٦] وهو من أضخم كتب أبي جعفر النحوية. وقد شرح فيه ألفية ابن معط[٧].

٧ - طراز الحلة وشفاء الغلة[٨]. وهو في البلاغة[٩].

٨ - وقد ذكر بعض من ترجم للرّعيني أنه ألف كتابا مع رفيقه ابن جابر ذكرا فيه من اجتمعا معه من رحلاتهم[١٠] ومما يشار إليه ونحن بصدد الحديث عن مصنفاته إن الباحث عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم أشار إلى أن للرعيني شعرا جيدا في المظان التي ترجمت له[١١]. وهذا ماندبني إلى جمع شعره وتحقيقه ودراسته على ما سيأتي في الصفحات القادمة إن شاء الله.

وقد فاته أن يشير إلى أن للرّعيني آراء نقدية وقطعا أدبية رأيت أنّ من الأهمية بمكان أن أجمع ما وقع لدي منها وأنشرها مع شعره حتى يكون للباحثين تصورا يكاد يكون تاما لواقع أسلوب أبي جعفر الرعيني الشعري. والنثري، ومن الله التوفيق.

---

(١) معجم المؤلفين: ٢/٢١٣. وقد حقق الكتاب كرسالة ماجستير في جامعة أم القرى عام(١٤٠١ هـ - ١٩٨٢ م).

(٢) معجم المؤلفين: ٢/٢١٣. وقد حقق الكتاب من قبل الدكتور علي حسين البواب بدار المنارة بجدة عام(١٤٠٧هـ-١٩٨٨ م).

(٣) بحث من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٤٠

(٤) ذكرها الزركلي في كتابه الأعلام. ١/٢٧٤ وقال: أنها مخطوط بدار الكتب المصرية.

(٥) ذكر الباحث عبد الله بن عمر انه كتاب محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس برقم (٤٤٥٢) ومنه نسخه مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ينظر:الهامش رقم ١ من بحث عبد الله بن عمر: ٢٤١.

(٦) المصدر السابق: ٢٤٢ - وما بعدها.

(٧) الدرر الكامنة: ١/٢٤٠ حاشية(٥) هامش (١).

(٨) ذكرها الزر كلي في الأعلام. ١/٢٧٤. وقد طبع بتحقيق الدكتورة رجاء السيد

(٩) من أعلام النحاة لعبد الله بن عمر: ٢٤١

(١٠) المصدر السابق: ٢٤٢

(١١) المصدر السابق: ٢٤٢

الأغراض الشعرية:

على الرغم من شيوع ظاهرة المقطعات في شعر أبي جعفر الرعيني إلا أننا نستطيع استقراء الموضوعات التي احتواها شعره وهي:

أولا: ذكر الديار:

يمثل ذكر الديار ملمحاً فنيا ارتبط بذات الشاعر عبر مراحل القصيدة العربية المختلفة: إلا أنّه اتخذ أشكالا متعددة: ومتباينة تعكس واقع التطور العقلي. واختلاف النظرة من جيل إلى آخر. ولهذا نجدُ الشعراء بشكل عام. وشعراء القرن السابع الهجري بشكل خاص يحاولون أن يجعلوا لذكر الديار مكانا مميزا في أشعارهم كلما سنحتْ لهم الفرصة. وكأنهم بصدد محاكاة الخطوات التي التزمها الشعراء في قصائدهم قديما.

وأبو جعفر الرعيني واحد من أولئك الشعراء الذين جعلوا للديار في شعرهم أكثر من صورة كدليل على أهمية هذا الموضوع في أنفسهم فيما يأتي:

أ- الديار ذات الانتماء الديني:

ونعني بها المعالم التي ارتبط اسمها بديننا الحنيف. وهي مكة قبلة المسلمين. والمدينة عاصمتهم الأولى. اللتان دأب الشعراء على تعميد أشعارهم بذكرها. واصفين ما يتعلق بهما من كرامة. ومكانة. وبركة.

ويبدو أنّ مدينة الرسول الأعظم (ﷺ) قد حظيت بما لم تحظ به غيرها من البلاد ذكراً. وذلك لكونها ملاذ الدعوة الأمن. وترابها باركه الله (عز وجل) باعتناق جسد الرسول (عليه الصلاة و السلام). وقد ذكرها الرعيني في قوله[1]:

طيبة ما أطيبها منزلا ... سقى ثراها المطر الصيِّبْ
طابتْ بمن حلَّ بأرجائها ... فالترب منها عنبرٌ طيِّبْ

مع أننا لانعدم ذكر مكة في شعر الرّعيني ولا سيما عندما نراه يتحدث عن وادي العقيق. ومناسك الحج إذ يقول[2]:

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة ... نلت المنى بزيارة الأخيار
حيِّ العقيق إذا وصلت وصف لنا ... وادي منى بأطايب الأخبار

---

(١) شعر أبي جعفر الرعيني رقم (١٧).

وإذا وقفت لدى المعزف داعيا زال العنا وظفرْتَ بالأوطارِ

ب- الديار ذات الانتماء الخاص:

ونعني بها تلك التي ترتبط في نفس الشاعر ارتباطا وثيقا فلا يكتفي بذكرها وإنّما يرسلُ أبياتهُ للتغزل بها، فهي ديار الأحبة والأصدقاء، ومواطن الهوى واللقاء، فكيف إذا اجتمع مع ذلك الجمال الأخّاذ، والطبيعة الخلاّبة التي تمتعت بها مدن الأندلس عامة، وغرناطة- مدينة الشاعر- خاصة فهو يقول متشوّقاً إلى حمراء غرناطة[1]:

ذابت على الحمراء حمر مدامعي والقلب فيما بين ذلك ذائبْ

طال المدى بي عنهم ولربّما قد عاد من بعد الإطالة غائبْ

وفي موضع آخر يقول[2]:

ما هَبَّ من نحو السبيكة بارق إلا غدا شوقي لقلبي شابكا

والله ما اخترت الفراق لربعها لكن قضاء الله أوجب ذلكا

ففي هذين البيتين يُصوّر الشاعر تغلّب الشوق عليه بعد إن اختلط بقلبه، ويتجاوز ذلك إلى الاعتذار عن الفراق الذي لم يختره يوما بمحض إرادته بل إن (قضاء الله أوجب ذلك) على حدّ تعبيره.

ثانيا: الغزل:

من خلال استقرائنا لشعر الرعيني وجدنا أنَّ لغرض الغزل أثراً عميقا في نفس الشاعر. والدليل على ما ذهبنا إليه هو أنّه يشكلُ أكثر من نصف مجموعه الشعري هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ هذا الفنّ قد تمكن في ذات الشاعر حتى لا نكاد نستطيع أن نفصله عن بقية الموضوعات الأخرى الواردة في شعره ولا سيما ذكر الديار كما أشرنا إلى ذلك آنفا، وشعر الغربة، وغيرها من الموضوعات، فمن مقطوعاته الغزلية التي لم تستغنِ مفرداتها عن الطبيعة قوله[3]:

تريك قدّاً على ردف تجاذبه كخوطة في كثيب الرمل قد نبتتْ

ريا القرنفل في ريح الصبا سحراً يضوع منها إذا تحوي قد التفتتْ

ومعلوم أنّ الطبيعة تشكل معينا مهما للشاعر الأندلسي في كل ما يمكن أن يطرقه الشاعر من موضوعات لما لها من ظواهر بارزة في واقع مجتمعهم، لكن يبقى لنا أن نتساءل، هل هناك لمحات جديدة في غرض الغزل يمكن أن نلمسها في شعر أبي جعفر الرعيني، أم أنّه سار على خطا الأقدمين ولم يجد لنفسه سبيلا يميزه عن غيره؟!

---

(١) شعر أبي جعفر الرعيني رقم (٣).

(٢) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة (٣٠).

(٣) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة (٥).

وللإجابة نقول: إنَّ الرعيني قد استطاع أن يحقّق تآلفا بين موضوعات بعيدة لا يمكن أن نتصوّر التقاءها في الغزل بالذات، كأبواب النحو، وأشكال الحروف، والبحور الشعرية، بل وحتى القضايا الشرعية فمثال دخول أبواب النحو في الغزل قوله [1]:

حسنك ما بين الورى شائع ... قد عرّف الآن بلام العذار
فجاء منه مبتدأ للهوى ... خبر الآس مع الجلنار

ومثال استعانته بأشكال الحروف قوله [2]:

لقوامه الألف التي ... جاءت بحسن ما ألف
عانقته فكأنني ... لام معانقة الألف

والبحور الشعرية قوله [3]:

دائرة الحب قد تناهت ... فما لها في الهوى مزيدْ
فجر شوقي بها طويل ... وبحر دمعي بها مديدْ
وإنّ وجدي بها بسيط ... فليفعل الحسن ما يريدْ

ويبدو أنَّ الرعيني قد سُبق إلى هذا الأسلوب بدليل قول المقري مُعلقا على هذه الأبيات: (وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا..) [4]:

أما استخدامه للقضايا الشرعية فهو قوله [5]:

حضر العيد يا غزال وقد غبـ ... ـت وذاك المغيبُ منك حرامْ
كيف صومتنا عن الوصل في العيـ ... ـد وما حلّ يوم عيد صيامْ

ثالثا: المديح النبوي:

تعتبر شخصية الرسول (عليه الصلاة والسلام) أنموذجاً مُهمّاً من نماذج الاكتمال البشري؛ ولهذا نجدُ الشعراء قد أولوها عناية كبيرة فنقلوا لنا عبر أبياتهم صوراً متعددة لحياته (ﷺ) مذ كان صغيراً وإلى أن صار في ذمّة الباريء (عز وجل) فنشأ لدينا فَنٌّ شعري يمكنُ أن نقولَ أنّه نشط في فترة البعثة. وأخذت

---

(١) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة (١٩). وينظر المقطوعة رقم (٢٢).

(٢) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة (٢٦).

(٣) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (١٣).

(٤) نفح الطيب: ٢/٦٧٩

(٥) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (٤٢).

تكتمل عناصره في القرنين الرابع والخامس الهجريين على يد أبي حنيفة النعمان في قصيدته التي يقول فيها[1]:

أنت الذي لولاك ما خلق امرؤ	كلا ولا خلق الورى لولاكا
أنت الذي من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاكا

ويقصد بالعناصر: الحقيقة المحمدية، وذكر المعجزات النبوية، والاختتام بالتوسل والرجاء[2]. ومما يشار إليه أنّ هذه الأماديح لم تكن قوالب جاهزة يتعاهد عليها الشعراء عبر القرون المتعددة وإنما كما يقول الدكتور عبد الحكيم حسان: (إن هذه المدائح كان لها تطورٌ بعيد المدى في القرون التالية في ظل التصوف الإسلامي، فإن الرسول (عليه الصلاة والسلام) مدح بعد وفاته كما مُدح في حياته. وكانت المدائح تتضمن في كل عصر آراء قائليها في رسول الله، ومن هنا اتّخذت المدائح النبوية أشكالا مختلفة على مَرّ العصور[3]).

فإذن هو صرح ساهم جمع من الشعراء على مر العصور في بنائه بصرفِ النّظر عن مدى التزامهم بعناصره.

فالرعيني بسبب شيوع المقطعات في شعره نراه يكتفي بأحد هذه العناصر في معانيه القليلة، وأبياته القصيرة كقوله[4]

هذه روضة الرسول فدعني	أبذل الدمع في الصعيد السعيدِ
لا تلمني على إسْكاب دموعي	إنما صنتها لهذا الصعيد

فإذا صحّ رأينا نقول: إنّ الشاعر في موقف التوسل والرجاء إذ صوّر لنا حالهُ وقد اسْتسلمت محاجره للبكاء، وتعاظمت في قلبه الذنوب، وتنفست بفرحة اللقا الصعداء ونراه في موضع آخر يشير إلى الحقيقة المحمدية دون العناصر الأخرى في قوله[5]

يا أولا في المرسلين وآخرا	الله خصّك بالكمال ليرضيك
من قبل آدم قد جعلت نبيّهُ	قدما فقدمك الإله ليعليك
أوصى إليك لكي تكون حبيبه	ويتمّ نعمته عليك ويهديك

---

(١) الدار المكنون: الورقة رقم (١).

(٢) ينطر المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ٢٤ - ٢٥

(٣) التصوف في الشعر العربي، نشأته، وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري: ١٣٦

(٤) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (١١).

(٥) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (٢٣).

فكان ديدنه إفراد العناصر وعدم ذكرها مجتمعه؛ لأن اكتمالها لا يتحقق إلا بسعةِ المعاني، وامتداد الأبيات.

رابعا: موضوعات أخرى:

قبل أن ندلفَ في تبيين هذه الموضوعات نقولُ: ليس غريبا على شاعرٍ لا يكادُ يخرجُ نظمه عن النتف، أو المقطّعاتِ، أن تتعددَ موضوعاتُه، وتتنوعَ أفكارُه، وكأنّهُ يحاولُ أن يجعلَ لكلِّ ما يتعلق بحياتِهِ بصْمَتَهُ الأدبيةَ الخاصةِ، وهذه الغايةُ تحتاجُ من أجلِ تحقيقِها إلى تقييدِ اللفظِ، وكبحِ اتساعِ المعاني في الأعمِّ الأغلب، ولاسيما إذا علمنا أن هذهِ الموضوعاتِ لا يمكن إيرادها ضمنَ الأغراضِ الشعرية المعروفة، وإنّما هي تنساقُ ضمنَ الشعرِ الدّيني تارةً، والغربةِ والحنينِ وما إلى ذلك تارةً أخرى؛ ولأنّها تمثّلُ جُزءاً مُهمّا من شعرِ الرّعيني سأحاولُ التعليق على أهمها فيما يأتي:

يقول الشاعر[1]:

لا يقنطنك ذنبٌ قد كان منك عظيمْ

الله قد قال قول وهو الجوادُ الكريمْ

((نبيءْ عبادي أني أنا الغفور الرحيمْ))[2]

فأشار الشاعرُ في هذه الأبيات إلى رحمة الله (عز وجل) التي تتجاوزُ حدودها يأس المذنب، وخوف العاصي. وقد أحسن الشاعر حينما عقد رأيه بالدليل الذي لا يقبل الردّ. فاختتم مقطوعته بآيةٍ من سورة الحجر.

وفي موضع آخر يقول متذكّراً أيامه، متشوّقا إلى رؤيةِ أهله[3]:

ربّ ليلٍ قطعته بالجزيره فتذكرتُ أهلنا بالجزيره

قصر الإنس ما تطاول منه وكذا أزمن السرور يسيره

ففي هذين البيتين نلاحظ أنّ تعاظم الهموم في قلب الشاعر قد انعكس على ألفاظه وتعبيره.

ففي البيت الأول تشير دلالة قوله: (رب ليل قطعته بالجزيره) إلى طول الليل، وبعد النهار ذلك الذي يؤجج نيران الذكرى وألم الاشتياق.

وفي البيت الثاني ذكر الشاعر دور الإنس في تقصير الليالي إلاّ أنّه استدرك ذلك بجمع القلة الذي عبّرَ

---

(١) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (٤١).

(٢) هذا ليس بيتا من الشعر وإنما هي الآية (٥٠) من سورة الحجر جاءت مستقيمة عروضيا مع هذا البحر الشعري.

(٣) شعر أبي جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (٥٠).

به عن أزمن السرور اليسيرة. فجاءتْ معانيه متوافقة. متطابقة مع حالة الذكرى والاشتياق. وما يرافق ذلك من هَمِّ البعد والخوف من عدمِ اللقاء.

فكانت هذه أهمَ الأغراض والموضوعات التي طرقها الشاعر في مقطوعاته ونتفه[1]

والحمد لله ربّ العالمين.

بعض الملاحظات عن شعر أبي جعفر الرعيني:

بعد أن فصّلنا الحديث في جوانب متعددة من حياة الشاعر. وأهم الأغراض والموضوعات في شعره. أجد في نفسي أن أوضح بعض الملامح الفنية التي دونتها من خلال استقرائي لشعر أبي جعفر وكالآتي:

١ - يلاحظ أن الشاعر التزم باللمحة الشعرية العابرة. المختصرة إنْ صحّتْ التسمية: إذ حرص الشاعر في نظمه على ألّا تتعدّى مقطوعاته عن أربعة أبيات إلّا في موضع واحد في قصيدته التي كتبها مُستجيراً بالصفدي. ومطلعها[2]:

الناس في الفضل أكفاء وأشباه والكل يزعمُ ما لم تحوِ كفاه

٢ - يلاحظ أن التأثير الديني بدا بارزا لدى الشاعر بسبب استعانته في إتمام وتوكيد أفكاره بآي من القرآن الكريم كقوله[3]:

إذا ظلم العبدُ فاصبر له فبالقرب يقطعُ منه الوتين

فقد قال ربك وهو القوي ((وأملي لهم إن كيدي متين))

فبعد أن توعد الشاعر الظالم بالخاتمةِ التي ستمحقه ذكر آيةً من سورة الأعراف تحقيقا لغايته التي أشرنا لها.

وقد نراه في موضع آخر يكتفي بالإشارة إلى الآية دون إيراد نصّها كقوله[4]:

صيرتني في هواك اليوم مشتهراً لا قيس ليلى، ولا غيلان في الأول

زعمت أن غرامي فيك مكتسب لا والذي خلق الإنسان من عجلِ

---

(١) ورد في شعر أبي جعفر موضوعات تجاوزت ذكرها في المتن تجنبا للإطالة. ورأيت أن أشير لها في هذه السطور القليلة علّنا نكون بذلك قد وفقنا في الإلمام بكل ما احتوى شعره من موضوعات هي:

أبيات في معاتبة بعض الأصدقاء كما في المقطوعة رقم (٣٦). و(٣٨).

وأبيات في الاعتذار عمن لم يسلم. كما في المقطوعة رقم (٤٠).

وأبيات في مدح ألفية ابن معط. وتوجيه الطلبة إلى حفظها كما في المقطوعة رقم (٥٤).

(٢) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (٤٨).

(٣) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (٤٧).

(٤) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (٣٤).

إذ في عجز البيت الثاني من هذه المقطوعة إشارة إلى قوله تعالى:

﴿خلق الإنسان من عجل﴾[1]

فيكون الشاعر في هذا الأسلوب قد نوع صيغه من جهة. وابتعد عن السير في خطىً متواترة في التأليف من جهة أخرى. لما في هذه الطريقة من ردود من قبل علماء الأدب والنقد.

٣ - إن شيوع ظاهرة المقطعات في شعر أبي جعفر لم يمنعه من خلق الصور التي تشترك في صنعها الاستعارة تارة. والتشبيه تارة أخرى. كقوله[2]:

محاسن ربع قد محاهنّ ما جرى ... من الدمع لما قيل قد رحل الركبْ

تناقض حالي مذ شجاني فراقهم ... فمن أضلعي نارٌ ومن أدمعي سكبْ

إذ أعطى الشاعر في معانيه لربع الحبيبة ملامحا قد غزاها الدمع فمحاها. وكم كانت ترفل بالجمال كما نستشعر نحن أيام وصلها.

وفي موضع آخر نرى الشاعر يستخدم المحسنات البديعية في رسم صوره كقوله[3]:

لقد كر العذار بوجنتيه ... كما كر الظلام على النهار

فغابت شمس وجنته وجاءت ... على مهل عشيات العذار

فالتضاد الحاصل بين الظلام الذي هو دليل الليل وصفته. والنهار الذي يُنبئ عن الضياء أعطى للمعنى دقّة لا تكون إذا وردت الألفاظ منفردة[4].

وفي موضع آخر نجدُ الشاعرَ قد تنبه إلى دور الجناس التام والتناقص في صنع الموسيقى الداخلية في البيت الشعري كقوله[5]:

سألتك بالله يا من غدا ... يصرّف بالقلب أفعاله

تدارك محبا بدرياق وصل ... فإن بعادك أفعى له

وكقوله[6]:

هذه روضة الرسول فدعني ... أبذل الدمع في الصعيد السعيد

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الانبياء.

(٢) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (٤).

(٣) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (١٦).

(٤) ينظر: نحو منهج جديد في البلاغة والنقد: ١٢٧.

(٥) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (٣٧).

(٦) شعر أبي جعفر الرعيني. المقطوعة رقم (١١).

إذ جانس الشاعر في هذين الشاهدين بين (أفعاله) و (أفعى له) جناساً تامّاً مفروقا[1]، وجانس بين (الصعيد) و(السعيد) جناساً ناقصا مضارعاً[2]..

وهذا الاستخدام من الأهمية بمكان لما له من دورٍ يكادُ يكون أساسيا في صنع النبرات الصوتية داخل البيت الشعري، ذات الصفة المتباينة مابين القوة والضعف، والطول والقصر، وما إلى ذلك من صفات[3]. ولذا نرى أنّ الشعراء يهتمون بكل ما يحقق الحركة الصوتية داخل نصوصهم، فنراهم يلجؤون إلى التكرار الحرفي مثلا إذا لم يسعفهم الاختيار اللفظي، شريطة ألّا يكونَ هذا التكرار ممجوجا، فمثال التكرار الحرفي لدى الرعيني قوله[4]:

النـاس فـي الـفـضـل أكـفـاء وأشـبـاه والـكـل يـزعـمُ مـا لـم تـحـو كـفـاهُ

فتكرار الشاعر للمدّ في هذا البيت والأبيات التي تلته أعطى للمعنى سعة وعمقا في نفس المتلقي لا تتحقق بدونه، وقد بين أنّ للانسجام الحرفي مع المعنى علاقة وثيقة بالتأثير والخيال[5]، وأي إخلال يؤدي إلى التقليل من سلطة النصّ على القارئ.

١ - نوّعَ الشاعر في قوافيه فاستخدم (الباء، والتاء، والحاء، والدال، والراء، والسين، والميم، والنون، والهاء، والألف)، وكل ذلك بنسب غير مطردة.

أما الأوزان الشعرية فمن خلال وقوفنا على عدد من مقطعاته وجدنا أنّه لم يخرج عن دائرة الخليل في نظمه ولم يجعل لأغراضه أوزانا معينة وإنما ترك للفظه - كما يبدو- حرية الاختيار.

٢ - من الملاحظ أنّ المعجمَ اللّفظي يركن إلى الاعتدال في الاختيار، فلم يكنْ غارقا في السهولة المبتذلة، أو الصعوبة المتناهية فكلاهما مرفوضان من قبل النقاد.

٣ - قبل أن نختم ما بدأنا به نقول: قد أشرنا في صفحات سابقة إلى كون الشاعر قد اختار لنفسه منهجا يختلفُ في طريقته عن السمة العامة التي عرفناها عن شعراء الأندلس، فلم يكن للطبيعة بروزاً في شعره هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن التزامه بتأليف المقطعات منعه من الكتابة في الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة كرثاء المدن، أو المديح وغيرها من الأغراض، مع قدرته على إطالة نفسه الشعري بدليل قصيدته التي كتبها مستجيراً بالصفدي[6].

---

(١) الجناس المفروق، هو أحد أنواع الجناس التام، وإنما سمي مفروقا لأن اللفظتين قد اتفقتا في كل شيء ماعدا الخط.

ينظر: الإيضاح: للمطرزي: ١/٩٠، وإيضاح القزويني: ٢/٣٨٤.

(٢) الجناس المضارع، وهو أحد أنواع الجناس الناقص، وإنما سمي مضارعا لتقارب الحرفين المختلفين من حيث الصفة.

الإيضاح للقزويني: ٢/١٨٦ - ١٨٧.

(٣) ينظر: نحو منهج جديد في البلاغة والنقد: ١٩١.

(٤) ينظر: جعفر الرعيني، المقطوعة رقم (٨٤).

(٥) ينظر : نحو منهج جديد في البلاغة والنقد : ٢٠١ - ٢٠٢

(٦) شعر أبي جعفر الرعيني، القصيدة رقم (٤٨)

(قافية الباء)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (١) (من الكامل)

١ - ملك يجيء بخمسة من خمسة كُفي الحسود بها فمات لما به

٢ - من وجهه ووقار وجواده وحسامه بيديه يوم ضرابه

٣ قمر على رضوى تسيرُ به الصَبا والبرقُ يلمع من خلال سحابه

التخريج:

* أنوار الربيع: ١/٢٥١ - ٢٥٢

وقال (رحمه الله)*: (٢) (من السريع)

١ - طيبة ما أطيبها منزلاً سقى ثراها المطر الصَيِّبُ

٢ - طابتْ بمنْ حلَّ بأرجائها فالترب منها عنبر طيِّبُ

٣ يا طيب عيشي عند ذكري لها والعيش في ذاك الحمى أطيبُ

التخريج:

* طراز الحلة:

نفح الطيب: ٢ / ٦٧٦ - ٦٧٧

وقال (رحمه الله) بتشوّق إلى حمراء غرناطةَ*: (٣) (من الكامل)

١ - ذابت على الحمراء حمر مدامعي والقلب فيما بين ذلك ذائبْ

٢ - طال المدى بي عنهم ولربّما قد عاد من بعد الإطالة غائبْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧/ ٣٧٤

---

(١)

٣ - رضوى: جبل بالمدينة (معجم البلدان: ٣/ ٥١).

(٢)

١ - الصيب: يقال مطر صَوْبٌ وصيِّب كالصيوب وهو شاذ. أي كثير الانسكاب. (الصحاح: مادة (صوب))

(٣)

حمراء غرناطة: الحمراء مدينة بين طبخه وفاس وتعرف أيضا باسم البصرة وبصرة الكتان لأن أهلها عرفوا بتجارة الكتان.

والحمراء نسبة إلى لون ترابها الأحمر (الروض المعطار:١٠٨) .

وغرناطة: أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها. (البلدان: ٤/ ١٩٥).

حمر مدامعي: يقال: موت احمر. واحمرّ البأس. أي اشتدّ (الأساس. ٩٤).

وقال (رحمه الله)*:　　(٤)　　(من الطويل)

١ - محاسن ربع قد محاهنّ ما جرى　　من الدمع لمّا قيل قد رحل الركبُ

٢ - تناقض حالي مُذ شجاني فراقهم　　فمن أضلعي نار ومن أدمعي سكبُ

التخريج:

* نفح الطيب: ١/ ٩٠

(قافية التاء)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*:　　(٥)　　(من البسيط)

١ تُريك قدّاً على ردف تجاذبه　　كخوطة في كثيب الرّمل قد نبتتْ

٢ - ريّا القرنفل في ريح الصبا سحراً　　يضوع منها إذا نحوي قد التفتت

التخريج:

* نفح الطيب: ٢/ ٦٨٤

(قافية الحاء)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*:　　(٦)　　(من الكامل)

١ - ما للنوى مدت وأنت خليلنا　　ولقبل قد قَصُرتُ برغم الكاشحِ

٢ - أتبعت في ذا مذهبا لا يُرتضى　　أبداً وليس الرأي فيه بصالحِ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧/ ٢٧٦

---

(٥)

١ - الخوطة، مفرد الخوط، وهو الغصن الناعم لسنة، يقول: خوط بان. (الصحاح: مادة(خوط)).

٢ - القرنفل: ذكر الزبيدي روايات اللفظة المختلفة، وقال: هي شجرة ضخمة تنبت في بلاد الكفار أكثر منها ببلاد المسلمين. (التاج: مادة(القرنفل)).

وهذا البيت معتمد على قول أمرئ القيس:

إذا التفتت نحوي تضوع ريحها　　نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

(ديوان أمرئ القيس)

(٦)

١ - الكاشح: العدو الذي يضمر عداوته، ويطوي عليها باطنه. (اللسان: مادة (كشح)).

وقال (رحمه الله)*: (٧) (من السريع)

١ - أبدت لي الصدغ على خدها ... فاطلع الليل لنا صبحه

٢ - فخدها مع قدها قائل: ... هذا شقيق عارض رمحه

التخريج:

* نفح الطيب: ٦٧٥/٢

معاهد التنصيص:

وقال (رحمه الله)*: (٨) (من الخفيف)

١ - قد نعمنا بجزع نعمان لكن ... عقنا البعد، والعقوق قبيخ

٢ - قل لأهل الخيام أما فؤادي ... فجريح لكن وذي صحيخ

التخريج:

* نفح الطيب: ٣٤٨/٧

(قافية الدّال)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله) (عند رحيله من غرناطة، وأعلام نجد تلوح، وحمائمه تشدو على الأيك وتنوح)*: (٩) (من الطويل)

١ - ولمّا وقفنا للوداع وقد بدت ... قباب بنجد قد علتْ ذلك الوادي

٢ - نظرت فألفيت السبيكة فضة ... لحسن بياض الزهر في ذلك النادي

٣ - فلمّا كستها الشمس عاد لجينها ... لها ذهبا فأعجبْ لإكسيرها البادي

التخريج:

* نفح الطيب: ٦٧٧/٢ - ٦٧٨

---

(٧)

١ - الصدغ: مابين اللحاظ إلى أصل الإذن (الأساس: ٣٥١).

(٨)

١ - جزع الشيء: منطقعه (الأساس: ٥٨).

نعمان: وادي عرفه دونها إلى منى، وهو كثير الأراك (الروض المعطار: ٥٧٧- ٥٧٨).

عقنا البعد: أي ردنا ومنعنا (الصحاح: مادة (عقق))

(٩)

٢ - السبيكة: موضع خارج غرناطة كما قال المقري ولم تذكره معاجم البلدان التي رجعت إليها. (نفح الطيب: ٦٧٨/٢)

٣ - اللجين: الفضة (الصحاح، مادة (لجن)).

وقال (رحمه الله)*: (١٠) (من الخفيف)

١ - نسختي اليوم في المحبة أصل فعليها اعتماد كل عميد

٢ - نقلوا مرسل المدامع منها وصحيح الهوى بغير مزيد

٣ - قد رواها قبلي جميل وقيس حين هاما بكل لحظ وجيد

التخريج:

* نفح الطيب: ٣٧٥/٧

أنوار الربيع: ٢٥٨/٢

وقال (رحمه الله)*: (١١) (من الخفيف)

١ - هذه روضة الرسول فدعني أبذل الدمع في الصعيد السعيد

٢ - لاتلمني على إسكاب دموعي إنما صنتها لهذا الصعيد

التخريج:

* نفح الطيب: ٤٧/١، ٥٧

وقال (رحمه الله): يمدح سيد الخلق، وخاتم المرسلين (صلى الله عليه وعليهم أجمعين) *

(١٢) (من الرمل)

١ - رحمة أرسله الله لنا وشفيعا قد غدا فينا غدا

٢ - وهب المال لمن مال له وفدى من ذنبه من وفدا

٣ - ليس يحصي فضله إلا الذي هو أحصى كل شيء عددا

التخريج:

* نفح الطيب: ٣٤٨/٧

---

(١٠)

١ - نسختي: كتابي . (الأساس: ٤٥٤)

عميد القوم: قوامهم الذي يقصد إليه بالحوائج (الأساس: ٢١٣)

٢ - يشير إلى: جميل بثينه، وهو جميل بن معمر العذري، شاعر أموي.

ترجمته في الأغاني: ٩٠/٨، والخزانة: ١٩٠/١.

وقيس لبنى: شاعر الغزل الأموي المعروف ت ٦٨ هـ.

ترجمته في الأغاني: ١٨٠/٩، وفوات الوفيات: ٢٠٤/٣.

(١١)

١ - الصعيد: الأرض بعينها (التاج، مادة (صعد)).

(١٢)

٣ - في عجز البيت إشارة إلى الآية ٢٨: (...وأحصى كل شيء عددا) بعض الآية ٢٨ من سورة الجن.

وقال (رحمه الله)*: (١٣) (من مخلع البسيط)

١ - دائرة الحبِّ قد تناهتْ فما لها في الهوى مزيدْ

٢ - فجر شوقي بها طويل وبحر دمعي بها مديدْ

٣ - وإنْ وجدي بها بسيط فليفعل الحسن ما يريدْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٢/٦٧٩

* أنوار الربيع: ٢/٢٩١

وقال (رحمه الله)*: (١٤) (من الخفيف)

١ - هذه عشرة تقضَّتْ وعندي من أليم البعاد شوق شديدْ

٢ - وإذا ما رأيت إطفاء شوقي بالتلاقي فذاك رأي سديدْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٢/٦٧٨

وقال (رحمه الله)*: (١٥) (من المنسرح)

١ - لا تجدوا في الهوى على كلف نظيرد في الغرام لن تجدوا

٢ - لهفان ما يشتكي إلى أحد ظمآن غير الدموع لا يردْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧/٣٧٢

(قافية الراء)

وقال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (١٦) (من الوافر)

١ - لقد كرَّ العذار بوجنتيه كما كرَّ الظلام على النهار

٢ - فغابت شمس وجنته وجاءت على مهل عشيات العذار

---

(١٣)

هذه المقطوعة تضمنت في طياتها ألفاظاً تدخل في دائرة علم العروض وهي: (دائرة. طويل. بحر. مديد. بسيط).

(١٥)

١ - كلف. ولع. (الصحاح: مادة(كلف))

(١٦)

١ - كر: رجع (الصحاح: مادة (كرر))

٣ - فقلت لناظري لمّا رآها ... وقد خلط السّواد بالاحمرار

٤ - ((تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار))

التخريج:

* نفح الطيب: ٦٨٩/٢

معاهد التنصيص:

وقال (رحمه الله) في التشريع*: (١٧) (من الكامل)

١ - يا راحلا يبغي زيارة طيبة ... نلت المنى بزيارة الأخيار

٢ - حي العقيق إذا وصلت وصفْ لنا ... وادي منى بأطايب الأخبار

٣ - وإذا وقفت لدى المعَرف داعيا ... زال العنا وظفرت بالأوطار

التخريج:

نفح الطيب: ٤٤/١، ٧ /٣٧٥

أنوار الربيع: ٣٥١/٤. و معاهد التنصيص:

وقال (رحمه الله)*: (١٨) (من البسيط)

١ - ناولته وردة فاحمرّ من خجل ... وقال: وجهيَ يغنيني عن الزهر

٢ - الخد ورد، وعيني نرجس، وعلى ... خدّي عذار كريحان على نهر

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٧٤ - ٣٧٥

معاهد التنصيص:

وقال (رحمه الله)*: (١٩) (من السريع)

١ - حسنك مابين الورد شائع ... قد عرَف الآن بلام العذار

٢ - فجاء منه مبتدأ للهوى ... خبره الآس مع الجلنار

---

٤ - نسب البيت للحمه القشيري شاعر أموي، ولمجنون ليلى شاعر أموي، وهو في ديوان الحماسة لأبي تمام: ٣٧٣، والإيضاح: ٣٩١/٢ دون أن ينسباه. شميم: مصدر أراد به المشموم (اللسان: مادة (شمم)).

العرار: بالفتح بهار البر، وهو نبت طيب الريح، الواحدة عرارة (الصحاح: مادة (عرر)).

٢ - العقيق: على ميلين من المدينة، وقيل: على عشرة أميال (الروض المعطار: ٤١٦ - ٤١٧).

منى: جبل بمكة شهير، ويتربه بنيت قرية على ضفتي الوادي (السابق: ٥٥١).

٣ - المعَرف: يشير إلى (عرفه) وهو موضع في الحج (السابق: ٤٠٩).

(١٩)

٢ - الآس: شجر ورقه العطر، الواحدة بالهاء، والأس شيء من العسل. (العين: ٧/ ٣٢١).

الجلنار: أصله الجوهري، وهي لفظة فارسية معناها زهر الرمان. (التاج: مادة (جلنر))

وقال (رحمه الله) في العروض على مذهب الخليل*: (٢٠) (من الكامل)

١ خل الأنام ولا تخالط منهمُ أحداً ولو أصفى إليك ضمائره

٢ - إن الموفق من يكون كأنه متقارب فهو الوحيد بدائره

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٧٨

(قافية السين)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٢١) (من الكامل)

١ - ومورّد الوجنات دب عذارد فكأنه خطٌ على قرطاس

٢ - لما رأيت عذاره مستعجلا قد رامَ يخفي الورد منه بأس

٣ - ناديته قف كي أودّع ورده ما في وقوفك ساعة من باس

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٧٦

(قافية الضاد)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٢٢) (من الطويل)

١ - ولمّا رأى الحساد منكَ التفاتة إلى جانب اللهو الذي كان مرفوضا

٢ - أضافوا إلى علياك كلَّ نقيصة حقيق لدينا بالإضافة مخفوضا

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٧

---

(٢٠)

الخليل. هو الخليل بن أحمد الفراهيدي. لغوي، نحوي، بصري. وضع علم العروض وله ينسب أول معجم عربي وهو معجم العين. توفي سنة (١٧٠ هـ).

ترجمته في: وفيات الأعيان. ١٧٢/١. والأعلام: ٢١٤/٢.

(٢١)

٣ - عجز هذا البيت صدر لمستهل قصيدة لأبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم التي يقول فيها:

ما في وقوفك ساعة من باس نقضي ذمام الأربع الأدراس

شرح الصولي لديوان أبي تمام: ٥٦٩/١

(قافية العين)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٢٣) (من المتقارب)

١ - يجوز الوداع لنا موقف أذاب الفؤاد لأجل الوداعِ

٢ - فما أنا أنسى غداة النوى وحادي الركائب للبين داعي

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٤

وقال (رحمه الله)*: (٢٤) (من الكامل)

١ - لمّا عدا في الناس عقرب صدغها كفّت أذاهُ من الورى بالبرقعِ

٢ - والصبح تحت خمارها مُتَستر عنّا متى شاءت تقول له: اطلعِ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧١ - ٢٧٢

(قافية الفاء)

قال أبو جعفر الرعيني(رحمه الله)*: (٢٥) (من الكامل)

١ - يفترُّ عن برد يثير ببرده حَرَّ الغرام ولا سبيلَ لرشفه

٢ - أخذ الرشا من حسنه طرفا لذا نسب الورى مُلَحَ الجمال لطرفه

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٤٧

وقال (رحمه الله)*: (٢٦) (من مجزوء الكامل)

١ - لقوامه الألف التي جاءت بحسنٍ ما ألف

٢ - عانقته فكأنني لام معانقة الألف

التخريج:

* نفح الطيب: ٦٨٧ – ٦٨٨

---

(٢٣)

١ - قال المقري: (وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة. عادة من سافر أن يودّع هناك). نفح الطيب: ٧ / ٢٧٤

(٢٥)

١ - يفتر: يبتسم (الأساس: ٣٣٨).

لرشفه: الرشف. مصّ الماء بالشفة.

(قافية القاف)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٢٧) (من الكامل)

١ - قالوا: عشقتَ وقد أضرَّ بك الهوى   فأجبتهم يا ليتني لم أعشق

٢ - قالوا: سبقت إلى محبة حسنه   فأجبتهم ما فاز من لم يسبق

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٨٩

ومن بديع نظمه (رحمه الله)*: (٢٨) (من الوافر)

١ - على وادي العقيق سكبت دمعي   بلا عين فيبدو كالعقيق

٢ - فكم غصن وريق منه يحكي   قوام رشا شهيّ فمٍ وريق

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٣

(قافية الكاف)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله) مجيزاً كل من أدرك حياته أن يرووا عنه مروياته*:

(٢٩) (من الكامل)

١ - أذنت أن يرووا جميع ما به   حدثني كل إمام سالك

٢ - يقول ذا متبعا لشرطه   أحمد بن يوسف بن مالك

التخريج:

* طراز الحلة: ٦٢٨

بغية الوعاة: ١ / ٢٥

وقال (رحمه الله)*: (٣٠) (من الكامل)

١ - ماهبَّ من نحو السبيكة بارق   إلا غدا شوقي لقلبي شابكا

٢ - والله ما اخْترتُ الفراق لربعها   لكن قضاء الله أوجب ذلكا

---

(٢٨)

١ - العقيق الأولى: واد بظاهر المدينة، والعقيق الثانية: ضرب من الفصوص (الصحاح: مادة (عقق)).

(٣٠)

١ - البارق: السحاب (الصحاح: مادة(برق))

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٤

وقال (رحمه الله) على مذهب الأخفش*: (٣١) (من الكامل)

١ - إنّ الخلاص من الأنام لراحة | لكنّه ما نال ذلك سالكْ
٢ - أضحى بدائرة له متقارب | يرجو الخلاص فعاقه متدارك

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٧٨

وقال (رحمه الله) وقد أهدى طاقية*: (٣٢) (من مجزوء الكامل)

١ - خذها إليك هدية | ممن يعزُّ على أناسكْ
٢ - اخترتها لك عندما | أضحت هدية كلّ ناسكْ
٣ - أرسلتها طاقية | لتنوبَ عن تقبيل راسكْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٧٨

وقال (رحمه الله)*: (٣٣) (من الكامل)

١ - يا أولا في المرسلين وآخراً | الله خصّك بالكمال ليرضيك
٢ - من قبل آدم قد جعلت نبيّه | قِدماً فقدّمك الإله ليعليك

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٥

---

(٣١)

الأخفش: سعيد بن مسعدة توفي سنة ٢١٥ هـ.

ترجمته في: معجم الأدباء: ١١ / ٢٢٤، الإنباه: ٢/٣٦.

٢ - قول الشاعر: (فعاقه متدارك) يشير إلى بحر المتدارك الذي اكتشفه الأخفش وألحقه بالدائرة العروضية الخليلية وهو أربعة تفعيلات: (فعلن فعلن فعلن فعلن) في كل شطر.

(٣٣)

يشير في هذين البيتين إلى عنصر الحقيقة المحمدية، وهو من عناصر قصيدة المديح المهمة كما أشرنا في الدراسة.

(قافية اللام)

قال أبوجعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٣٤) (من الكامل)

١ - صيّرتني في هواك اليوم مشتهراً لا قيس ليلى ولا غيلان في الأولِ

٢ - زعمت أن غرامي فيك مكتسب لا والذي خلق الإنسان من عجلِ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٥

وقال (رحمه الله)*: (٣٥) (من الوافر)

١ - ومالي والتزين يوم عيد وجيد صبابتي بالدمع حالي

٢ - وقد أرسلت أشهبها بريداً وبعد كمينها ينبي بحالي

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٢

وقال (رحمه الله)*: (٣٦) (من الكامل)

١ - قد كان لي أنس بطيب حديثكم والآن صار حديثكم برسولِ

٢ - ولقد مددت من النوى مقصورة إن الخليل يراه غير جميلِ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٦

وقال (رحمه الله)*: (٣٧) (من الكامل)

١ - سألتك بالله يا من غدا يصرّف بالقلب أفعاله

٢ - تدارك مُحبا بدرياق وصلٍ فإنّ بعادك أفعى له

---

(٣٤)

١ - يشير إلى ذي الرمّة غيلان بن عقبة، وهو من فحول الشعراء تميز بالتشبيب توفي سنة ١١٧ هـ.

ترجمته في: خزانة الأدب للبغدادي: ١/ ٥١ - ٥٣، والأعلام: ٥/ ١٢٤.

٢ - عجز البيت إشارة إلى قوله تعالى: ((خلق الإنسان من عجل)) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء.

(٣٥)

٢ - قال المقري: (المراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء، وبالكميت الدمع المشوب بالدم).

نفح الطيب: ٧/٢٧٢، وينظر الأساس: ٢٤٣، ٣٩٨.

(٣٧)

٢ - الدرياق: لغة في الترياق، وهو دواء السموم فارسي معرب. (اللسان: مادة (ترق)).

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٣

وكتب (رحمه الله) إلى صاحبه الشيخ بدر الدين خليل الناسخ قوله*: (٣٨) (من المتقارب)

١ - مددت النوى وقصرت اللقا أترضى بهذا وأنت الخليلْ

٢ - وتترك أحمد ذا وحشةٍ لديك وأنت له ابنُ جليلْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٦

وقال (رحمه الله)*: (٣٩) (من الطويل)

١ - منازل سلمى إن خلت فلطالما بها عمرت في القلب مني منازلْ

٢ - رسائل شوقي كل يومٍ تزورها ما ضُيعتَ عند الكرام الرسائلْ

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٢٧٤

(قافية الميم)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله) معتذرا عمن لم يسلّم*: (٤٠) (من البسيط)

١ - لا تعتبنَ على ترك السَلام فقد جاءتك أحرفه كتبا بلا قلمِ

٢ - فالسين من طرّتي واللام مع ألفٍ من عارضيَ وهذا الميمُ ميمُ فمي

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٨٨

---

(٣٨)

الشيخ بدر الدين الناسخ. لم أقف على ترجمة له فيما رجعت اليه من مصادر.

(٤٠)

٢ - الطرّة: الناحية (اللسان: مادة (طرر))

العارضان: صفحتا الخدين (اللسان: مادة (عرض))

وقال (رحمه الله)*: (٤١) (من المجتث)

١ - لا يقنطنك ذنبٌ قد كان منك عظيمْ
٢ - فالله قد قال قولاً وهو الجواد الكريمْ
٣ - ((نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيمْ))

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٨٨

وقال (رحمه الله)*: (٤٢) (من الخفيف)

١ - حضر العيد يا غزال وقد غبـ ـت وذاك المغيب منك حرامْ
٢ - كيف صومتنا عن الوصل في العيـ ـد وما حلّ يوم عيد صيامْ

التخريج:

* أنوار الربيع: ٢ / ٢٧١

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٤٣) (من الخفيف)

١ - إن بين الحبيب عندي موت وبه قد حييت منذ زمانِ
٢ - ليت شعري متى تشاهده العيـ ـن وتقضي من اللقاء الأماني

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٨٨

وقال (رحمه الله)*: (٤٤) (من السريع)

١ - تجرّ فرعيها على إثرها رافلةً في حُلل الحسنِ

---

(٤١)

١ - لا يقنطنك: القنوط، اليأس (الصحاح: مادة (قنط)).

٢ - هذا نص الآية ٤٩ من سورة الحجر جاء متوافقا مع تفعيلات هذا الوزن.

(٤٢)

١ - البين: للبين معنيان ذكرهما المقري بقوله معلقا على هذا البيت: (وفيه استخدام لأن البين يطلق على البعد والقرب). نفح الطيب: ٢/ ٦٧٥ - ٦٧٦، وينظر: الصحاح: مادة (بين).

(٤٤)

١ - رافلة: واسعة سابغة (الأساس: ١٧٢)

٢ - فتطلعُ البدر لنا في الدجى وترسل البدر على الغصنِ

التخريج:

※ نفح الطيب: ٧ / ٣٤٨

وقال (رحمه الله)*: (٤٥) (من الرمل)

١ - لا تعاد الناس في أوطانهم قلّما يرعى غريب الوطنِ

٢ - وإذا ما شئت عيشا بينهم ((خالق الناس بخلق حسنِ))

التخريج:

بغية الوعاة: ١/ ٢٣٢

※ نفح الطيب: ٧ / ٣٧٥، وأنوار الربيع: ٢/٢٦٥

وقال (رحمه الله)*: (٤٦) (من الطويل)

١ - تجنّت فجنّ في الهوى كل عاقل رآها وأحوال المحبّ جنونُ

٢ - وما وعدت إلاّ عدت في مطالها كذلك وعد الغانيات يكونُ

التخريج:

※ نفح الطيب: ٧ / ٣٧٢

وقال (رحمه الله)*: (٤٧) (من المتقارب)

١ - إذا ظلم العبد فاصبرُ له فبالقرب يقطع منه الوتين

٢ - فقد قال ربُّك وهو القوي: ((وأُ مْلي لهم إنَّ كيدي مَتِيْن))

---

(٤٥)

٢ - عجز البيت إشارة إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) ((خالقوا الناس بخلق حسن)) مقدمة فتح الباري: ١١١

(٤٦)

١ - تجنت: من التجني وهو الظلم والادعاء الباطل (ينظر الصحاح: مادة (جنن)).

٢ - إلا عَدَت: أي تمادتْ (الأساس: ٢٩٥). المطال: التسويف (السابق: ٤٣٢). والغانيات: جمع غانية. وهي الجارية التي غنيت بحسنها وجمالها (الصحاح: مادة (غنى)).

(٤٧)

١ - الوتين: عرق يسقي القلب (الأساس: ٤٩١).

٢ - عجز البيت نص الآية ١٨٣ من سورة الأعراف إذ جاء الوزن متوافقا في تفعيلاته معها. وقوله: أملي لهم: أي أمهلهم (الأساس: ٤٣٧).

التخريج:

* نفح الطيب: ٢ / ٦٨٨ ونسبه لابن جابر.

وهو في أنوار الربيع: ٦ / ٢٩٨ برواية: (إذا ... فأمهل له ....)

معاهد التنصيص:

(قافية الهاء)

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٤٨) (من البسيط)

وهي أبيات كتبها الشاعر مستجيراً بالصفدي:

١ - الناس في الفضل أكفاء وأشباهْ	والكلُّ يزعمُ ما لم تحو كفاهْ
٢ - واستثن منهم صلاح الدين فهو فتىً	إذا ادّعى الفضل لا ردّ لدعواهْ
٣ - إن تلقه تلق كل الناس في رجل	قد بات منفرداً في أهل دنياهْ
٤ - إن تبدُ في الطرس للرائين أحرفه	ردّ ابن مقلة للدنيا وأحياهْ
٥ - وإن أجال جياد الشعر مستبقا	خلى التنوخي عن بعد وأعياهْ
٦ - شخص كأنّ القوافي ملك راحته	متى دعاها لنظم ليس تأباهْ
٧ - يا من يصوغ المعاني من معادنها	ويجتني من جنى الآداب أحلاهْ
٨ - إنّ ابن مالك المملوك أحمد قد	وافاك ترجو التقاط الدرّ كفاهْ

---

(٤٨)

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، أديب، مؤرخ، وصاحب التصانيف الممتعة. تولى ديوان الإنشاء في صفد، ومصر، وحلب ثم بيت المال إلى أن توفي سنة ٧٦٤ هـ.

ترجمته في: الدرر الكامنة: ٢/٨٧، والأعلام: ٢/٣١٥

٢ - يشير بقوله: (واستثن منهم صلاح الدين.) إلى الصفدي صاحب الوافي بالوفيات.

٤ - الطرس: الصحيفة والجمع أطراس وطروس. (الصحاح: مادة (طرس)، والأساس: ٢٧٨).

ابن مقلة: أبو عبد الله الحسن بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة، ومقلة اسم أم لهم.

كان أوحد زمانه في الكتابة والتوقيعات والنسخ، وكان منقطعا لبني حمدان حتى توفي سنة ٣٢٨ هـ.

ترجمته: معجم الأدباء: ٣/١٥٠

٥ - التنوخي: أبو علي المحسن بن علي بن محمد التنوخي، البصري، سمع من الصولي والعباس الأشرم وغيرهما ثم انتقل ليحدث في بغداد، إذ أصبح عالما، وأديبا، وشاعراً واسع الحفظ والسماع إلى أن توفي سنة ٣٨٤ هـ.

ترجمته: وفيات الأعيان: ١ / ٤٤٥، والنجوم الزاهرة: ٤ / ١٦٨

٨ - يشير الشاعر بـ (ابن مالك...) إلى نفسه

٩ - يبغي الأجازة فيما عنك مصدره ... من الكلام الذي قد رَقّ معناهُ

١٠ - شعر لو استنزل الشعرى أتته ولو ... أومى إلى الدرّ أن يأتي لَلَبّاهُ

١١ - وحسن نثر كمثل الدرّ تنثره ... أيدي الصَبا فيعمّ الروضَ ريّاهْ

١٢ - عن مثلك اليوم يروي الشعر عن رجل ... الشعر أيسر شيء عند علياهْ

١٣ - كم من ختام علوم فضّها فغدا ... فضّ الختام لدينا من مزاياهُ

١٤ - فاسلم لصوغ القوافي من معادنها ... ودُمْ لصرف المعاني كيف تهواهْ

التخريج:

الوافي بالوفيات: ٨/٢٠٥ - ٢٠٧

وقد أجابه الصفدي بأبيات لا تقل عن هذه الأبيات جمالاً وروعة

المصدر السابق: ٨ / ٢٠٧

وقال (رحمه الله)*: (٤٩) (من مجزوء الكامل)

١ - لا تأمننه على القلو ... ب فمنه أصل غرامها

٢ - فلحاظه هُنّ التي ... رمت الورى بسهامها

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٧٣

وقال (رحمه الله)*: (٥٠) (من الخفيف)

١ - ربَ ليل قطعته بالجزيره ... فتذكرتُ أهلنا بالجزيره

٢ - قصّر الأنس ما تطاول منه ... وكذا أزمن السرور يسيره

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٧٢

---

٩ - الإجازة: إحدى طرق اكتساب العلم ونقله.

١٠ - الشعرى: كوكب (التاج: مادة (شعر))

(٤٩)

٢ - لحاظه: جمع لحظ وهو النظر بمؤخر عينه (الاساس: ٤٠٥)

(٥٠)

١ - قال المقري: (الجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمّى بالعاصي. والثانية جزيرة الأندلس).

وقال (رحمه الله)*: (٥١) (من المنسرح)

١ - مقدمات الرقيب كيف غدت عند لقاء الحبيب متصله

٢ - تمنعنا الجمع والخلو معاً وإنما ذاك حكم منفصله

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٤٨

وقال (رحمه الله)*: (٥٢) (من الكامل)

١ - قالتْ وقد حاولت نيل وصالها من غير شيء لا تجوز المسأله

بالله قل لي أين نحوك يافتى؟! أرأيت موصولاً يجيء بلا صله

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ /٣٤٨

(قافية الألف المقصورة)

وقال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله)*: (٥٣) (من الرمل)

١ - حسّن النيّة ما استطعت ولا تتبع في الناس أسباب الهوى

٢ - إنما الأعمال بالنيّات من ينوِ شيئاً فله ما قد نوى

التخريج:

* نفح الطيب: ٧ / ٣٤٨

وقال (رحمه الله) معلقا على ألفية ابن معط*: (٥٤) (من المنسرح)

١ - يا طالبَ النحو ذا اجتهاد تسمو به في الورى وتحيا

٢ - إن شئت نيل المراد فاقصدْ أرجوزة للإمام يحيى

التخريج:

* النجوم الزاهرة: ١١/ ١٨٩

---

(٥٣)

٢ - يشير إلى حديث النبي (ﷺ): ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)).

صحيح البخاري: ١ / ٢. وسنن ابن ماجه: ٢ / ١٤١٣ مع اختلاف بسيط في الرواية.

(٥٤)

ابن معط: هو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي. عالم بالعربية والأدب. وهو صاحب الدرة الألفية في علم العربية. ذاعت شهرته لعلمه وأسفاره وكانت وفاته سنة ٦٢٨ هـ.

ترجمته في: وفيات الأعيان: ٢ / ٢٣٥. والأعلام: ٨ / ١٥٥.

الملكة النثرية عند أبي جعفر الرعيني:

أودّ أن أشير في هذه السطور إلى أنّ المصادر التي ترجمت لأبي جعفر الرعيني لم تنقل عنه شعره فحسب، وإنّما نقلتْ أيضا نصوصا نثرية اتخذت صيغا متعددة يدخل بعضها في باب الوصف، أو باب الشرح والتفسير . ويدخل بعضها الآخر بما يمكنُ أن نسمّيه اللمحات النقدية، وأقول: لمحات، لأنّها اخْتارتْ طابع الاختصار، وعدم التعمق في دلالات الألفاظ والمعاني سمة لها، بشكلٍ يجعلنا غيرَ قادرين على إدراك الأبعاد الحقيقية للرؤيا التي يمتلكها هذا العالم الجليل.

ويبدو أن شروحه المتنوعة الموضوعات كانتْ رافداً مهمّاً من روافد هذه النصوص، ولا سيّما تلك التي تتعلقُ بالنقد.

أمّا أسلوبه في عرضها فلم يكنْ يسيرُ على وتيرة واحدة، فنراه يستخدم الأسلوب المرسل تارة، وأسلوب الصنعة البديعية وهو الغالب تارة أخرى.

فكان يركن في أسلوبه الأول إلى العبارة السلسة، المنسقة المعاني، ويلجأُ في الآخر إلى استخدام العبارات المسجوعة المقفّاة، غير أنّ الشاعر ميّز مقدرته من خلال سعيه للتخلّص من رتابةِ هذا الاستخدام بإطالة العبارة، وعدم إقحام الألفاظ على حساب المعاني، فجاءت نصوصه كما يريدها مؤلفها في الأعمّ الأغلب.

وحتى نعقد الرأي بالمثال سأورد في السطور الآتية ما وقفت عليه من نصوص نثريه بحسب أبوابها.

أولا: الوصف:

قال أبو جعفر الرعيني في رسالة له: (وافى كتابك فوجدناه أزهى من الأزهار، وأبهى من حسن الحباب على الأنهار، يشرق إشراق نجوم السماء، ويسمو إلى الأسماع سمو حباب الماء)[1]

وقال واصفا موضع قبر قسّ بن ساعدة:[2]

(زرنا قبره فرأينا موضعا ترتاح إليه النفس، ويلوح عليه الأنس وعند قبره عين ماء يقول: إنه ليس بجبل سمعان عين تجري غيرها هناك)[3]

وقال معلقا لما ذكر قصيدة كعب بن زهير (رضي الله عنه)[4] ما نصّه: (وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ والحكم الذي لم يوجد له ناسخ، أنشدها كعب في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسّل بها فوصل إلى العفو عن عقابه، فسدّ (ﷺ) خلّته[5]، وخلع عليه حُلّته[6]، وكفّ عنه كفّ من أراده، وأبلغه في

---

(١) نفح الطيب: ٦٧٨/٢

(٢) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي الأيادي، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، وعمّر حتى أدرك النبي (ﷺ) قبل البعثة.

ترجمته في: خزانة البغدادي: ٨٨/٢، والأعلام: ١٩٦/٥.

(٣) نفح الطيب: ٢/ ٦٨٧

(٤) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، شاعر من أهل نجد، اشتهر بلاميته التي اعتذر فيها للنبي (ﷺ) بعد أن أهدر دمه فأسلم، توفي سنة (٢٦ هـ).

ترجمته في: الشعر والشعراء: ١ / ١٣٧ - ١٥٢، والأعلام: ٥ / ٢٢٦.

(٥) خلته: حاجته (الصحاح: مادة (خلل)، والأساس ١١٩).

(٦) حلته: الحلّو برد يماني، والحلة إزار ورداء ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين. (الصحاح: مادة (حلل))

نفسه وأهله مُراده. وذلك بعد إهداره دمه. وما سبق من هذر كَلِمِه . فمحتْ حسناتها تلك الذنوب. وسترت محاسنها وجه تلك العيوب. ولولاها لمنع المدح والغزل. وقطع من أخذ الجوائز على الشعر الأمل. فهي حجة الشعراء فيما سلكوه. وملاك أمرهم فيما ملكوه. حدثني بعض شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب. فقيل له في ذلك. فقال: رأيت رسول الله (ﷺ) فقلت: يا رسولَ الله قصيدة كعب أنشدها بين يديك. فقال: نعم. وأنا أحبها. وأحبّ من يحبها.

قال فعاهدتُ الله أنّي لا أخلو من قراءتها كل يوم[1].

ومن كلامه (رحمه الله) في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام (قلت: وكانَ هذا الوادي المبارك زمن عثمان (رضي الله تعالى عنه) ذا قصور محتفة. وحدائقَ ملتفَة. وبنيان مشيد. ونخل طلعهُ نضيد[2]. وجنات تُؤتي أكلها كلّ حين[3]. وسواقٍ تجري به بماءٍ مَعين[4]. ثمّ لَعِبَتْ به أيدي السنين. وغيّرتْ معالمه فصار عبرةً للناظرين. فلم يبقَ من معاهده إلا آثاراً تشهد بحسنه. ونظرة نعيم تدلّ على ما سلف من نظارة غصنه. وقد خرجْنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة. وهو يتدفقُ بمائه. ويعارضُ بجوهر حبابه أنجم سمائه. وقد سالت شعابُه. وفاض عُبابُه[5]. والناس تفرّقوا في جهاته. وافترشوا غضّ نباته. والشيحُ[6] قد توشّح بالندى. والأنس قد راح به وغدا. والأصيل مُذَهّب الرداء. والبيداء مخضرة الأنداء. وبحافته آثار قصور. ليس لها في الحسنِ قصور. قد بليت وحسنها جديد. وخرّبت وربعها بالأنس مشيد)[7]

ثانيا : الشرح والتفسير

قال أبو جعفر الرعيني (رحمه الله) في شرح بيتٍ لابن جابر الأندلسي وهو:

خير الليالي الخير في أضم ... والقوم قد بلغوا أقصى مرادهم[8]

(يقول – أي ابن جابر –: إنّ خيرَ الليالي التي تنشرح لها الصدور. ويحمد فيها الورود والصدور. ليالي الخير في إضم. حيث النزيل لم يُضمّ. والقوم قد وردوا موارد الكرم. وبلغوا أقصى مرادهمُ في ذلك الحرم)[9]

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٦٨٨ – ٦٨٩

(٢) نضيد: المنضود. وهو ضم الشيء بعضه إلى بعضه متسقا أو مرموما (الأساس: ٤٦٠).

(٣) هذه عبارة مقتبسة من قوله تعالى ((تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها...)) بعض الآية ٢٥ من سورة إبراهيم. وهي متعلقة بما قبلها.

(٤) هذه العبارة مقتبسة أيضا من قوله تعالى ((قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين)) الآية ٣٠ من سورة الملك.

(٥) العُباب: الماء الشديد (الأساس: ٢٩١)

(٦) الشيح: نبات (الصحاح: مادة (شيح)).

(٧) نفح الطيب: ٧ / ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٨) أضم: واد دون المدينة (الروض المعطار: ٤٥).

(٩) نفح الطيب: ٢/ ٦٩٠.

ونقل ابن معصوم المدني شرح الرعيني لبيت بديعية ابن جابر الأندلسي:

يروي حديث الندى والبشر عن يده ووجهه بين منهل ومبتسم

فقال: (قال رفيق الناظم - أبو جعفر - شارح هذه البديعية: العنعنة مناسبة الكرم)[١].

(ومن فوائده (رحمه الله) في شرح البديعية ما نصّه: ومن غريب ما في (لَدَى) أنَ أبا علي حكى في تذكرته عن المفضَل أنها أتت بمعنى (هل) وأنشد:

لدى من شباب يُشترى بمشيبِ وكيف شباب المرء بعد ذهابِ[٢]

ثالثاً: اللمحات النقدية:

(لأبي جعفر الرعيني (رحمه الله) تعليق على بيت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي قاله في مستهلّ قصيدة أنشدها أمام المعتصم[٣] بعد أن فرغ من بناء قصر له في الميدان:

يا دارُ غيرَك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم من قبح هذا المطلع، وأمر بهدم القصر على الفور. إذ يقول: وإذا أردت أن تنظر إلى تفاوت درجات الكلام في هذا المقام فانظر إلى إسحاق الموصلي، كيف جاء إلى قصر مشيد، ومحل سرور جديد، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية، والمنازل الدارسة الخالية، فقال: (يا دار غيّرك البلى ومحاك) فأحزن في موضع السرور، وأجرى كلامه على عكس الأمور، وانظر إلى قول القطامي[٤]:

إن محيّوك فاسلم أيها الطللُ وإن بليت وإن طال بك الطيلُ

فانظر كيف جاء إلى طلل بالٍ، ورسم خال، فأحسن حين حياه، ودعا له بالسلامة، كالمستبهج برؤيا محياه، فلم يذكر دروس الطلل وبلاه حتى آنس السامع بأوفى التحية، وأزكى السلامة، والذي فتح هذا الباب وأطنب فيه غاية الإطناب صاحب اللواء، ومقدم الشعراء - يقصد امرأ القيس - حيث قال:

ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي

وهل يعمن إلا سعيدٌ مخلَدٌ قليل هموم ما يبيت بأوجالِ

---

(١) أنوار الربيع: ٣/ ١٤٠، وفيه رد لابن معصوم وإضافة على البيت.

(٢) إسحاق بن إبراهيم الموصلي، أحد علماء اللغة الشعراء، اشتهر بالغناء والموسيقى ومنادمة الخلفاء كالرشيد ومن جاء بعده، وكانت وفاته سنة ٢٣٥ هـ. ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/ ١٨٢، والفهرست المنسوب خطأ لابن النديم: ٢٠٧

(٣) المعتصم: هو محمد بن هارون الرشيد، فتح عامورية، وبعهده بنى سامراء توفي سنة (٢٢٧ هـ).

ترجمته في: مروج الذهب: ٢/ ٢٦٩- ٢٧٨، والأعلام: ٧/ ١٢٧- ١٢٨

(٤) القطامي: هو عمرو بن شبيم، شاعر فحل عاش في العصر الإسلامي من نصارى تغلب، وكانت وفاته سنة ١٣٠ هـ.

ترجمته في: الشعر والشعراء: ٢٧٧، والأعلام: ٥ / ٨٨ - ٨٩.

قيل وهذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنة: لأن السعادة والخلود وقلة الهموم والأوجال لا توجد إلاّ في الجنّة)[1]

وفي موضع آخر نقل ابن معصوم المدني أبيات نسبت لحمده بنت زياد (خنساء الأندلس) التي يقول فيها:

(ولما أبى الواشون إلا فراقنا | وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة | وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي | ومن نفسي بالماء والسيف والنار

قال: قال الرعيني بعد ذكر هذه الأبيات: كانت لحمده هذه من ذوي الألباب. وفحول أهل الآداب. حتى أن بعض المنتحلين[2] تعلّق بهذه الأهداب. وادعى نظم هذه الأبيات لما فيها من المعاني والألفاظ العذاب. وما غرّه في ذلك إلا بُعد دارها. وخلو هذه البلاد[3] المشرقية من أخبارها. وقد تلبس بعضهم أيضا بشعارها وادّعى غير هذا من أشعارها. وهو قولها:

وقانا لفحة الرمضاء واد | سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا | حنوّ المرضعات على الفطيم

إلى آخر الأبيات

وإن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد المشرقية للمنازي[4] من شعرائهم. وركبوا التعصب في جادة ادعائهم. وهي أبيات لم يحكها[5] غير لسانها. ولا رقم بردتها غير إحسانها. ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود. ويتصف بلفظ الموجود)[6].

فهذه كانت جلّ النصوص التي أوردتها مظان ترجمته. وهي تكشف النقاب عن آراء مميزة لارتباطها بعالم مخل عاش في القرن الثامن الهجري وهو أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني (رحمه الله). وهي لا تقع في الوصف والتفسير والنقد كما ذكرنا فحسب. وإنما نراه يبحث في صحّة النسبة وهذا أمر لا يخوض غماره إلا من له باع في دراسة الأدب. واطلاع بتاريخ الشعراء وأشعارهم.

---

(١) أنوار الربيع: ١ / ٧٦ - ٧٨ .

(٢) في أنوار الربيع: (المنسلين).

(٣) في أنوار الربيع: (الأبيات)

(٤) المنازي: هو أبو نصر أحمد بن يوسف السلكي المنازي. وزر لأبي نصر صاحب ميافارقين وديار بكر. عاصر أبا علاء المعري والتقى به مرارا توفي سنة ٤٣٧ هـ.

ترجمته في. خريدة القصر: قسم الشام: ٢ / ٣٤٨ و ٤٥٥ وفيه إن وفاته سنة ٤٣٧ هـ. ووفيات الأعيان: ١ / ١٢٦ .

(٥) في نفح الطيب: (لم يخلبها ...)

(٦) نفح الطيب: ٤ / ٢٨٨ - ٢٨٩. وأنوار الربيع: ١ / ٣٤٤ - ٣٤٦ .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة. للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ). تحقيق عبد الله عنان. ط/١. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

٣ - أساس البلاغة. لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ). تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود. دار المعرفة. بيروت - لبنان. (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م).

٤ - الأعلام. لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ). ط / ٤. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٧٩ م.

٥ - الأغاني. لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ). تحقيق مجموعة من المحققين. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان. (د.ت).

٦ - إنباه الرواة على أنباه النحاة. لأبي الحسن جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦ هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط/١. مطبعة دار الكتب المصرية في القاهرة. (١٩٥٥ م - ١٩٧٣ م).

٧ - الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم محمد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ). وضع حواشيه محمد عبد القادر عطا. ط/١. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان (١٤١٩ هـ - ١٩٨٨ م).

٨ - أنوار الربيع في أنوار البديع لعلي صدر الدين بن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ) تحقيق شاكر هادي شكر. ط/١. مطبعة النعمان. النجف الأشرف. (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م).

٩ - الإيضاح. شرح لمقامات الحريري. لأبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي (ت ٦١٠ هـ). تحقيق الدكتور فراس عبد الرحمن أحمد النجار. وهي أطروحة نال بها المحقق الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها.

١٠ - الإيضاح في علوم البلاغة. لجلال الدين محمد عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ). تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر. طبعة مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

١١ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لإسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ). دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط/١. المكتبة العصرية. بيروت - لبنان. (د.ت).

١٣ - تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) قام بتحقيقه جماعة من المحققين. طبع في الكويت منذ سنة (١٣٨٥ / ١٩٦٥ - ١٤١٩ / ١٩٩٨ م).

١٤ - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. للحافظ أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي المصري (ت ٩٠٢ هـ).

١٥ - التصوف في الشعر العربي. نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري. عبد الحكيم حسان. طبعة مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. ١٩٥٤ م.

١٦ - خريدة القصر وجريدة العصر. لعماد الدين الأصبهاني (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق محمد بهجة الأثري. مطبعة المجمع العلمي العراقي. ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م.

١٧ - خزانة الأدب وغاية الأرب. لتقي الدين أبي بكر علي المعروف بابا حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ). شرح عصام شعيتو. ط/١. دار الهلال. بيروت - لبنان. ١٩٨٧ م.

١٨ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ). تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط/١. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

١٩ - درر العقود الفريدة لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ).

٢٠ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ). تصحيح الدكتور سالم الكرنكوي الألماني.

٢١ - ديوان امرئ القيس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط/٤. دار المعارف. القاهرة. ١٩٨٤ م.

٢٢ - الذيل على العبر للولي العراقي.

٢٣ - الروض المعطار في خبر الأقطار. لمحمد بن عبد المنعم الحميري (توفي في حدود ٧٤٩ هـ) تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان. ١٩٧٥ م.

٢٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك. لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) نشره محمد مصطفى زيادة. دار الكتب المصرية. القاهرة. ١٩٣٦ م.

٢٥ - سنن ابن ماجه. لمحمد بن زيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م).

٢٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لأبي الفلاح عبد الحي. العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ) دار الفكر للطباعة. بيروت - لبنان (د.ت).

٢٧ - شرح الصولي لديوان أبي تمام. لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٣ هـ) دراسة وتحقيق الدكتور خلف رشيد نعمان. ط/١. طبعة وزارة الإعلام. العراق ١٩٧٧م.

٢٨ - الشعر والشعراء لأبي محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. دار الحديث. القاهرة. ١٤٢٣ - ٢٠٠٣ م.

٢٩ - الصحاح. (تاج اللغة وصحاح العربية) لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٤٠٠ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. ط/٤. دار العلم للملايين. بيروت - لبنان.

٣٠ - صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ). دار الفكر. بيروت. ١٩٨٦ م.

٣١ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع. لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ). طبعة بيروت. (د.ت).

٣٢ - طراز الحلة لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي (ت ٧٧٩ هـ) تحقيق الدكتورة رجاء السيد الجوهري. ط/١.

٣٣ - العين. للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ). تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار الرشيد. بغداد. (١٩٨٠ م - ١٩٨٥ م).

٣٤ - غاية النهاية في طبقات القراء. لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣ هـ). تحقيق برجستراسر. القاهرة. ١٩٣٢ - ١٩٣٣ م.

٣٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز. ومحمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط/١. ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

٣٦ - فوات الوفيات لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت - لبنان. ١٩٧٣ م.

٣٧ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ). دار العلوم الحديثة. بيروت - لبنان (د.ت).

٣٨ - اللباب في تهذيب الأنساب لأبي الحسن علي بن عبد الواحد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ). دار صادر. بيروت. (د.ت).

٣٩ - لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور (ت ٧١١ هـ) دار صادر. بيروت. (د.ت).

٤٠ - المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري. للدكتور مخيمر صالح. الدار العربية عمان. ط/١. ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٤١ - مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ). تحقيق علي محمد البجاوي. مطبعة الحلبي. مصر. ١٩٥٥م.

٤٢ - مروج الذهب لعلي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ). بيروت - لبنان ١٩٦٥ م.

٤٣ - معاهد التنصيص: لعبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ). تحقيق محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة. مصر. ١٣٦٧هـ.

٤٤ - معجم الأدباء. لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) مطبوعات دار المأمون. الطبعة الأخيرة. دار إحياء التراث العربي. بيروت - لبنان. (د-ت).

٤٥ - معجم البلدان. لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ). دار الفكر. بيروت. ١٩٨٦ م.

٤٦ - معجم المؤلفين. تراجم مصنفي الكتب العربية. لعمر رضا كحالة مطبعة الترقي. دمشق. ١٩٥٨ م.

٤٧ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. لأحمد بن خليل بن مصطفى. الشهير بطاش كبري زادة (ت ٩٦٨ هـ). تحقيق كامل كامل بكري. عبد الوهاب أبو النور. مصر.

٤٨ - من أعلام النحاة في القرن الثامن الهجري. أبو جعفر الرعيني الغرناطي المتوفى سنة (٧٧٩ هـ) حياته وآثاره. بحث نشره عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم في مجلة الحكمة ع ١٨ لسنة ٢٠٠٦. ص (٢١٩ - ٢٧٢).

٤٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٤٧ هـ). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. ١٩٦٣ م.

٥٠ - نظم العقدين في مدح سيد الكونين. أو العين في مدح سيد الكونين. لابن جابر الأندلسي محمد بن أحمد بن علي (ت ٧٨٠ هـ). تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب. ط/١. دار سعد الدين. دمشق. ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

opinions of Albucasis and about extracting thorns and what sticks to the throat like bones or leech.

Thirdly: Thorns and Glass: This part contains the opinions of Rhazes about thorns and glass that enter the body and how to extract them.

Fourthly: Extracting Arrows: Albucasis reviews types of arrows, the organs injured by them and how to extract them. He also talks about many abnormal cases of people injured by arrows and how he treated them.

Poems of Abu Jaafar Alraeini Alghrnati (779 A.H.) – With Some of His Collected Scripts Verified and Studied

Dr. Firas Abdul-Rahman Ahmed Al-Najjar

The research includes a study of Abu Jaafar Alraeini's life, his scientific background, the views of scholars on him, the mention of some of his students, his teachers and his scientific works. With the description of his poetry purpose in detail, the research shows some of the technical aspects which were cited after studying the poetry of Abu Jaafar Alraeini, then collected as a biography arranged according to the alphabetical order with references and comments; in conclusion the researcher writes about the talent of Abu Jaafar Alraeini.

Mauritania, Ghana, Nigeria, morocco, Egypt.....

Thus, it seems difficult to find all this manuscripts intact nowadays due to weather conditions and human effects. We all believe that we are responsible for preserving the heritage of our society and nation and memorize the real life of our ancestors and their civilization. Throughout these papers I intend to expose the different scientific symbols from different manuscripts and libraries discovered in the district of Touat in addition to their works during eight centuries in order to make it closer to researchers and scholars.

Samples of Precious Heritage in " Al Dur Al Thamin Fi Asma'a Al Musannafin" to Ibn Anjab Al Saai

D. Mohammed Saeed Hanshi

The book "Al Dur Al Thamin Fi Asma'a Al Musannafin" to Ibn Anjab Al Saai which was known as "Akhbar Al Musannafin" "The news of Authors" it is considered one of the most important works of this great scholar, it was believed that this book was missed, but fortunately the first part of this book was found in Morocco's library. It is one of the rare Arabic sources which contain the news of authors and the classification of the Arabic heritage. The interesting aspect of this book, which is the subject of this research, is the existence of some information about Ibn Anjab itself and some of his missed work, as well as the other books from which he acquires some information about authors.

Foreign Bodies' Accidents of Arab and Muslim Doctors

Dr. Mahmood Al-Haj Qasim Mohammed

Foreign bodies' accidents of children are very familiar since the past and till now. These accidents are different and of great number and they usually happen to children at the age of one or two years. Foreign bodies are different due to the difference of the bodies found in children. In what follows we talk about the opinions of Arab and Muslim doctors about this subject:

First: Foreign Bodies in the Ear: Arab and Muslim doctors extracted foreign bodies by using simple instruments. For example: Albucasis describes different ways to extract foreign bodies, especially the solid ones. If he fails to extract these bodies, he uses surgical instruments, and if this does not work, he resorts to surgery. The research also contains the opinions of Rhazes and Avicenna about the insects and worms that enter the ear and how to get rid of them.

Secondly: Foreign Bodies that Enter the Pharynx: In this part we talk about the

The Preacher, the Reformer and the Traveler, the Algerian Al- Sheikh Al-Khatib Al-Fadil Al-Wartilani AL-Azhari (1900 - 1959).

Dr. Ahmed Isawi

This research reveals a biography of a unique person in advocacy and religious reform in Algeria: he is the most important person in advocacy, reform, political and religious activity in Algeria during the modern era. The research includes a statement of the environment and the circumstances of his era. political and cultural state of Algeria during twentieth century revealing the origins of this preacher, his birth, his learn, and factors of his genius, his advocacy and reform activity, his political activity; and his methods and means of advocacy, reform included: political action, press and travels. The research reveals the compilations of Al-Sheikh, how he neglects his health and dies, and the characteristics of his personality, and his reforms impact.

Andalusian manuscript industry:
Al-Biadi the last calligrapher in Andalusia

Abdul Aziz Alsawri

This research encloses one of the great calligraphers in Andalusia, whom the history almost missed if the traces of his work and beautiful handwriting were not found. Therefore, this research is the first attempt to assembling all work and information about this great calligrapher. the researcher illustrates in this study the genealogy of the calligrapher as well as he mentions some of his beautiful handwriting work, (some copies of his work were added at the end of this study), the research shows also his interest to the classification of writings of some authors such as Ibn Sina, Al-Farabi, Ibn Rushd the grandchild and Suyooti, etc....

Manuscript Stores in Touat Districts (Algeria)
Reality and Perspectives

Dr. Ahmed Djaafri

Touat's district consists of different stores and thousands of manuscripts and for this it is considered as a real stock for the manuscripts in Algeria in general. Recent statistics in this field shows that until 1962 there were about 20000 manuscripts found in 100 stocks and local library in addition to other copies found in other countries such as Mali, Niger,

financial) by the community to develop the science which is considered the essential base of dialogue strength with others. As a result, laziness and underdevelopment have become the most obvious features of Arab universities.

Misunderstanding of the community to the cultural huge benefit of adopting science and technology is the most dangerous factor which obstructs the scientific progress. These misunderstanding of the community is attributed to the great numbers of illiterates resulted by the political autocracy which the contemporary Arab person is suffering.

The Impact of Sebawayh (died 180 A.H.) in the Book of "Al Ighfal" to Abi Ali Al-Farisi (died 377 A.H.)

Dr. Halim Hammad Suleiman

The first book in Arabic syntax is Sebwayh's book known as "The book" the author is professional in this field. he has collected many of the Arabic language Sciences as grammar, syntax, phonetic etc..., therefore all authors in Arabic language rely on his book as a reference which is considered as a great impact on the succedents scholars. This study shows this impact in the book of "Al Ighfal" to Abi Ali Al-Farisi which clearly shows the following aspects: phonetic, grammar and syntax. This research expands in the last section with twelve grammatical paragraphs.

Semiotic of Symbol and Icon
A Poem to Ibn Al-Allaf in Praise of Cat as an Example

Prof.Dr. Ahmed Ali Mohamed

The famous poem to Ibn Al-Allaf "praise of the cat" contains indicatives and shown a lot of inspiration which is rare in the poems of Arabic literature. The novelty of the subject is sufficient to occupy a large space in Arabic memory... It is known that semiotics in terms of communication has three basic ways: the indicator, the symbol and the icon. This research illustrate the poem of Ibn Al-Allaf "praise of the cat" as an example: the explanation of the poem start with symbols then icons and after that indicators as well as the clarification of the cat icon in heritage, also he appointed the symbols with these interpretations which clarify the signification of the icons.

Constraints for the Understanding of "Sunna" According to Sheikh Mohamed El-Ghazali

Dr.Abdelkarim Hamidi

Sheikh Mohamed El-Ghazali deals with one of the most important issues which requires and necessitates a great effort and research in the Islamic cultural heritage. Till today this subject has a great importence and significance for the Muslims, Sheikh El-ghazali points to the malpractices of some Muslims towards the "Sunna", (ie the prophets verbal and behavioral instructions) based on their misunderstanding and superficial interpretation of the "Hadith" (the prophets citations) (PBUH). These misinterpretations are completely isolated and unrelated to the koranic spirit and concepts.

Therefore El-Ghazali emphasizes the need to understand and interpret the Sunna under the koranic concepts and values explained by the "Aimah" ie : Muslim scientists.

To rectify the misunderstanding of "Sunna", sheikh El-ghazali suggests a set of constraints and criteria to remedy the understanding and interpretation of citations leading thus to the accurate practice of the "Sunna" as illustrated in this study.

The Evaluation of Cultural Dialogue Level in Arab Universities

Prof. Dr. Mohammed Saleh Al-Ajili

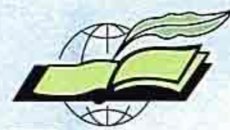
Dialogue is the best means of co-living between the nations and peoples of the universe to avoid tension and struggle which may cause crises and then wars. Dialogue between civilizations is a human need and strategic choice imposed by the grave challenges faced by the international community, so, it has become necessary to work together to adopt effective initiatives toward activating the role of universities in the field of cultural dialogue considering that a university represents the cultural gent of any community as it has the ability to face others effectively and practically.

As regards evaluation of Arab universities, science, technology and societies` willing to develop them are the three sides of triangle necessary for achieving any scientific and then economic, political and cultural progress. More then 260 Arab universities and 138000 post-graduates as well as other scientific degrees have not got sufficient support (moral and

INDEX

'Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Quarterly Journal of Cultural Heritage



Published by:
The Department of Studies,
Publications and Cultural Relations
Juma Al Majid Center
for Culture and Heritage
Dubai - P.O. Box: 55156
Tel.: (04) 2624999
Fax.: (04) 2696950
United Arab Emirates
Email: info@almajidcenter.org

Volume 16 : No. 64 - Muharram - 1430 A.H. - January 2009

INTERNATIONAL RECORD NUMBER

ISSN 1607 - 2081

This Journal is listed in the "Ulrich's International Periodicals Directory" under record No. 349378

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE	U.A.E.	Other Countries
Institutions	100 Dhs.	150 Dhs.
Individuals	70 Dhs.	100 Dhs.
Students	40 Dhs.	75 Dhs.

الشروط الخاصة بنشر كتب محكمة ضمن سلسلة آفاق الثقافة والتراث

١ - أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:

- قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.

- قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ - ألاّ يكون الكتاب جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍ كان، ويشمل ذلك الكتب المقدمة للنشر إلى جهةٍ أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ - يجب أن يُراعى في الكتب المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ - يجب أن يكون الكتاب سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ - يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ - بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كل كتاب مرتبة ترتيبًا هجائيًا تبعًا للعنوان، مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ - أن يكون الكتاب مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا بالآلة الكاتبة، أو بخط واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ - على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة، مبيّنًا اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسمٍ وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه، وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ - يمكن أن يكون الكتاب تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالكتاب صورٌ من نسخ المخطوطِ المحقّق الخطيّة المعتمدة في التحقيق.

١٠ - أن لا يقل الكتاب عن مئة صفحة ولا يزيد عن مئتين.

١١ - تخضع الكتب المقدمة للتقويم والتحكيم حسب القواعد والضوابط التي يلتزم بها، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين، قصد الارتقاء بالبحث العلمي خدمةً للأمّة ورفعًا لشأنها، ومن تلك القواعد عدم معرفة المحكمين أسماء الباحثين، وعدم معرفة الباحثين أسماء المحكمين، سواء وافق المحكمون على نشر البحوث من غير تعديلٍ أو أبدوا بعض الملاحظات عليها، أو رأوا عدم صلاحيتها للنشر.

ملاحظات

١ - ما ينشر في هذه السلسلة من آراء يعبّر عن فكر أصحابها، ولا يمثّل رأي الناشر أو اتجاهه.

٢ - لا تُردّ الكتب المرسلة إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أو لم تنشر.

٣ - لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر كتابه بعد عرضه على التحكيم إلاّ لأسباب تقتنع بها اللجنة المشرفة على إصدار السلسلة، وذلك قبل إشعاره بقبول كتابه للنشر.

٤ - يُستبعد أيّ كتابٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ - يدفع المركز مكافآت مقابل الكتب المنشورة وثلاثين نسخة من الكتاب المطبوع.

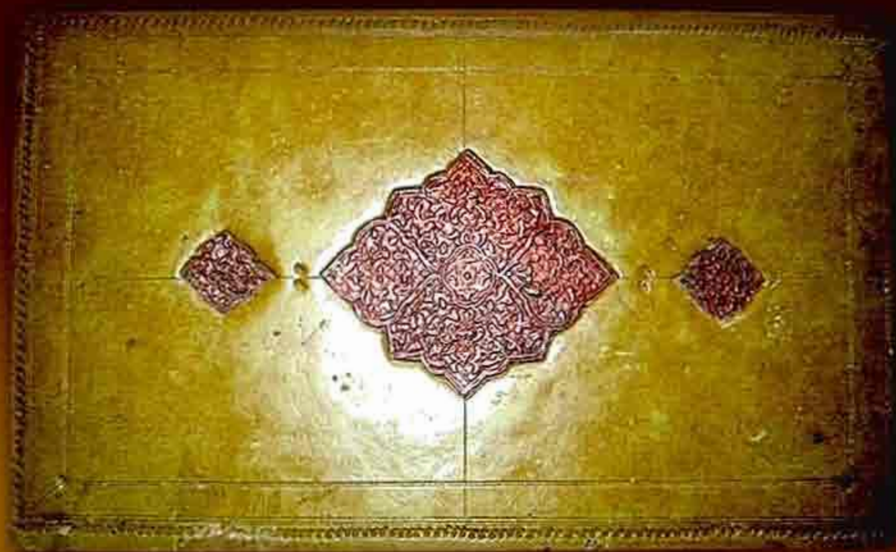
Āfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth



Juma Al Majid Center
for Culture and
Heritage - Dubai

A Quarterly Journal of Cultural Heritage

Volume 16 : No. 64 - Muharram - 1430 A.H. - January 2009



غلاف مزخرف من الجلد لمخطوط من بخارا بأوزباكستان
صنع في القرن التاسع عش الميلادي

Ornamented cover of leather for a manuscript coming from Bukhara Uzbekistan made in the nineteenth century

Published by:
Department of Studies, Publications and Cultural Relations
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage